بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «مقدمة في أصول التفسير»:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ بِرَحْمَتِكَ

الْحَمْدُ للهِ، نَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ سَأَلَنِي بَعْضُ الْإِخْوَانِ أَنْ أَكْتُبَ لَهُ مُقَدِّمَةً تَتَضَمَّنُ قَوَاعِدَ كُلِّيَّةً تُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ وَمَعْرِفَةِ تَفْسِيرِهِ وَمَعَانِيهِ، وَالتَّمْيِيزِ فِي مَنْقُولِ ذَلِكَ وَمَعْقُولِهِ، بَيْنَ الْحَقِّ وَأَنْوَاعِ الْأَبَاطِيلِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ الدَّلِيلِ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْأَقَاوِيلِ.

فَإِنَّ الْكُتُبَ الْمُصَنَّفَةَ فِي التَّفْسِيرِ مَشْحُونَةٌ بِالْغَثِّ وَالسَّمِينِ، وَالْبَاطِلِ الْوَاضِحِ وَالْحَقِّ الْمُبِينِ، وَالْعِلْمُ إِمَّا نَقْلٌ مُصَدَّقٌ عَنْ مَعْصُومٍ، وَإِمَّا قَوْلٌ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مَعْلُومٌ، وَمَا سِوَىٰ هَذَا؛ فَإِمَّا مُزَيَّفٌ مَرْدُودٌ، وَإِمَّا مَوْقُوفٌ لَا يُعْلَمُ أَنَّهُ بَهْرَجٌ وَلَا مَنْقُودٌ...

الشَّرْح:

هذا المصنَّف في أصول وقواعد التَّفسير لفهم معاني القرآن، والعناية بعلم تفسير القرآن هو من أنفع ما يكون للمتعلمين؛ لأنَّ القرآن كتاب الله الذي تعبَّدنا به، وفيه بيان الهدىٰ والحق، وفيه أنواع العلوم من العقيدة، والفقه، والسِّياسة، والأخلاق، والمعاملات. وأوَّل ما كتب علماء الأمَّة المتقدِّمون من الكتب من أنواع العلوم كان في التَّفسير، قال أبو زكريَّا يحيىٰ بن إبراهيم السلماسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٥٥٠هـ)[١]: «أوَّل كتاب صُنِّف في الإسلام كتاب ابن جريج في التَّفسير»[٢]، وهذا يدلُّ علىٰ عظيم عناية السَّلف بمعاني القرآن.

والعناية بالقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا وتحاكمًا إليه؛ هو من النَّصيحة لله عَزَّوَجَلَّ ولكتابه، وهو من النَّصيحة لأئمَّة المسلمين وعامَّتهم.

وما من عالم ناصح للإسلام إلا وهو يحثُّ علىٰ ذلك، ويودُّ لو أنَّ المسلمين أخذوا بالقرآن وتفقَّهوا وعملوا به وتحاكموا إليه.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إنِّي لأمر بالآية من القرآن فأفهمها، فأودُّ أنَّ النَّاس كلَّهم فهموا منها ما أفهم».

وقال عبد الله بن عون البصري التَّابعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «ثلاث أحبُّهن لنفسي

---

(١) «منازل الأئمَّة الأربعة» (ص١٨٨).

(٢) **قال سفيان بن عيينة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان ابن جريج قد كتب التَّفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن مجاهد. بدائع الفوائد (٣/ ١٠٣٣).

(٣) ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنَّة، باب الاقتداء بسنن =

ولإخواني: هذه السُّنَّة أن يتعلَّموها ويسألوا عنها، والقرآن أن يتفهموه ويسألوا النَّاس عنه، ويدعوا النَّاس إلا من خير».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد أمر الله بتدبُّر كتابه، فقال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، ولم يقل: بعض آياته، وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وأمثال ذلك في النصوص التي تبيِّن أن الله يحب أن يتدبَّر الناس القرآن كله، وأنه جعله نورًا وهدًىٰ لعباده».

وقال العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أعظم كتاب وأصدق كتاب يجب أن يُقرأ في تعليم العقيدة والأحكام والأخلاق هو كتاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه».

وقال العلامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إنَّ علم التفسير أجلّ العلوم علىٰ الإطلاق، وأفضلها، وأوجبها، وأحبها إلىٰ الله؛ لأن الله أمر بتدبر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته، وأثنىٰ علىٰ القائمين بذلك، وجعلهم في أعلىٰ المراتب، ووعدهم أسنىٰ المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا

=

رسول الله، ورواه أبو القاسم اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» من طريق القعنبي، سمعت حماد بن زيد: قال ابن عون؛ فذكره.

(١) «نقض المنطق» (ص٥٨، ٥٩).

(٢) «الفتاوىٰ البازية» (٧/ ٧٢).

(٣) القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص١٤).

الفنِّ، لم يكن ذلك كثيرًا في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساس السعادة في الدارين، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة، وبه يتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدىٰ والخير والرحمة، ويهيئ الله له أطيب الحياة والباقيات الصالحات».

والإنسان إذا أراد أن يطلب علم التَّفسير، فإنَّه يطلبه بمشافهة العلماء، وهكذا سائر العلوم؛ كالعقيدة، والفقه، والحديث، ولكن يتأكَّد ذلك في التَّفسير تأكيدًا ضروريًّا لأنَّه أساس العلوم وأولاها بالتلقِّي الصَّحيح؛ لأنَّ الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ كانوا يتعاظمون القول علىٰ الله في تفسير معاني القرآن، ونحن أحرىٰ بذلك، وهذا بسبب تعظيمهم لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وتعظيمهم للقرآن؛ فإن القول علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بغير علم هلكة، وهو من الذُّنوب التي يعاجل الله عَزَّوَجَلَّ فاعلها بأشدِّ العذاب، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ القول علىٰ الله بغير علم من أعظم الذُّنوب، وهو من الذُّنوب التي لا يمهل الله عَزَّوَجَلَّ من فعلها استخفافًا بعظمة الله والقرآن.

والله عَزَّوَجَلَّ يسَّر القرآن للذكر فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧]، وفي هذا حثٌّ علىٰ حفظه وفهمه والعمل به.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: «يسَّرنا ألفاظه للحفظ، ومعانيه للفهم»، وزاد ابن القيِّم في «الصَّواعق المرسلة» أمرًا ثالثًا، قال: «وأحكامه وأوامره

ونواهيه للعمل»، فالقرآن ألفاظه ميسَّرة للحفظ، كلمات يسيرة في أفصح خطاب، وأقوىٰ ألفاظ، وأحسنها بلاغة، تأخذ بمجامع القلوب، مما يجعل كل مسلم يرغب في حفظه.

ويسَّر الله معانيه للفهم؛ فغالب آي القرآن مفهومة المعنىٰ، وبعضها يعرفه العلماء، وبعضها يحتاج تبيينه للنَّاس بسبب تفريطهم في طلب معاني القرآن، وتركهم العناية بذلك، وإلَّا فإن القرآن معانيه ميسَّرة للفهم، وتبيين ذلك للمسلمين هو من النصيحة لدين الله وللمسلمين، فإنَّ المسلمين إذا علموا يسر فهم القرآن والعمل به، أقبلوا علىٰ تدبُّره والعمل به، وبذلك يهتدي المسلمون ويُرحمون، ويعز الإسلام والمسلمون ويُنصرون.

وأحكام القرآن وأوامره ونواهيه ميسَّرة للعمل، فكل التكاليف وفق الاستطاعة؛ قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ويؤخذ علم التَّفسير أيضًا بقراءة كتب التَّفسير، لكن لا ننصح في طلب أيِّ علمٍ من العلوم الشَّرعيَّة أن يستقلَّ الإنسان بفهمه بخاصَّة نفسه دون أخذه عن العلماء؛ فمن فعل ذلك ربَّما زل أو ضلّ، وربَّما أيضًا تأخَّر في إدراك العلم، فالعالم المتحقق بالعلم كشيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعطانا خلاصة

ما أخذه عن علمائه وتلقَّاه عنهم، وما قرأه بخاصَّة نفسه، وخلاصة ما اجتناه من مذاكرة العلم سنوات طويلة، هذا المقدار قدَّمه لنا في سنوات يسيرة، لو رُمنا طلبَ هذا المقدار بقراءة الكتب بخاصَّة أنفسنا ربما استغرق ذلك من الوقت أضعاف أضعاف ما أخذناه عن العلامة العثيمين بالمشافهة.

وعلم التَّفسير خصوصًا من أراد أن يأخذه بخاصَّة نفسه بقراءة كتب التَّفسير، يجد مشقَّةً في ذلك؛ لأنَّ كثيرًا من التَّفاسير غير محقَّقة، من جهة الرِّواية ومن جهة الدِّراية، تجمع كل الأقوال الصَّحيحة والضَّعيفة والمبتدعة؛ فمن لم يكن متحقِّقًا بالعلم ربَّما يُلم من حيث لا يشعر بأقوال المبتدعة، بل وبأقوال غلاة المبتدعة كالجهمية؛ فلذلك الذي ننصح به طالب العلم أن يأخذ العلم مشافهة عن علماء السنة، ومن جملة ذلك وأوكده وأوَّله علم التَّفسير.

وطالب العلم لا يمكن أن يهجم علىٰ كتب التَّفسير مباشرة بدون أن يقرأ علم قواعد التَّفسير؛ كالفقه، يحتاج طالب العلم أن يدرس أصول الفقه والقواعد الفقهيَّة؛ ليتقن علم الفقه، كذلك علم التَّفسير يحتاج طالب العلم إلىٰ أن يقرأ قواعد التَّفسير، ويقرأ أيضًا المصنَّفات في مناهج المفسِّرين، وهذا الكتاب لشيخ الإسلام ابن تيمية من جملة ذلك؛ فإنه في البداية تكلَّم عن فضل القرآن، وهذه ضرورة للحث علىٰ طلب أفضل العلوم، علم التَّفسير، ثم بعد ذلك أخذ يبيِّن أنواع الخلاف في أقوال المفسِّرين، ثم بعد ذلك تكلَّم في طرق معرفة الأقوال الصَّحيحة من الضَّعيفة في أقوال المفسِّرين، ثم بعد ذلك أخذ

يتكلَّم في كتب التَّفسير، وما كان منها من كتب أهل السنَّة والجماعة، وما كان منها من كتب المبتدعة، وما جمع الغثَّ والسَّمين.

فطالب العلم يحتاج أن يكون علىٰ بيِّنة في قراءة كتب التَّفسير، كي يستطيع التمييز بين الصَّحيح والضَّعيف من الأقوال فيها، والقول الذي في معنىٰ القول الآخر، ويكون منهجه واضح المعالم في تلقي علم التَّفسير ابتداءً من طبقة الصَّحابة، ثم التَّابعين، ثم تابعي التَّابعين، ثم من العلماء المحقِّقين من كل طبقة، وبهذا نعرف قيمة كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية هذا في أصول التَّفسير، فإنَّه كتاب نفيس جدًّا جدًّا.

وكتب قواعد التفسير ومناهج المفسِّرين وعلوم القرآن تبيِّن لك أنواع العلوم التي ستقرؤها في كتب التَّفسير، وإتقان فهمها من أسباب معرفة أقوال المفسِّرين وفهمها، ومن أسباب التَّرجيح بين أقوال المفسِّرين.

ومن أفضل المصنَّفات في علوم القرآن وأنفسِها وأجودها وأحسنها وأكثرها سلامةً في صحَّة العقيدة كتاب «المرشد الوجيز في علوم الكتاب العزيز»، للعلَّامة أبي شامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وهذا كتاب مطبوع، وهو من أنفس الكتب وأحسنها؛ لأن علوم القرآن كَتَب فيه جماعة من المبتدعة، كما نقول أيضًا في علم أصول الفقه كتب فيه جماعة من المبتدعة، فأنت تحتاج أن تطلب علوم القرآن من كتب أهل السنَّة والجماعة، وعندما كنت أدرس في جامعة الإمام محمد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فرع القصيم، كان الطلبة يشتكون من الكتاب المقرر في

علوم القرآن، خصوصًا ما يتعلَّق بموضوع الحقيقة والمجاز، فكثير ممَّن كتب في ذلك مبتدعة، وتضمَّنت كُتُبهم تقريرات لأقوال خاطئة ومبتدعة في مسائل أخرىٰ.

من أَجْل هذا منَّ الله عليَّ ويسَّر لي - ولله الحمد والمنَّة - كتابة «الجامع في علوم القرآن»، وكانت نيتي أن أسميه منار القرآن، ثم بعد ذلك رأيت أن أسميه «الجامع في علوم القرآن»، والكتاب حوىٰ كثيرًا من مسائل علوم القرآن، وليس كلها.

وقد بذلت أقصىٰ ما يمكن في تقديم هذه العلوم بعقيدة أهل السنَّة والجماعة، مستعينًا بالله عَزَّوَجَلَّ، ثم بما تلقيته من العلوم من شيخي العلامة محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأيضًا بما اجتنيته من تدوين الفوائد من كتب أهل السنة والجماعة، خصوصًا في علوم القرآن، وأيضًا من الكلام الموجود في كتب التَّفسير، فقد اشتملت كتب التَّفسير علىٰ جملٍ من الفوائد في علوم القرآن؛ فمن أجل هذا لا تقتصر في طلب علم القواعد علىٰ الكتب المصنَّفة في القواعد فقط، يفوتك بهذا علم كثير، والمقصود من قراءة هذه الكتب أيضًا هو الوصول إلىٰ علم التَّفسير، فتكون لك ملكة في فهم ما في كتب التفسير، والتمييز بين صحيح الأقوال وضعيفها، وكذلك الشأن في علم أصول الفقه، لا تقتصر علىٰ قراءة كتب الأصوليين فقط، خصوصًا أن بعضهم ما عنده استقراء للفقه، كأنّه متخصِّص في علم الآلة فقط وليس عنده استقراء لأصول الفقه من مسائل ونصوص القرآن والسنة، لكن إذا قرأت في كتب الفقه وكتب التَّفسير خصوصًا التي لها عناية بتفسير آيات الأحكام؛ تجد في ثناياها تقريرًا لأصول الفقه

وقواعده أكثر تحريرًا، وكذلك في كتب الفقه تجد مدارستهم لقواعد أصول الفقه عن استقراء، خصوصًا إذا كان مؤلفوا هذه الكتب أئمة أصحاب سنَّة، فتستفيد منها القواعد الصحيحة عن استقراء، ومن ذلك كُتُب شيخنا العلامة محمد بن عثيمين، والعلامة عبد الرحمن السَّعدي، والعلامة محمَّد أمين الشّنقيطي، وهو متقن لعلم أصول الفقه وقواعده، كذلك عندما يتكلم في تفسيره يتكلم عن استقراء، فتطمئن إلىٰ ما في كتبه من علوم أصيلة متينة قويَّة؛ هذه نصيحتي لكم، لا تقتصروا علىٰ كتب الوسائل.

والعلَّامة عبد الرَّحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ له توفيق من الله عَزَّوَجَلَّ في التدوين وفي التَّصنيف في علوم القرآن، من مؤلفاته في ذلك «القواعد الحسان في تفسير القرآن»، وهو كتاب في قواعد تفسير القرآن، وهو كتاب نافع، وله أيضًا «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» هذا الكتاب موفَّق جدًّا، وهو من كتب علوم القرآن، وهو مختصر لمعاني القرآن، فقد قام العلَّامة عبد الرَّحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ واستقرأ كل ما في القرآن من المعاني؛ لأنه فسَّر القرآن كاملًا، وأيضًا كان يدرِّس الفقه كلَّه، ويدرِّس العقيدة، ويدرِّس التَّفسير، فأدَّىٰ إلينا خلاصة تفسير القرآن في كلِّ شيء، ابتدأ أولًا في ذكر أوصاف القرآن؛ لأن هذا هو الذي يشحذ علىٰ طلب معاني القرآن، ثم بعد ذلك ذكر معاني التَّوحيد في القرآن، وبيَّن كيف أن القرآن كلَّه في التَّوحيد، ثم بعد ذلك شرح العبادات في القرآن، ثم بعد ذلك بيَّن أحكام القرآن، ثم تناول القصص في القرآن بالشَّرح والبيان، ثم جعل فصلًا

أخيرًا في مسائل منثورة في معاني ألفاظ في القرآن تتكرَّر كثيرًا.

وقراءة هذا الكتاب ضروريَّة لطالب العلم فهو كالتَّفسير المختصر للقرآن، يكون مقدمة لقراءة كتب التَّفسير، فيكون عند طالب العلم دراسة وعلم بمقاصد القرآن ومعانيه.

والعلَّامة السّعدي له تفسير كامل متوسِّط الحجم، وهو «تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان»؛ بعض النسخ مطبوعة في أربعة مجلَّدات، وبعض النسخ مطبوعة في مجلَّد واحد، وهو من أنقىٰ كتب التَّفسير المعاصرة، اعتقاد صحيح وتبيين لمعاني ودلالات ألفاظ القرآن بلا تحريف ولا تأويل، وشرح لأحكام القرآن شرحًا محرَّرًا، ولا يوجد فيه إسرائيليات أبدًا، ولا يوجد فيه عقيدة فاسدة، ولا بدعة، ولا ضلالة، ولا يوجد فيه تطويل يتبدد الذهن فيه إذا قرأه القارئ بحيث إنه يعيا عن استيعاب فوائد ما يذكره في معاني الآية، ووُفِّق فيه العلامة السعدي في استنباط ما في الآيات من المعاني، وفي تبيين الأحكام. ومن أعظم ما في هذا التَّفسير من الفضائل - وسائر مصنَّفات الإمام عبد الرَّحمن السِّعدي - بيان ما في الشَّريعة من كمال، وهو حثٌّ علىٰ تطبيق الشَّريعة؛ لأنَّه شرع الله، أوجب الله علينا تحكيمه، ولأنَّه يحصل به خير الدِّين والدُّنيا. وكان العلَّامة السّعدي في تفسيره من القائمين بحفظ الشريعة عن التحريف، فقد حفظ ألفاظ القرآن عن التحريف والأقوال المبتدعة، وقام أيضًا بحفظ التوحيد والعقيدة، وردَّ علىٰ أنواع الملل والبدع والمذاهب الإلحادية والكفريَّة والبدعيَّة، فمن أراد أن يطلب علم التَّفسير؛ فهذه «القواعد الحسان» مع «خلاصة

تفسير القرآن» مع «تيسير الكريم الرَّحمن»؛ من أنفع ما تكون لطالب العلم.

والكتب العلمية لا يكتفي الإنسان بقراءتها مرة واحدة، خصوصًا كتب التَّفسير، لكن يكرر قراءة الكتاب؛ لأنَّ طالب العلم بالقراءة الواحدة قد لا يستوعب كل الفوائد، أو لا يمكنه أن يحفظ كل الفوائد، أو لا ينتبه إلىٰ بعض دقائق الفوائد التي ينبِّه عليها المفسِّر، لكن مع تكرار قراءة التَّفسير يظهر لك من المعاني ما لم يكن قد ظهر لك من قبل، وهذا أيضًا في تلاوة القرآن؛ لأنَّ التِّلاوة لا يقصد بها مجرَّد قراءة الآيات، وإنَّما المقصود من التِّلاوة الفهم والعمل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو إمام مفسِّر، وجامع للعلوم كلها، ومجتهد اجتهادًا مطلقًا: «ما زلت أكرر تدبُّر قراءة الفاتحة، ويظهر لي من معانيها ما لم يكن ظهر لي من قبل».

وكذلك الحال بالنِّسبة للكتب العلميَّة النَّافعة، يحتاج طالب العلم إلىٰ تلقِّي شرحها عن العلماء، ويحتاج إلىٰ قراءتها بعد ذلك بخاصّة نفسه، وتكرار مدارستها وقراءتها حتىٰ يُتقن فهمها، وكلَّما كرَّر مدارستها أدرك ما فيها من العلم، وبهذه الطَّريقة برز العلماء بفهم الكتب النَّافعة.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يُقال: إنَّ الشيخ عبد الله أبا بطين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان يُلقَّب «مفتي الدِّيار النَّجديَّة»، وكان عالمًا جيِّدًا في الفقه[2]،

---

(١) التَّعليق علىٰ القواعد الحسان (ص١٨٢).

(٢) هذه تزكية عزيزة من فقيه الإسلام في طبقته.

يقول: إنَّني ما قرأت إلا «الروض المربع في شرح زاد المستقنع»، وهو شرح مختصر، لكنَّه كان يكرِّره، ويتأمَّل فيه، ويأخذ بمنطوقه، ومفهومه، وإشارته، ومع ذلك صار عالمًا بحرًا في الفقه!».

وأنا ألتذُّ بقراءة «تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان»، للعلَّامة عبد الرَّحمن السِّعدي، لا يكاد يمرُّ يوم أو يومين أو ثلاثة إلَّا وأقرأ في هذا التَّفسير، وهو ميسَّر للفهم، وهو تفسير متقن حقيقةً، وهكذا كل مصنّفاته علم محرَّر في أسلوب ميسّر.

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا وإيَّاكم ممَّن يتدبَّر القرآن، وقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بذلك، فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، ومن أسباب تدبُّر القرآن طلب العلوم التي تعين علىٰ تدبُّر القرآن.

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن استعان بالله في كتابة هذا المصنَّف، وافتتح خطبة هذا الكتاب بالثَّناء علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والصَّلاة والسَّلام علىٰ نبينا محمد ﷺ، ذكر السَّبب الباعث لتأليف هذا الكتاب، وهو أنَّه إجابة لطلب بعض إخوانه الذين طلبوا منه أن يكتب لهم قواعد كليِّة تُعين علىٰ فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه، هذا الكتاب فيه جملٌ من القواعد الكلِّيَّة، والإنسان إذا أدرك القواعد بنىٰ عليها فَهْم المعاني، والتمييز بين الأقوال الصَّحيحة والضعيفة في كتب المفسِّرين.

وكلُّ العلوم من طلبها بمعرفة قواعدها أتقن فهمها، والشَّريعة كلها قواعد

من جهة المعنىٰ؛ قال النَّبي ﷺ: «**أوتيتُ جوامع الكلم**»، متَّفق عليه من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

قال العلَّامة الخطَّابي رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «قوله: «**بُعثت بجوامع الكلم**»، معناه: إيجاز الكلام في إشباع المعاني، يقول الكلمة القليلة الحروف، فتنتظم الكثير من المعنىٰ، وتتضمَّن أنواعًا من الأحكام.

وفيه الحَضُّ علىٰ حُسْن التَّفَهُّم، والحَثُّ علىٰ الاستنباط لاستخراج تلك المعاني».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[2]: «الشريعة فإنَّها كما قال النبيُّ ﷺ: «**بُعثت بجوامع الكلم**»، والكلمة الجامعة هي القضية الكليَّة، والقاعدة العامة التي بُعث بها نبينا ﷺ، فمن فَهِمَ كَلِمَهُ الجوامع؛ علم اشتمالها لعامة الفروع، وانضباطها بها».

ولا يعقل أن نتدارس قواعد مذاهب الفقهاء، ونغفل عن قواعد القرآن والسُّنَّة التي بيَّنها النَّبيُّ ﷺ وقد أوتي جوامع الكلم، لذلك يكتب العلماء في قواعد الشَّريعة؛ قواعد كليَّة، وقواعد تفصيليَّة.

والحافظ ابن عبد البرِّ رَحِمَهُٱللَّهُ في «جامع بيان العلم وفضله» نبَّه إلىٰ أنَّ الإنسان لا يمكن أن يُتقن العلم بدون أن يضبط قواعد القرآن والسُّنَّة، خصوصًا

---

(١) أعلام الحديث (٢/ ١٤٢٢).

(٢) الاستقامة (ص٤٠).

في الفقه؛ لأنَّه تتجدَّد مسائل بحسب كل عصر؛ فإذا كان الإنسان لا يعرف قواعد الشَّريعة، كيف يردّ آحاد المسائل المستجدة إلىٰ عموم معاني الشَّريعة وقواعدها الكليَّة؟!

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الرسول ﷺ أُعطي جوامع الكلم، والحكمة من ذلك - والله أعلم - لتكون هذه الشَّريعة قواعد وضوابط، لا مسائل جزئيَّة فرديَّة، حتىٰ يمكن لآخر الأمة أن تبني المسائل الجزئيَّة علىٰ هذه الكلمات الجوامع».

لذلك يقول العلماء: من حُرم الأصول حُرم الوصول؛ يعني: إذا ما أتقنت القواعد كيف يمكن أن تتقن العلم؟! ولذلك العناية بما في القرآن والسنة من القواعد الكلية نافع جدًّا لطالب العلم، ولذلك قال شيخُ الإسلام عن مضمون مصنَّفه هذا: **(مقدِّمة تتضمَّن قواعد كلِّيَّة تعين علىٰ فهم القرآن، ومعرفة تفسيره ومعانيه).**

ثم قال: (وَالتَّمْيِيزِ فِي مَنْقُولِ ذَلِكَ وَمَعْقُولِهِ، بَيْنَ الْحَقِّ وَأَنْوَاعِ الْأَبَاطِيلِ)، قال: بين الحق؛ لأن الحقَّ لا يتعدَّد، واحد والباطل أنواع متعددة؛ لذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، والظُّلمات هي الباطل، والباطل كثير.

وقوله: «هذه قواعد في التمييز في منقول ومعقول ذلك»، أفادنا أنَّ كلام المفسِّرين نوعان: منقول؛ يعني مرويات؛ يعني بعض الآيات فيها أحاديث مروية

---

(١) التعليق علىٰ صحيح مسلم (٣/ ٣١٩).

في تفسيرها، لكن هذه الأحاديث تحتاج إلىٰ من يعرف قواعد التمييز بين صحيحها وضعيفها وموضوعها؛ لأن كتب التَّفسير ثلاثة أنواع: تفسير بالمأثور: تجد المفسِّر لا يتكلم في معنىٰ الآية أبدًا، بل ينقل ما رُوي في تفسير الآية عن النبيِّ ﷺ وعن الصَّحابة، وعن التَّابعين؛ كتفسير ابن أبي حاتم وعبد الرزاق وابن المنذر؛ وكتب بالمعقول: وهي تفاسير لدلالة ألفاظ الآيات، وهذه طبعًا أنواع؛ بعضها مبتدع، وبعضها مخلط، وبعضها علىٰ السنَّة.

وكُتُب جمعَتْ بين علمي المنقول والمعقول، بين علمي الرِّواية والدِّراية، لكن عناية هذه الكتب تختلف في تمييز المرويات من جهة ثبوتها وضعفها، وأيضًا تتفاوت في شرح الآيات من جهة الدِّراية؛ فبعضها له عناية شديدة بالعقائد، وعناية متوسِّطة بالقراءات، وعناية محدودة بالأحكام، وبعضها يعتني بالمعنىٰ اللغوي للآيات.

فالمفسِّرون يختلفون فيما يتكلَّمون فيه في معنىٰ الآية من جهة الدِّراية، لكن المهم في هذا أنَّ الإنسان يميِّز بين الرِّواية الصَّحيحة والضَّعيفة إذا كان يعرف هذا؛ أما إذا لم يكن يعرف هذا فليرجع إلىٰ الكتب التي تبيِّن ذلك، فالصَّحابة المفسِّرون للقرآن مرويَّاتهم تناولها بعض المتخصِّصين بالدِّراسة والتَّحقيق، والعناية بتمييز صحيح مرويَّات السَّلف في التَّفسير؛ ضرورة للاستفادة من علومهم الثَّابتة عنهم.

وفي مدارسة أقوال المفسِّرين لمعاني القرآن لابُدَّ أن تميِّز بين الأقوال الصَّحيحة من الضَّعيفة، فالأقوال الضَّعيفة تفرزها ولا تلتفت إليها، وتعتني في معاني الآية بالأشياء المهمَّة في معانيها الصحيحة، فبعض العلماء يفيض في ذكر

أشياء قد تكون من فضول العلم، حتىٰ إن أحد كتب التَّفسير يقول العلماء في وصفه: فيه كل شيء إلا التَّفسير.

وفي قراءة كتب التَّفسير تتحرَّىٰ، أولًا: تلقي معاني الآيات من تفسير النبي ﷺ والصَّحابة، والتَّابعين، فهم الذين يتلقَّىٰ المسلم عنهم التَّفسير، ثم تنظر ما في الآية من معانٍ في العقيدة وفي الأحكام والأخلاق، وهكذا سائر أنواع العلوم، وتستنبط الفوائد التي تنبني عليها معاني الشَّريعة الكليَّة، هذا المنهج في قراءة كتب التَّفسير، تعتمد علىٰ المرفوع عن النبي ﷺ، الصحيح المسند عن النبي ﷺ في تفسير الآية، ثم عن الصَّحابة، ثم عن التَّابعين، ثم تعتمد في فهم معاني الآية علىٰ أقوال علماء أهل السُّنَّة والجماعة المحقِّقين.

ومن أعظم مَن يميِّز بين الأقوال الصَّحيحة والضَّعيفة في كلام المفسرين من جهة المعنىٰ شيخنا العلامة المحقِّق محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يُبيِّن ما في بعض الأقوال من معنىٰ ما يوافقها في أقوال المفسِّرين الأخرىٰ، وكذلك يبيِّن ما يشمله عموم لفظ الآية من المعاني، ويبيِّن أيضًا الأقوال الضَّعيفة التي لا تحتملها ألفاظ الآية، ويبيِّن كذلك معاني الآية في ضوء قواعد الشَّريعة العامَّة، ويستنبط استنباطات ذكيَّة جدًّا موفَّقة.

فالمقصود أن يكون عند المسلم منهجية واضحة في قراءة كتب التَّفسير، حتىٰ لا يُلم بأقوال الضُّلَّال التي في بعض كتب التَّفسير.

ثم قال شيخ الإسلام: (وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ الدَّلِيلِ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْأَقَاوِيلِ) يعني:

الدليل الفاصل بين الأقاويل الصَّحيحة والضَّعيفة، (فَإِنَّ الْكُتُبَ الْمُصَنَّفَةَ فِي التَّفْسِيرِ مَشْحُونَةٌ بِالْغَثِّ وَالسَّمِينِ، وَالْبَاطِلِ الْوَاضِحِ وَالْحَقِّ الْمُبِينِ) يعني: كتب التَّفسير أنواع، بعضها كما ذكر شيخ الإسلام مشحون بالأحاديث والرِّوايات الموضوعة فضلًا عن الضَّعيفة، وبعضها مشحون بالأقوال الضَّعيفة في العقيدة وفي معاني وتفسير الآيات التي لا يحتملها اللَّفظ ولا فسَّرها به السَّلف الصَّالح.

وبعض التَّفاسير جمع الأقوال الضَّعيفة مع الصَّحيحة، كتفسير الثَّعلبي؛ فإنه حاطب ليل، يجمع الغث والسَّمين، ولذلك هذَّبه واختصره البغوي، وجرَّده من الرِّوايات الضَّعيفة والموضوعة، والأقوال المبتدعة؛ لأنَّه صاحب سنَّة. ومن التفاسير المبتدعة تفسير الزَّمخشري، دسَّ فيه البدع ترويجًا لمذهب المعتزلة، فهو متفنِّن في البلاغة لكنَّه معتزلي، يدسُّ السمَّ في العسل.

ولا ينبغي لطالب العلم غير المتمكِّن في العلم والعقيدة وعلم التَّفسير أن يعرِّج علىٰ تفسيره، يُخشَىٰ عليه أن يضلَّ؛ يقول العلماء ومنهم شيخ الإسلام: تفسير الزَّمخشري من يقرؤه لابُدَّ أن يقرأه بتروٍّ ليستخرج ما فيه من البدع.

مثال: قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، قال الزَّمخشري: لا نعيم أعظم من هذا. يُعرِّض بنفي الرؤية؛ رؤية المؤمنين لله يوم القيامة، هذا دسٌّ معتزلي.

وتفسير «رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز» للحافظ عبد الرزَّاق الرسعني رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، هذا التَّفسير من أهمِّ التَّفاسير المتوسِّطة، أولًا: غير مطوَّل، وهو سلفي

المعتقد، ومن تلاميذ ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ، وله عناية بقراءات الآية، ومجموع القراءات من أنفع ما يكون في تفسير الآية؛ فإنَّها تبيِّن المعنىٰ وتوضِّحه، وله استنباطات ذكيَّة، لكنَّه في البلاغة ينقل كثيرًا عن الزَّمخشري، وفي بعض المواضع التي قرأتُها له كان يقظًا فيما ينتقيه من بلاغة الزَّمخشري التي في «كشَّافه»، وينقده أحيانًا في أقواله.

وفي كتب أهل السُّنَّة غُنية عن بلاغة الزَّمخشري، فأئمَّةُ السُّنَّة فيهم المتقنون المحرِّرون لعلوم اللُّغة ومعانيها، ومن جملة هؤلاء الطَّبريُّ شيخ المفسِّرين، وشيخ الإسلام، وابن القيم، وفي طبقتنا المعاصرة العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإنَّه متقن لكل أنواع العلوم، والعلامة محمد الأمين الشِّنقيطي فهو إمام في اللُّغة، وفي البلاغة، وفي العقيدة، وفي الفقه، وفي أصول الفقه، وفي القواعد الفقهية، ما شاء الله! تفسيره «أضواء البيان» درَّة التفاسير المعاصرة، كأنَّما تقرأ لإمام متقدِّم، ولا يعيبه أنَّه أوعب في شرح آيات الأحكام، بل هذا ممَّا يُمدح به، وهذا من تحبيره للعلم؛ حرَّر العلوم، وأتتك جاهزة من غير عناء، وقام بتحرير الأقوال، وعرض كل مذاهب العلماء، وقابل بينها، وقام بوزنها بميزان الكتاب والسُّنَّة بإنصاف ونصيحة وتعليم للمسلمين، وهذا مما يعدُّ في فضائل تفسيره. ويُقال في تفسيره كما قال العلماء في تفسير الطَّبري: تستطيع أن تستخرج من مجموع فوائده مصنفات في أنواع العلوم.

فمن تفسير الشِّنقيطي لسورة الأنعام يمكن أن تستخرج منه مصنفًا خاصًّا في فقه الأطعمة، وكذلك تستطيع أن تستخرج منه مصنَّفًا في مناسك الحج من تفسيره لسورة

الحجّ، وتستطيع أن تستخرج من تفسير الشِّنقيطي مصنَّفًا في القواعد الأصوليَّة والفقهيَّة، وهكذا.

وهناك بعض المفسِّرين عنده إيعاب وتحرير وجمع مهمٌّ لعلم الوسائل في علوم القرآن، لكنَّ تفسيره الذي كتبه في القرآن ليس في وزن ما كتبه في علم الوسائل، تفسيره لا يتجاوز تفكيك معنىٰ الآية وألفاظها فقط؛ كأبي الحسن السَّخاوي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، له كتب في علوم القرآن، وفي القراءات، وفيها علم كثير، لكنَّ تفسيره المطبوع في مجلَّدين مجرَّد فك عبارة وتفسير ألفاظ الآيات، وهو أشعري مخالف لعقيدة أهل السُّنَّة، فليس المقصود علم الوسائل، وإنَّما المقصود علم مقاصد التَّفسير، لكن علم الوسائل يُستفاد منه في معرفة علم المقاصد.

وقول شيخ الإسلام: (فَإِنَّ الْكُتُبَ الْمُصَنَّفَةَ فِي التَّفْسِيرِ مَشْحُونَةٌ بِالْغَثِّ وَالسَّمِينِ، وَالْبَاطِلِ الْوَاضِحِ وَالْحَقِّ الْمُبِينِ، وَالْعِلْمُ إِمَّا نَقْلٌ مُصَدَّقٌ عَنْ مَعْصُومٍ) فالمعصوم هو النبي ﷺ، لأنَّ النبيَّ ﷺ بُعث ببيان القرآن ومعانيه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقوله: (وَإِمَّا قَوْلٌ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مَعْلُومٌ)، الدَّليل هو آي القرآن؛ فالقرآن يفسِّر بعضه بعضًا، فإذا جَمَعْتَ كلَّ ما في الموضوع الذي في آية معيَّنة تجد أنَّها تبيِّن معنىٰ الآية، فذاك أحسن ما يفسّر به القرآن: بالقرآن أولًا، ثم بالسُّنَّة، ثم بتفسير الصَّحابة.

والقرآن كلُّه أحكامه تجري علىٰ معاني الشَّريعة الكليَّة، وهذا ممَّا يعين علىٰ التَّمييز بين الأقوال الصَّحيحة والضَّعيفة للمفسِّرين.

وقول شيخ الإسلام: (وَمَا سِوَىٰ هَذَا) يعني غير النقل المصدَّق، وغير القول الذي عليه الدَّليل؛ (فَإِمَّا مُزَيَّفٌ مَرْدُودٌ، وَإِمَّا مَوْقُوفٌ لَا يُعْلَمُ أَنَّهُ بَهْرَجٌ وَلَا مَنْقُودٌ)، فالمفسِّر الذي يعرف صحيح المنقول وصريح المعقول، ويتلقىٰ التَّفسير عن النَّبيِّ ﷺ والصَّحابة والتَّابعين، والمحقِّقين من كل طبقة من أهل السُّنَّة والجماعة؛ يعرف الأقوال الضَّعيفة من الأقوال الصَّحيحة كما يعرف الصيرفي الحاذق النقد الصَّحيح من المزيَّف، وسيأتي في كلام شيخ الإسلام كيف يعرف العالم وطالب العلم الحق من الباطل في أقاويل المفسرين.



قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَحَاجَةُ الْأُمَّةِ مَاسَّةٌ إِلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنُ، وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ التَّرْدِيدِ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ.

وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَمَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَىٰ الْهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [إبراهيم: ١، ٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٥١، ٥٢].

وَقَدْ كَتَبْتُ هَذِهِ الْمُقَدَّمَةَ مُخْتَصَرَةً.

بِحَسَبِ تَيْسِيرِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ إِمْلَاءِ الْفُؤَادِ، وَاللهُ الْهَادِي إِلَىٰ سَبِيلِ الرَّشَادِ.

الشَّرح:

شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ذكر السبب الباعث علىٰ كتابة هذا المصنَّف في قواعد التَّفسير ومناهج المفسِّرين، وذكر أهميَّة كتابة هذا المصنَّف في مناهج المفسِّرين للتَّمييز بين الحقِّ والباطل، وبين الأقوال الصَّحيحة والضَّعيفة في التَّفسير، أخذ في ذكر ضرورة كل مسلم والأُمَّة إلىٰ فهم القرآن.

قال: (وَحَاجَةُ الْأُمَّةِ مَاسَّةٌ إِلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ)؛ لأنَّه هو الكتاب الذي تعبَّدنا به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولأنَّه هو الكتاب الذي يبيِّن الصِّراط الذي يجب أن يسير عليه المسلمون إلىٰ ربِّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولأنَّ الله تعبَّدنا بتلاوة القرآن، وباتِّباعه، وبالعمل به، ولأنَّ الأُمَّة إذا قامت به هُديت في دينها ودنياها، فعُصمت من الاعتقادات الباطلة، والأحكام الجائرة، والأخلاق الضالة، وأورثها ذلك العزَّ في الدُّنيا، والجنَّة في الآخرة؛ فهذا كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلينا جميعًا، الذي أوحاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلىٰ نبينا محمد ﷺ، فمتىٰ أخذت الأمَّة به وقامت به؛ نصرها الله عَزَّوَجَلَّ وهداها، وأورثها الخير كلَّه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾

[الإسراء: ٩]؛ للتي هي أقوم في العقيدة، والأخلاق والسِّياسة والاقتصاد والمعاملات، وللتي هي أقوم في كل شيء.

هذا القرآن أمرنا الله بتدبُّره ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، فالله تعبَّدنا بتلاوته، وكلام الله لا يوازيه كلام آخر، والعرب الفصحاء عرفوا ذلك عندما سمعوا القرآن، عرفوا أنَّه ليس بكلام ساحر ولا كاهن ولا شاعر، ولا هو بكلام بشر، فهو معجزة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلىٰ نبيِّه محمد ﷺ؛ لأن معجزة كل نبي من جنس ما يتقنه قومه، ليكون ذلك أبلغ في تحدِّي المكذِّبين له: فقوم عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كانوا أهل طبٍّ؛ فكانت معجزة عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنه يبرئ الأكمه والأبرص، وقوم فرعون سحرة؛ فالله عَزَّوَجَلَّ جعل معجزة موسىٰ العصا التي تبطل سحرهم، وهذا من جملة ما أوتيه موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من المعجزات، وإلا فقد أوتي أكثر من هذه المعجزة.

لكن النبي ﷺ قال: «**ما من نبيٍّ إلا وقد أوتي من الآيات ما علىٰ مثله آمن البشر**»، الآيات التي يقول في معناها بعض العلماء: معجزات، قال: «**وإنما كان الذي أوتيته وحيًا**» يعني هذه المعجزة وهذه الآية التي كانت للنبي ﷺ؛ لأن قومه أهل فصاحة، وأعجزهم ما في كلام الله من البيان والفصاحة والبلاغة، وسلطانه علىٰ القلوب فعلموا أنه ليس كلام بشر، ولا كلام ساحر، ولا هو بكلام مجنون، ولا هو بكلام كاهن كما كانوا يرمون النبيَّ ﷺ بذلك، ولذلك ما سمع بالقرآن منصفٌ إلَّا وعلم أنَّه حقٌّ؛ حقٌّ من جهة المعنىٰ، وأنَّه لا يمكن أن يأتي به بشر، معجز في لفظه محكم في معانيه، ولذلك يقول العلماء: القرآن معجزة فيها ألوف

المعجزات؛ يعني فيها من المعاني في أنواع العلوم آلاف المعجزات.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ما من كلام تكلَّم به الناس، وإن كان في أعلىٰ طبقات الكلام لفظًا ومعنًىٰ، إلَّا وقد قال الناس نظيره، وما يشبهه ويقاربه، سواء كان شعرًا، أو خطابة، أو كلامًا في العلوم والحكم والاستدلال، والوعظ، والرسائل، وغير ذلك، وما وُجد من ذلك شيء إلَّا ووُجد ما يشبهه ويقاربه.

والقرآن ممَّا يعلم الناس: عربهم وعجمهم؛ أنَّه لم يُوجد له نظير، مع حرص العرب وغير العرب علىٰ معارضته؛ فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه علىٰ القلوب آية، وإذا تُرجم بغير العربي كانت معانيه آية، كل ذلك لا يوجد له نظير».

فالنبيُّ ﷺ أمره الله عَزَّوَجَلَّ أن يتلو القرآن، وأمره أن يعظ به، وأن يبلِّغه ليكون حُجَّة للنَّاس، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

هذا القرآن يقول الله عَزَّوَجَلَّ في وصفه وفضله: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١]، قلوبنا قاسية، والقسوة تتفاوت، الجبال تتصدَّع من خشية الله، وبنو آدم - إلَّا من شاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - عن معاني الآيات وما توجبه من الخشوع غافلون أو معرضون، قاسية قلوبهم، ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: ٧٤].

هذا القرآن الذي قال الله عَزَّوَجَلَّ فيه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ

---

(١) النبوات (١/ ٥١٦، ٥١٧).

ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد: ٣١]، يعني: لو كان شيء يكلِّم الموتىٰ، أو يسيِّر الجبال، أو يقطِّع الأرض؛ لكان القرآن، جعله الله حياةً للأمم، من آمن به رُزق حياة سعيدة وصحيحة، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، ختم شيخ الإسلام بهذه الآية في مقدِّمته لهذا المصنف، فإذا أرادت الأمم، وأراد الأفراد أن يحيوا الحياة الحقيقية فليحيوا بالقرآن، بأن يجري المجتمع والنَّاس علىٰ أحكامه، والقضاء تجري أحكامه علىٰ شرع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فبهذا عرفنا ضرورة النَّاس إلىٰ فهم القرآن.

وأفراد النَّاس أيضًا يتلون القرآن تعبُّدًا، عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله كتب الله له بها عشر حسنات**»، رواه التِّرمذي وقال: حديث حسن صحيح.

مجرد القراءة يُؤجر عليها الإنسان هذه الحسنة، لكن يقول الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: إني لأعجب كيف يلتذ بقراءة القرآن من لا يعرف معناه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من ذكر الله تعالىٰ تلاوة كتابه وفهمه ومذاكرة العلم».

وتعلُّم القرآن هو سبب الخير كله، والمعلمون والمتعلِّمون له هم خيرُ النَّاس، فعن عثمان بن عفَّان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: النبي ﷺ: «**خيركم من تعلَّم القرآن**

---

(١) نقض المنطق (ص٣١).

وعلَّمه»، رواه البخاريُّ.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «تعليمه يتناول تعلُّم حروفه وتعليمها، وتعلم معانيه وتعليمها، وهو أشرف قسمي علمه وتعليمه؛ فإنَّ المعنىٰ هو المقصود».

والنَّاس يتفاوتون في معرفة معنىٰ القرآن وفهمه؛ منهم من يستغلق عليه كثير من معاني القرآن، ومنهم من لا يستغلق عليه إلَّا مواضع يسيرة يحتاج إلىٰ سؤال العلماء عنها، أو قراءة كتب التَّفسير الصَّحيحة، فيجب أن تكون لنا همَّة في طلب معاني القرآن، وهذا من آكد ما يجب علينا معرفته؛ لأن العلوم كلَّها من القرآن، ترجع إلىٰ القرآن، ومأخوذة من القرآن، علم العقيدة، علم الفقه، علم الأخلاق، علم الأحكام، علم القضاء، كل شيء علمه في القرآن؛ قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقد اشتمل علىٰ أنواع العلوم المعاصرة التي استنبطها العلماء في العصر الحديث، وقد أُوحيت إلىٰ النبي ﷺ منذ أكثر من ثمانٍ وثلاثين وأربعمائة وألف سنة.

قال العلَّامة محمد الأمين الشِّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القرآن فيه كل شيء، كلٌّ يغرف من معانيه بحسب قدراته الذِّهنيَّة، وفهمه للقرآن.

وقد حثَّ الصَّحابة علىٰ طلب معاني القرآن، قال أبو الدَّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لو أعيتني آية من كتاب الله - فقط آية واحدة - ولم أجد أحدًا يفسِّرها لي إلا ببرك

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٧٤).

الغماد لرحلت إليه»، وبرك الغماد موضع في اليمن، وقيل: بين مكَّة واليمن، وقال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو من أعلم الصَّحابة بالقرآن: «لو أعلم أحدًا أعلم منِّي بكتاب الله تبلغه الإبل لرحلت إليه»، رواه البخاري ومسلم.

وقال أبو حامد الإسفراييني: «لو رحل رجل إلىٰ الصِّين حتَّىٰ يحصّل تفسير الطَّبري ما كان كثيرًا»؛ لأن الطَّبري هو شيخ المفسِّرين، وتفسير ابن كثير اختصار له، وعناية الطَّبري بتفسير النَّبي ﷺ والصَّحابة والتَّابعين والتمييز بين الأقوال والتَّرجيح بينها؛ قوية مع إتقانه للُّغة، ومعرفته للقراءات، لا يوازيه تفسير آخر.

وتفسير الطَّبري سهل الاقتناء ما يحتاج أن تسافر بعيدًا لاقتنائه، وإنَّما يحتاج إلىٰ عناية بمدارسته.

ثم أخذ شيخ الإسلام يذكر فضائل القرآن، حيث قال: (هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ)، وهذا مرويٌّ من حديث عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبي ﷺ؛ رواه أحمد، والدَّارمي، والتِّرمذيُّ، لكنَّه ضعيف، في إسناده الحارث بن عبد الله الأعور الكذاب الهمدانيّ، قال بعض أهل العلم: كذَّاب ليس المعنىٰ في روايته عن النَّبي ﷺ، هذا ذكره الحافظ الذَّهبي في الميزان حيث قال: وإنَّما المراد بكذَّاب يعني كذَّاب في اعتقاده؛ لأنَّه كان شيعيًّا غاليًا، والحافظ ابن حجر له توجيه يخالف توجيه الذَّهبي، لكنَّه يوافقه من جهة أن كذبه ليس في الرِّواية عن النبي ﷺ، قال: وإنما كذبه في حكاياته، وليس في روايته عن النبي ﷺ. لكن عند العلماء من يكذب في حديثه لا يقبلون روايته عن النبي ﷺ،

وهو وإن لم يكن كاذبًا في روايته عن النبي ﷺ؛ فإن أئمَّة الجرح والتَّعديل قالوا عنه: هو واهي الحديث، وحديث عليٍّ هذا يذكره أكثر العلماء في فضائل القرآن، وفي كتب مناهج المفسِّرين؛ لأنَّ كل لفظة من ألفاظه دلَّ علىٰ معناها القرآن. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «هو كلام صحيح». فالمتون الصَّحيحة المرويَّة من الأسانيد الضَّعيفة لابد أن تنظر في شواهدها؛ لأنَّ الاعتبار هو النَّظر في طرق الحديث، وأيضًا شواهد المتن. ولننظر الآن في مفردات وجُمل حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن القرآن ولا شك أنَّ القرآن هو حبل الله المتين، فالوحي هو خطاب الله لخلقه، فالقرآن هو الشَّرع الذي تعبَّدنا الله به، هو هذا الذِّكر الحكيم، وهو صراط الله عَزَّوَجَلَّ الموصل إليه، فهوالحبل المتين.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الاعتصام بحبل الله يكون بالاعتصام بالقرآن والإسلام».

(وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ) فالقرآن ذكر، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزُّخرُف: ٤٤]، وهو حكيم، قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: ١]؛ قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «معنىٰ هذا الإحكام: الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه».

---

(١) فضائل القرآن (ص٤٦).
(٢) النبوات (٢/ ٨٧٦).
(٣) أصول التفسير (ص٦٢).

(وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ) يعني: من اهتدىٰ بهذا الوحي؛ صانه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن الأهواء في الاعتقاد وفي الأقوال والأعمال، والاهتداء به واجبٌ علىٰ المسلمين جميعًا؛ أن يأتموا بالقرآن ولا يزيغوا عنه، قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به**».

(وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنُ) لأنَّه لا يشبهه كلام، ولأنه أيضًا محفوظ، تكفَّل الله بحفظه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، والحفظ يشمل حفظ ألفاظه، وحفظ معانيه.

وقوله: (وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنُ) لأنه بلسان عربي مبين، قال تعالىٰ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، وهذا من أسباب سهولة فهمه؛ لأنَّ الألسنة الأخرىٰ ليست في بلاغة لغة القرآن، فالعبارة الواحدة في لغة القرآن لو أردنا أن نبيِّن معناها بغير لغة القرآن لاستعملنا جملًا، وفي سائر اللُّغات أكثر من ذلك، وأيضًا لا توجد جملة توازي ألفاظ القرآن في سبكها وألفاظها وسياقها وبلاغتها ومعانيها، ومجموع ما في الآية من البلاغة والبيان والفصاحة لا يوجد كلام يوازيه أبدًا، لذلك قواعد اللُّغة تبنىٰ علىٰ القرآن؛ لأنَّه هو أفصح الكلام، وليس العكس، فمن الخطأ أن نجعل ما هو مستعمل عند النُّحاة معيارًا علىٰ القرآن، بل القرآن هو المعيار علىٰ كل كلام، وبه يُعرف فصيح الكلام من لحنه.

وقوله: (وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ التَّرْدِيدِ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ)[1]؛

---

(١) وردت هذه اللفظة أيضًا من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، رواه أبو عبيد القاسم بن =

كلُّ كلام إذا كُرِّر يملُّ الإنسان من سماعه إلَّا القرآن، كلَّما كُرِّر التذَّ به المؤمنون، وانتفعوا به، إلَّا القلوب غير الزكيَّة، الغير الطاهرة، ولذلك قال عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربِّكم».

والله لا تشبع منه لا في الصَّلاة، ولا خارج الصَّلاة، ولا أوَّل النَّهار، ولا في أوساطه، ولا في آخر النَّهار، ولا بعد غروب الشَّمس، ولا بعد غروب الشَّفق، ولا في أوقات اللَّيل، لا في الأسحار ولا غيرها.

والمسلمون الموفَّقون ليلهم ونهارهم ذكر للقرآن: إما سماعًا، وإمَّا قراءةً، وإمَّا تدبُّرًا، وإمَّا تدوينًا للعلم الذي هو كلُّه من القرآن، وإمَّا دعوةً وهدايةً للنَّاس ونصحًا به، وإمَّا عملًا وقضاءً به، أو استعمالًا لهديه في وظائف الإنسان اليومية وأحواله كلها.

(وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ) الآية تقرؤها اليوم وتقرأها في وقت آخر، وكلما كرَّرْتَ قراءتها - إذا قرأتها مرة بعد مرَّة بتدبُّر، وعندك من أسباب العلم ما تستنبط به المعاني - تظهر لك معانٍ جديدة.

وأيضًا بعد سنوات كلَّما رسختَ في العلم وازددت في طلبه؛ يظهر لك من معاني القرآن ما لم يكن ظهر لك من قبل، وتقول: كيف كنتُ غافلًا عن معنىٰ هذه

=

سَلَّام في فضائل القرآن، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يحتمل والله أعلم أن يكون - أبو إسحاق الهجري - وهم في رفع هذا الحديث، وإنَّما هو من كلام ابن مسعود»، فضائل القرآن (ص٤٨).

الآية، أو عن معنىٰ هذه الفائدة؟! وكلما قرأت استنباط بعض العلماء وتنبيههم علىٰ ما في هذه الآيات من المعاني من غير تكلُّف؛ ظهر لك من توفيق الله لهم ما كان سببًا لنفعهم الناس في بيان هذه المعاني.

(مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ) لأنَّه كلام الله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وهذا القرآن محكم، في جودة ألفاظه، وتوافق معانيه، تتوافق ولا تتناقض، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، يعني: من تدبَّره وعمل به رُزق الهداية، وأدركته رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]، يعني: أعظم ما يفرح به الإنسان القرآن، في تلاوته والتعبُّد به، والعمل به، والفرح بالقرآن دليل علىٰ طهارة النُّفوس وزكائها، وقبولها لأسباب حياتها.

قوله: (وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ): من عمل به أُجر؛ لأنَّه عمل بأمر الله واهتدىٰ بهداه، فهو عمل بالطَّاعة، ومن حكم به عَدَل لأنَّ أحكامه إلهية والله لا يحكم إلا بالحق والعدل،؛ فالله يأمر بالعدل والإحسان، كل أحكام الله

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عدل، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، ولذلك من خالف أو ضادَّ الله في حكمه فقد جار وظلم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يهدي المسلمين لتحكيم الشَّريعة، فحكم الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عَدَلَ عنه المسلمون بقوانين من الكافرين، ومن أعوانهم من بني جلدتنا الذين نشئوا في بيئة تعطيل الشَّريعة؛ كل مسلم يوقن أن الله الأعلم والأحكم، وأن أحكامه عَزَّوَجَلَّ عدل، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وأنَّ الله ما فرَّط في الكتاب من شيء ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فكيف يُعدَل عن أحكام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلىٰ أحكام مخلوقين مربوبين لله؟!

قوله: (وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ) من عمل به أدرك الخير في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وتلاوة القرآن ليس المقصود منها مجرَّد تلاوة اللَّفظ فقط، بل المقصود تلاوة اللَّفظ وتدبُّر المعنىٰ، والعمل به، يقول العلَّامة الموفَّق عبد الرَّحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الدِّين كلُّه في إقامة التِّلاوة» بمعنىٰ تلاوة اللفظ، وفهم المعنىٰ والعمل به، الله يرزقنا وإيَّاكم حقَّ تلاوته؛ لأن هذا هو الذي يتفاضل فيه النَّاس.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «تلاوة الكتاب العمل بطاعة الله كلها».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ١٦٨).

هكذا ينبغي أن يكون المسلم، موطنًا نفسه على الاتباع للقرآن، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨].

الآن الناس كلُّها تتلو قولَه تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [محمد: ١٩]، الموحدون التزموا هذا المنهج، فإذا شاهدوا أو عاينوا شيئًا من الذُّنوب في بعض المسلمين يستغفرون للمؤمنين، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، يقول شيخ الإسلام في مصنَّفه «جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتوىٰ الحمويَّة»: «هذه ليست فقط للصَّحابة، بل هذه لكل طبقة من المسلمين»، هذا منهج الموحِّدين في معاملة المسلمين فيما يقع منهم من أخطاء هي من لوازم بشريتهم، وطريقة المنافقين قال فيها النبي ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تتَّبعوا عورات المسلمين**»، طريق المنافق إشاعة الفواحش والذُّنوب وسبُّ المسلمين وتبكيتهم، ومنهم من يكذب معها مائة كذبة.

يقول النبيُّ ﷺ: «**سدِّدوا وقاربوا**»؛ الإنسان لو أخطأ يبادر إلىٰ الاستغفار والتَّوبة، ولذلك يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] يقول المفسِّرون في معنىٰ الآية: إنَّ الاستقامة لا يخلو معها الإنسان من ذنب يستغفر الله منه، لذلك يقول النَّبي ﷺ: «**كل ابن آدم خطَّاء وخير الخطائين التوَّابون**»، ومن تاب تاب الله عليه وبُدِّلت سيِّئاته حسنات.

فالعمل بالوحي تزكية للأفراد والمجتمعات وخير وصيانة لها، وما دخل الشرُّ والسوء علىٰ المسلمين إلا بالعدول عنه.

ومن كلمات الوحي الجامعة لخير الأفراد والمجتمعات قولُ النبيِّ ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قد جمع النبيُّ ﷺ الورع كلَّه في كلمة واحدة، فقال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»؛ فهذا يعمُّ الترك لما لا يعني من: الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع».

وقال العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ينبغي للإنسان أن يتطلَّب محاسن إسلامه فيترك ما لا يعنيه».

قوله: (وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) لا شكَّ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وهذا الصِّراط المستقيم هو القرآن الذي بيَّن معناه النَّبي ﷺ ودعا إليه، وأمر أُمَّته بالدَّعوة إلىٰ كل ما في هذا القرآن، قال تعالىٰ: **﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾** [آل عمران: ١٠٤]، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر من شعائر الإسلام الواجبة، وهو فرض كفاية، وإذا فرَّطت فيه الأُمَّة صار علىٰ عموم المسلمين فرض عين، لكنْ هناك فرقٌ بين إنكار المنكر وتغيير المنكر؛ إنكار المنكر لابد أن تنكر إن استطعت ذلك، لكن تغيير المنكر يقول فيه شيخ الإسلام

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٩).
(٢) شرح الأربعين النووية (ص١٩٢).

في «السِّياسة الشَّرعيَّة»: هذا يحتاج إلىٰ إمارة، يعني ولي أمر يغيِّر هذا المنكر، والولاية نوعان: ولاية كبرىٰ؛ يعني الحاكم يُغيِّر المنكر في مملكته وإمارته وولايته، وولاية صغرىٰ؛ يعني كالأب في بيته، وكالمسئول في وظيفته، وهكذا.

وقوله: (وَمَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ): من تَرَك هذا القرآن استكبارًا، ومحادَّة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وكفرًا به؛ هذا يقصمه الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أمهله الله عَزَّوَجَلَّ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يأخذه بما يستحقُّه من النَّكال والعذاب في البرزخ والدَّار الآخرة.

قوله: (وَمَنِ ابْتَغَىٰ الْهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ) ولذلك ساق شيخ الإسلام الآيات التي تدلُّ علىٰ هذا المعنىٰ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]؛ فقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ الذِّكْر هو القرآن ومعانيه، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وجوَّد إسناده الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: أن هذا في عذاب القبر، له معيشة ضنك في عذاب القبر؛ هذا تفسير النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واللَّفظ يشمل معناه الحياة الدُّنيا والآخرة، فالكافر وإن كان يتمتع ويفرح بالدُّنيا، لكنَّه غير منشرح الصَّدر بما هو عليه من الشِّرك والإعراض عن ذكر الله؛ قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥]، صدر الكافر مليء بالوحشة والحسرات، لأنَّه لا يذكر الله، فلا

طمأنينة لقلبه وصدره، ولأنَّ العقائد الفاسدة من الشِّرك والكفر والأعمال الضَّالَّة واللَّهو الباطل لا يورث سعادة، وإنَّما يورث لهوًا محدودًا، ثم يورث حسرة.

أمَّا المؤمن المسلم الذي يذكر الله عَزَّوَجَلَّ ويأخذ بما أمره الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ به في كتابه، فتجده منشرح الصَّدر مطمئنَّ البال، قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، والأمَّة بقدر أخذها بهذا القرآن والعمل به تسعد في هذه الحياة الدُّنيا وفي البرزخ وفي الآخرة.

فالمعيشة الضنك للكافرين تكون في الدُّنيا وفي البرزخ وفي يوم القيامة ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤] قال بعض العلماء: يعني أعمىٰ عن الحجَّة، لا حُجَّة له يوم القيامة لكفره؛ لأنَّ الله قد أعطاه البصر والسَّمع وما يعقل به وهو العقل، فالحُجَّة قائمة عليه بالقرآن، وعلىٰ هذا يكون أعمىٰ البصيرة يوم القيامة، هذا أحد المعاني، والمعنىٰ الثَّاني الذي يدلُّ عليه اللَّفظ أيضًا - وهو ترجيح العلَّامة عبد الرَّحمن السِّعدي -: أنَّ الله يحشره أعمىٰ البصر؛ يعني يجازيه بما يستحقُّه؛ لأنَّه في الدُّنيا أوتي بصرًا ولم ينتفع به في الهداية للإسلام، فيحشره الله عَزَّوَجَلَّ أعمىٰ البصر، ولفظ الآية يشمل المعنيين؛ يُحشر الكافر يوم القيامة أعمىٰ البصر وأعمىٰ البصيرة.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من نصوص القرآن ما يدلُّ علىٰ معنىٰ ما ذكره في ألفاظ حديث عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ

وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٦]، فالقرآن نور يهتدي به المسلمون في سيرهم إلىٰ الله في هذه الدَّار الدُّنيا، ويتعبَّدون الله بالاهتداء به علىٰ بصيرة، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقوله: «من تركه من جبَّار قصمه الله، ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضلَّه الله»؛ هو من جوامع الكلم التي جمعت الخير كلَّه بحذافيره، فهو حثٌّ علىٰ العلم النَّافع والعمل الصَّالح الذي هو حقيقة ما في القرآن، وهو تحذير من ضدِّه من الجهل والاستكبار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: «**من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضله الله**» يناسب قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٞ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]، وكذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر: ٣٥]، فذكر ضلال الأول، وذكر تجبُّر الثاني، وذلك لأن الأول مرتاب ففاته العلم، حيث ابتغىٰ الهدىٰ في غيره، والثاني جبَّار عمل بخلاف ما فيه؛ فقَصَمَهُ الله، وهذان الوصفان يجمعان العلم والعمل.

وفي ذلك بيان أن كلَّ علم دين لا يُطلب من القرآن، فهو ضلال؛ كفاسد كلام الفلاسفة والمتكلمة والمتصوفة والمتفقهة وكل عاقل يترك كتاب الله مريدًا للعلو في الأرض والفساد؛ فإن الله يَقْصمه.

فالضال لم يحصل له المطلوب، بل يُعذَّب بالعمل الذي لا فائدة فيه،

---

(١) الاستقامة (ص٤٥-٤٦).

والجبار حصَّل لذةً فقصمه الله عليها؛ فهذا عُذِّبَ بإزاء لذَّاته التي طلبها بالباطل، وذلك يُعذَّبُ بسعيه الباطل الذي لم يُفِدْه».

والقرآن فرقان، من اهتدىٰ به صار له ميزانًا في التمييز بين الحق والباطل؛ فالله عَزَّوَجَلَّ قوله الحق، وحكمه الحقُّ، وما خالف القرآن فهو باطل؛ لأنَّ القرآن حقٌّ وما خالفه فهو باطل، قال تعالىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

قال شيخ الإسلام: (وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]) هذا القرآن لا شكَّ أنَّه نور يهتدي به من آمن به من الظُّلمات، والضَّلالات، والأهواء بأنواعها.

وختم شيخ الإسلام المقدِّمة بذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وقوله: ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ هذه ليس فيها ظلم، فالله عَزَّوَجَلَّ خلق الخلق وهم فئتان؛ مؤمنون وكافرون، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ﴾ [التغابن: ٢] وبعث الرُّسل، وأنزل الكتب، فقامت حجَّة الله علىٰ خلقه جميعًا، وأيضًا خَلَق الله الخَلْق علىٰ الفطرة، فقال النبيُّ ﷺ: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه**»، الحديث في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخلق الله في كلِّ مخلوق إرادة تامَّة، وقدرة جازمة يختار بها الفعل، قال تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]؛ فجعل الله لكلِّ

مخلوق مشيئة يختار بها الاستقامة أو الضَّلالة، فإذن من ضلَّ فإنَّما ضلَّ من جهة نفسه؛ لكفره وإعراضه، وتولِّيه عن الانقياد لأمر الله وحكمه، وعبوديَّته، والله عَزَّوَجَلَّ لا يُضلُّ إلا مَن يستحقُّ الضَّلالة؛ لكمال عدله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥]، وهدىٰ من هدىٰ فضلًا منه وإحسانًا، لذلك إذا دخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ يقولون: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: ٤٣]؛ فالله عَزَّوَجَلَّ له المنَّة عليك أن هداك ووفَّقك، هداك هداية الإرشاد والبيان، وهداية التَّوفيق للعمل، وغيرك ضلَّ.

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: (هَذِهِ الْمُقَدَّمَةَ مُخْتَصَرَةً)، جزاه الله خيرًا؛ لأنه معروف أن شيخ الإسلام إذا كتب في شيء أوعب.

يقول: (بِحَسَبِ تَيْسِيرِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ إِمْلَاءِ الْفُؤَادِ)، يعني: كتب هذا المصنَّف إملاءً من حفظه، ومعروف عن شيخ الإسلام أنَّه من كبار الحفَّاظ، كان يحفظ الكتب الستَّة كلَّها، وهذا يقوله الحافظ المزِّي وهو من كبار علماء الحديث في طبقته.

وقد أوتي شيخ الإسلام استحضارًا للآيات عند الاستدلال، وما أكثر ما تتبدد أذهاننا في ذلك، و«الفتوىٰ الحموية» كتبها في جلسة بين المغرب والعشاء، هذا من اصطفاء الله لهذا الشيخ، متون عظيمة نافعة منها هذا المتن في أصول التَّفسير كتبها من حفظه، هذا اصطفاء من الله لهذا العالم.

❁ ❁ ❁

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

> [**فَصْلٌ في أنَّ النبي ﷺ بيَّن لأصحابه معاني القرآن:**
>
> **يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ لِأَصْحَابِهِ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ كَمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَلْفَاظَهُ؛ فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا].**

الشَّرح:

النبي ﷺ أُوحي إليه القرآن وبُعث بإبلاغ كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأُمر أيضًا بتبيين معاني كلام الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه بُعث بهذا؛ وهذه خاصية رسول الله ﷺ، وما ورَّثه أمته فـ«**إن العلماء ورثة الأنبياء**»، يؤدون بيان القرآن والسُّنَّة كما أداه النبي ﷺ، وأداه إلينا الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ لذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]؛ فسُنَّته ﷺ تفصيل لمعاني القرآن، وبيان لألفاظ القرآن، وحيث يكون في بعض الآيات إجمال؛ تجد النبي ﷺ يُفصِّل ذلك أحسن تفصيل؛ لأنه يوحىٰ إليه، قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾**﴾ [النجم: ٤].

وهذا الذي أوجبه الله عليه، وهو تبليغ وتبيين الوحي من حين ما أُوحي إليه، قال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ثم أُمر بعد ذلك بتبليغ ما أوحي إليه: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾**﴾ [المدثر: ١، ٢]، ولذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ**﴾ [المائدة: ٦٧]، وقد فعل – صلوات الله وسلامه عليه –، لذلك كان فيما أوحي إليه في يوم عرفة في حجَّة

الوداع قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]، وأشهد النبيُّ ﷺ في ذلك اليوم الصحابة علىٰ أنه بلَّغ كلام الله وبلَّغ معانيه، قال: «**ألا هل بلَّغْتُ؟ اللهم فاشهد**» متَّفق عليه، يشْهِد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ تبيينه، وسنَّته دالة علىٰ تبيينه وتبليغه، ما ترك شيئًا إلا وبيَّنه وفصَّله - صلوات ربي وسلامه عليه - حتىٰ قال أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا أحدث لنا منه ذكرًا»، رواه أحمد.

وتبيين النَّبي ﷺ لمعاني القرآن وأحكامه، ظهور ذلك عَلِمه الكافرون أيضًا وتحدَّثوا به رغم كفرهم.

وأعداء الإسلام شهدوا بهذا، قال يهوديٌّ لسلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «نبيُّكم بلَّغكم كلَّ شيء»، رواه مسلم، وجاء يهودي إلىٰ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقال له: نزلت عليكم معشر المسلمين آية لو نزلت علينا لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: ما هي؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]، فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أما أني أعلم أنها نزلت في يوم عرفة في حجة الوداع»، رواه البخاري.

لكن عمر متبع للسنَّة، فلم يتخذ ذلك اليوم عيدًا ولا الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فابتداع المواسم البدعية وتسميتها أعيادًا؛ هذا صناعة يهودية، وذكر العلماء أن أول من ابتدع بدعة الاحتفال بالمولد؛ هم الفاطميون الرافضة.

فالنبي ﷺ بلَّغ البلاغ المبين؛ لأن الله أخذ الميثاق علىٰ النبيين ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾

[آل عمران: ١٨٧]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]؛ يعني: يستحيل على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ لكمال عدله يرسل الرسل ويُنزل الكتب إقامةً للحُجَّة على الخلق، ويوحي إلى الرسول ﷺ وإلى الرسل من قبله بتبيين الشرائع؛ فيبينونها، فيحصل بذلك الإعذار أمام الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وأيضًا سنة النبي ﷺ ظهورها دال على هذا المعنى؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، بيَّنه النبي ﷺ بسنته القولية والفعلية أتم تفصيل من تكبيرة الإحرام إلى التسليم، ولذلك قال: «**صلُّوا كما رأيتموني أصلِّي**»، رواه البخاري في «صحيحه»؛ وهذا فيه حثٌّ للصحابة لأداء العلم وحفظ السنَّة وتبيينها؛ فيُصلون كما صلَّى النبي ﷺ، وأيضًا يروون الأحاديث في ذلك، وبذلك يتأدى العلم لمن بعد الصحابة؛ وهكذا تأدى إلينا العلم كلُّه بنقل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ولذلك جعل الله عَزَّوَجَلَّ اتباع فَهْم الصحابة وما أجمعوا عليه واجبًا، وتوعَّد الله عَزَّوَجَلَّ مَن خالفهم وما أجمعوا عليه، وتولَّى عن تلقِّي الدِّين عنهم؛ فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]؛ لأن الصحابة أخذوا الدِّين من النبي ﷺ مباشرة، وأُمِروا بأدائه إلينا، فكونك تعدل عن فَهْم الصحابة للدِّين؛ هذا مشاقة للنبي ﷺ، ومضادة لأمر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

❁ ❁ ❁

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: [وَقَدْ قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السّلمِي: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقرِئُونَنَا الْقُرْآنَ - كَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا -: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّىٰ يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا. وَلِهَذَا كَانُوا يَبْقَوْنَ مُدَّةً فِي حِفْظِ السُّورَةِ].

الشَّرْح:

هذا أثر عظيم عن أبي عبد الرحمن السلمي، وهو عبد الله بن حبيب، وهو تابعي، وأبوه صحابي جاهد مع النبي ﷺ، وأقرأه علماء الصحابة القرآن، وأبوه ممَّن أقرأه.

يقول: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن»؛ فأخذ علم القرآن؛ التلاوة والتَّفسير، بالمشافهة عن الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ وهكذا السنَّة في قراءة القرآن؛ أن تأخذه تلاوةً ومشافهة.

ومشايخه الذين أقرءوه، قال: «عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما»؛ وفي رواية أخرىٰ مفصَّلة ذكر معهم عليَّ بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وأبيَّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ ما شاء الله! أرأيتم هذا التلميذ الذي جمع علم خاصَّة علماء الصحابة في قراءة القرآن، والقراءة التي نقرأ بها نحن في الخليج العربي؛ هي قراءة عاصم، وعاصم أخذ قراءته عن أبي عبد الرحمن السلمي، وأبو

عبد الرحمن السلمي أخذ قراءته عن عثمان بن عفان وعليٍّ وأبيٍّ وابن مسعود، وزيد بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وزيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هو الذي أَمره أبو بكر الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بجمع المصحف، وعثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هو راوية حديث النبيِّ ﷺ: «**خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه**»، وأبيُّ بن كعب هو الذي أمر الفاروق الصَّحابةَ بالاجتماع علىٰ تلاوته للقرآن جماعة في صلاة الليل في رمضان، وعليٌّ وابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا من علماء الصحابة المفسِّرين، فقراءة عاصم نفيسة، ما أروع إسنادها! وهذا مهم جدًّا لنا لمعرفة عمن تلقينا قراءة عاصم.

أما المنَّة العظمىٰ في حفظ القرآن بعد النبيِّ ﷺ؛ فهي ابتداءً للفاروق عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ثم لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ وهذا بقول سادات آل البيت أنفسهم؛ قال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أعظم الناس منَّة في جمع القرآن أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. لكن ابتداء الفكرة هو إلهام من الله لعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ فهو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ملْهمٌ؛ فإنه في غزوة اليمامة استحر القتل في القرَّاء - يعني: حفاظ القرآن - فأشار عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بجمع القرآن، فشرح الله صدر أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لجمع القرآن، وأمر بذلك زيد بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لأن القرآن كان محفوظًا في الصدور، وكان أيضًا يُكتب في عهد النبي ﷺ؛ فقد كان له ﷺ كُتَّاب للوحي، ومن جملتهم معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، لكن لم يكن القرآن كله مجموعًا في مصحف واحد، فأمر بجمعه أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لأنَّه خليفة المسلمين، وهذا الفعل ليس ببدعة بدليل أنه كان يُكتب المصحف في عهد النبي ﷺ، وبذلك أشار عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فالمشورة والفكرة من عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والأمر بالتَّنفيذ من أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛

فهؤلاء أعظم الناس منَّة في حفظ القرآن؛ لذلك كلُّ من يقرأ القرآن من المصحف ويحفظه فأجره وثوابه في موازين حسنات هؤلاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، خصوصًا الصدِّيق والفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والقرَّاء الذين بقوا في معركة اليمامة ومن صدورهم كُتب المصحف، فهم قرَّاء ومجاهدون في سبيل الله، الله أكبر!

والقرآن تكفَّل الله بحفظه، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩]، وهو حفظ لألفاظه وحفظ لمعانيه من التحريف والتغيير والتبديل.

ولماذا اختار أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لجمع المصحف، مع أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أعلم الصحابة بالقرآن وأقدمهم أخذًا للقرآن عن النبي ﷺ؟ يقول الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ في تبيين فضيلة كلِّ واحد منهم بنوع من علوم القرآن في أدائه وحفظه؛ يقول: «ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل أداءً – يعني: تلاوة وقراءة –، وزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل رسمًا للمصحف وتدوينًا له؛ ولذلك اختاره أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لكتابة المصحف، ولأن أبا بكر علل سبب ذلك فقال لزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فإنك كنت تكتب القرآن للنبي ﷺ. يعني: أن النبي ﷺ اختارك قبلي، فلنا أسوة فيه.

والأمر الآخر: يقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير لفظة أبي بكر: «فإنك كنت تكتب القرآن للنبي ﷺ»؛ قال: «فإن الممارسة للشيء تورث الكمال فيه والإتقان»؛ لذلك نحن نقرأ الكتاب مرة واثنتين وثلاث وأربع، وكلما قرأناه يزداد اجتناؤنا من فوائده وفَهْم ألفاظه؛ سواء لكتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أو لكتب العلماء

الذين دوَّنوا علم القرآن والسنة.

وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من سادات الصحابة في حفظ القرآن، حتىٰ إنه كان يقرؤه في ركعة واحدة، كل القرآن يقرؤه في ركعة واحدة! نحن لا يجوز لنا أن نفعل هذا؛ لأن النبي ﷺ نهىٰ أن نقرأه في أقل من أسبوع، لكن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد حفظ القرآن وتدبَّر معانيه بما أدركه من الوحي كله؛ لأنه من السابقين في الإسلام، والقرآن ما نزل كله جملة واحدة كسائر الكتب السماوية السابقة، إنما نزل في ثلاث وعشرين سنة؛ وهي مدة الوحي، وكان كل ما ينزل من القرآن يحفظه ويتدبره ويتلقىٰ معانيه من النبي ﷺ مباشرةً، ثم مع هذا الحفظ والفهم، والتدبُّر والعمل به والقيام به، مع السنوات الطويلة؛ قد فَقِهَ القرآنَ فلا يتناوله النهي الذي في قول النبي ﷺ: «**لا يفقه القرآن من قرأه في أقل من ثلاث**».

وكان بعض سادات التابعين كسعيد بن جبير يقرأ القرآن كاملًا ما بين صلاتي المغرب والعشاء في رمضان؛ ختمة كاملة، كل ليلة من ليالي رمضان، فهناك أناس جعل الله عَزَّوَجَلَّ لهم قدرة علىٰ هذه التلاوة، ومكَّنهم سبحانه وتعالىٰ منها، ويسَّرها لهم؛ فهذا لمن فَقِه القرآنَ وعرف معانيه، فسعيد بن جبير أخذ علم التفسير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وممن أقرأ أبا عبد الرحمن السلمي عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من علماء التفسير؛ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أخذت علم التفسير من عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»، فأغلب عِلْم عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التفسير مدون في أقوال وتفسير ابن

عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ومنهم ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، الذي قال: ولقد علم أصحاب محمد ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله. رواه البخاري ومسلم.

وزيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقد علمتم فضله وشأوه ومنزلته في حفظ القرآن وفي تدوينه.

وأبيُّ بن كعب، وهو من سادات الصحابة في حفظ القرآن وتلاوته وفهم معانيه، حتىٰ إن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أمره أن يؤم الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في رمضان.

ماذا نستفيد من أثر أبي عبد الرحمن السلمي؟

نستفيد منه معرفة منهجيَّة الصحابة والتابعين في تلقي العلم، وهذا أمر مهم جدًّا، فلا نقف عند آثار الصحابة والتابعين دون أن نأخذ منها المنهجَ في تلقِّي العلم، أو المنهج في الاعتقاد وسائر الأمور؛ لأنهم علَّموا العلم وعلَّموا المنهج في تلقي العلم، وعلموا العقيدة وعلموا المنهج في استعمال العقيدة، كما سنذكر في أمور كثيرة؛ لأن مجرد حفظ القرآن مع فهمه فهمًا بدعيًّا يعود وبالًا علىٰ حافظ القرآن إذا لم يكن يفقه معناه الفقه الصحيح، كما قال النبي ﷺ في الخوارج: «**لا يجاوز تراقيهم**»؛ لضلالهم في معنىٰ القرآن.

ولذلك فأبو عبد الرحمن السلمي أخذ حفظ القرآن والمنهج عن هؤلاء الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هو القائل: «**اتبعوا ولا تبتدعوا**»؛ رواه الدارمي، فهذا بيان منه للمنهج في الاتباع للوحي والانتهاء إليه عن البدع

والاكتفاء به عن الإحداث في الدين.

وهنا أيضًا روىٰ أبو عبد الرَّحمن السّلمي عن الصحابة المنهج في تلقي العلم؛ قال: «كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا» لأنه بهذا المقدار يرسخ الحفظ والفهم؛ لذلك ينصح علماء السلف كالزهري وغيره بأن لا نكابد العلم، فتأخذه كله مرة واحدة، فهذا غير ممكن! فأذهان النَّاس لا تعي حفظ القرآن وفهمه كلِّه في مجلس واحد، والله له حكمة بالغة في إنزال القرآن علىٰ نبيه ﷺ في ثلاثة وعشرين عامًا، قال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]. خذ العلم شيئًا فشيئًا، فالعلم يغذي بعضه بعضًا كما قال شيخنا العلامة ابن عثيمين، وقال الزهري: «ومن رام العلوم جملة ذهبت عنه جملة»، لذلك تجد الذي يحفظ القرآن في مدة قليلة إن لم يكن الله عَزَّوَجَلَّ رزقه قوة حفظ خارقة؛ لا يثبت في ذهنه وذاكرته ما حفظه بسرعة، ومن حفظ القرآن في سنة أو سنتين، وقام بمذاكرة حفظه وتثبيته ومراجعته والصلاة به والعمل به؛ رسخ حفظه.

وعمر بن عبد الواحد صاحب الأوزاعي طلب من الإمام مالك أن يقرأ عليه «الموطأ» في أربعين يومًا، فقال له الإمام مالك: كتاب ألفته في أربعين سنة تريدون أن تقرءوه في أربعين يومًا! قلما تفقهون. قوله: «في أربعين سنة»؛ قالوا: هي مدة تصنيفه مع تنقيحه؛ لأنه كان كل سنة يُنقِّح «الموطأ» فينتخب الآثار والأحاديث أكثر.

والإخلاص هو الذي يكتب الله به القبول للعلم، ولذلك قيل للإمام مالك لما ألف «الموطأ»: يا أبا عبد الله! فلان كتب موطأً وفلان كتب موطأً؛ قال: وطَّؤُوا ووطأنا، فما كان لله فهو يبقىٰ.

ومن أسباب حفظ علم العالم قيام طلبته بتدوين علم شيخهم، فيحفظونه، مثل علم شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بحمد الله الآن جله أو كُلُّه يكاد يكون دُوِّن وطبع، وهذا برٌّ به واجب، فكما علمنا يجب أن نؤدي علمه إلىٰ الناس، والآن والحمد لله طُبعت كتبه، وإن شاء الله، الله يسخر لجنة متخصصة لترجمتها إلىٰ اللغات الأجنبية. ومن البر الواجب علىٰ طلبته تدوين علومه في مصنفاتهم، لتثقل موازينه، وهو والحمد لله أعماله - خصوصًا تعليمه العلم - تبلغ به ما نرجو أن يكون في أعلىٰ طبقات الصدِّيقين بعد النبيين؛ فإنه نصَرَ سنَّة النبي ﷺ وأداها للمسلمين كافة، جزاه الله عن الإسلام خيرًا، فلا نتوقف عن بر الشيخ مهما استطعنا، فهو منَّةٌ من الله علينا في هذا الوقت، فمن كان مثل العلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفرغ لتعليم العلم.

ولننظر إلىٰ الليث بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان الليث بن سعد أفقه من مالك، لكن طلابه ضيَّعوا علمه، ما دونوه، مع أن له روايات في البخاري وغيره، وبعض فقهه مدون، لكن أكثر علمه لم يدوَّن.

وحفظ العلم مهم لأدائه لكل الأمَّة، والمصحف حُفظ لأن الله تكفَّل بحفظه، وهذا يدل علىٰ أن توارث العلم من أسباب حفظه.

هذه المنهجية منهجيةُ الصحابة تعلَّم عشر آيات عشر آيات، أقوم المناهج في الإفادة بتعليم العلم، وكان الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يتجاوز شرح خمسة أحاديث في اليوم في مدينة رسول الله ﷺ.

قال أبو عبد الرحمن السلمي: «حَتَّىٰ يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ»، هكذا كان السلف خيارهم وساداتهم علمًا وعملًا، تلاوة وفهمًا وتفسيرًا، وخذ نموذجًا أبا عبد الرحمن السلمي نفسه، وهو راوي الحديث عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»، رواه البخاري؛ قال: هذا الذي أجلسني أربعين عامًا في تعليم القرآن، الله أكبر!

وأم حبيبة بنت أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أخت معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، زوج النبي ﷺ؛ روت عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**اثنتا عشرة ركعة في اليوم والليلة مَن حافَظَ عليهن؛ بنىٰ الله له بيتًا في الجنة**»، قالت أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ»، وقال عنبسة بن أبي سفيان الراوي عن أم حبيبة: «فما تركتهن منذ سمعتهن من أم حبيبة»، وقال عمرو بن أوس: «فما تركتهن منذ سمعتهن من عنبسة بن أبي سفيان»، وقال النعمان بن سالم: «فما تركتهن منذ سمعتهن من عمرو بن أوس»، رواه مسلم، الله أكبر! تسلسل الطبقات في العمل بالعلم، وبذلك حُفِظ الدِّين وحفظت الشرائع، ولذلك حذَّر النبي ﷺ من تضييع شرائع الإسلام بتضييع تعليمها والعمل بها، فقال: «**يأتي زمان لا يعرف الناس من الإسلام إلا لا إله إلا الله، لا يعرفون: صلاةً، ولا صيامًا، ولا زكاةً، ولا حجًّا**»، هذا عندما يُخبر به النبي ﷺ فإنه يحثُّ أُمَّتَهُ علىٰ حفظ الشرائع، لا بد أن تكون كلُّ شرائع الإسلام ظاهرةً في ديار الإسلام، فيُحافظ علىٰ الصلاة ويحافظ علىٰ الأضحية، وزكاة الفطر وكل شعائر الإسلام الظاهرة.

وروىٰ يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي

ﷺ قال: «**يأتي المؤمن في ظلِّ صدقته يوم القيامة**»، وكان أبو الخير - وهو مَرْثَدُ بن عبد الله اليزني-: لا يخطئه يوم إلا وتصدق فيه، سواء بكعكة أو ببصلة، رواه أحمد وصححه ابن خزيمة.

وقد قال النبي ﷺ: «**لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا**»، وتصدقت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعنبة، فقالت لها جاريتها: عنبة! كأنها تقالَّت الصدقة، قالت: الله أعلم كم مثقال ذرة في هذه العنبة، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبيُّ ﷺ: «**اتقوا النَّار ولو بشقِّ تمرة**»، رواه البخاري ومسلم.

وقول أبي عبد الرَّحمن السّلمي: «فتعلَّمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا»، فلهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة؛ مع أنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما كان يعجزهم الحفظ؛ فهُم معروفون بقوة الحفظ، فكانوا يحفظون من الشعر أبيات كثيرة، ولكن العناية بالفهم والعمل هي التي جعلتهم يبقون مدَّة طويلة في حفظ القرآن، ومن أولئك ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقد أخذ ثمان سنوات في حفظ سورة البقرة.

فالصَّحابة كانوا يبقون مدة في حفظ السورة؛ لأن ورعهم أفضل، فلم يأت مثلهم، فهم أفضل الناس بعد النبي ﷺ، كما قال ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»، متفق عليه من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإحصاؤهم لمعاني القرآن، وما يوجبه عليهم ليس كإحصائنا، وبهذا يظهر الفرق بين السَّلف والخلف.

وتلاوة القرآن طاعةً لله وطلبًا للهداية منه، والعمل بما فيه؛ أعظم واعظ

ومذكِّر، وهو من أعظم أسباب تزكية النُّفوس وصلاح القلوب والجوارح، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالىٰ مخاطبًا أمهات المؤمنين: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التلاوة والتزكية عامَّة لجميع المؤمنين، فتلاوة الآيات يحصل بها العلم؛ فإن الآيات هي العلامات والدلالات، فإذا سمعوها دلَّتهم علىٰ المطلوب، من تصديق الرسول ﷺ فيما أخبر، والإقرار بوجوب طاعته.

وأما التزكية: فهي تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده وطاعته؛ فالتزكية تكون بطاعة أمره، كما أن تلاوة آياته يحصل بها العلم.

وسُمِّيت آيات القرآن آيات، وقيل: إنها آيات الله، كقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢] لأنها علامات ودلالات علىٰ الله وعلىٰ ما أراد، فهي تدلُّ علىٰ ما أخبر به، وعلىٰ ما أمر به ونهىٰ عنه، وتدل أيضًا علىٰ أن الرسول ﷺ صادق، إذ كانت مما لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثلها، وقد تحداهم بذلك».

---

(١) النبوات (٢/ ٦٧١).

القرآن ذكر؛ تلاوته ذكر وغذاء وحياة للقلوب والبصائر والأبدان، وهو ذِكْر وتذكير يأخذ منه المتذكِّرون ما يهديهم ويُصلح أمورهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «(تذكرة): حُجَّة للعالمين، ومنفعة وهداية للمتعلِّمين».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أخبر تعالىٰ عن «القرآن» بأنه ذكْرٌ للعالمين، وفي موضع آخر: تذكرة للمتقين، وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر: ذكر مطلق، وفي موضع آخر: ذِكْرٌ مبارك، وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذِّكْر.

وبجمع هذه المواضع يتبيَّنُ المراد من كونه ذِكْرًا عامًّا وخاصًّا، وكونه ذا ذِكْرٍ؛ فإنه:

يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم ويذكرهم بالمبدأ والمعاد ويذكِّرُهم بالربِّ تعالىٰ وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وحقوقه علىٰ عباده ويذِّكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشرِّ ليجتنبوه. ويذكِّرهم بنفوسهم وأحوالها وآفاتها، وما تكمل به. ويذكِّرُهم بعدُوِّهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أيِّ الأبواب والطرق يأتي إليهم.

ويذكِّرُهُم بفاقتهم وحاجتهم إلىٰ ربِّهم، وأنهم مضطرُّون إليه لا يستغنون عنه نَفَسًا واحدًا.

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٢٨٣).

(٢) التبيان في أيمان القرآن (ص٢٠١-٢٠٣).

ويذكِّرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلىٰ نعم أخرىٰ أكبر منها.

ويذكِّرهم بأسه، وشدَّة بطشه، وانتقامه ممن عصىٰ أمره وكذَّب رسله.

ويذكِّرهم بثوابه وعقابه

ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه، كما قال تعالىٰ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [البقرة: ٦٣]، وإذا كان كذلك فأحقُّ وأولىٰ وأوَّلُ من كان ذاكرًا له من أُنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين، وحيث خصَّ به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره.

وأما وصفه بأنه «ذو الذِّكْر» فلأنه مشتمل علىٰ الذكر، فهو صاحب الذِّكْرِ، وفيه الذِّكْر؛ فهو ذِكْرٌ وفيه الذِّكْر كما أنه هدًىٰ وفيه الهدىٰ، وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة».

والقلب هو أساس صلاح الجوارح فاحذر غفلته، فإنَّه متىٰ غفل تكاسل عن الخير، وضعف عزمه عن السير إلىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ضد الغفلة: التذكر، والتذكُّر لآياته سبحانه وتعالىٰ يُوجب العلم بها، وحضورها في القلب، وهو موجبٌ لاتباعها، إلا أن يمنعه هوًىٰ».

---

(١) النبوات (٢/ ٦٥٩).

وحياة القلب أن يكون همُّك واحدًا، وهو الله وحده لا شريك له، وأن يكون سعيك في مراضيه قصدًا وإرادةً وقولًا وعملًا.

ومتىٰ أخذ المسلم بأسباب حياة قلبه، وأضاء نور القرآن في أرجائه، واستعان بربِّه في صلاحه؛ قوي إجلاله وتعظيمه وخشيته ورجاؤه ومحبَّته وتوكُّله وإنابته وخضوعه في قلبه لربِّه؛ فكان ذلك سبب صلاح جوارحه، وتولي الله له هداية وتوفيقًا لكل خير.

ويدرك المسلم بسبب صلاحه خيري الدُّنيا والآخرة، وتزداد رغبته في الخير والعمل الصَّالح بما يجتنيه من ثمرات البرِّ والتَّقوىٰ والعبوديَّة لله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العمل الصَّالح يورث من الفرحة والسُّرور واللذَّة والبهجة والنَّعيم، وقوَّة القلب واستبشاره وحياته وانشراحه واغتباطه؛ ما هو أفضل النَّعيم وأجلّه وأطيبه وألذُّه. وهل النَّعيم إلَّا طيب النَّفس وفرحة القلب وسروره وانشراحه واستبشاره».

فالأصل هو القلب، هو الذي بصلاحه تصلح الجوارح وتزكو، وحياة الجوارح بحياة القلب، قال النبي ﷺ: «**إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه**» متَّفق عليه، والقلوب الكافرة غفلتها وإعراضها عن وحي الله والحياة به؛ مستمرَّة دائمة، إلَّا أن يمنَّ الله عليها بأسباب الهداية للإسلام.

والقلوب المسلمة حياتها بالوحي وبذكر الله، وإذا أصابتها غفلة نقص

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلاميَّة (ص٦٨).

خيرها، وإذا كانت ذاكرة زادت حياتها بالبرِّ والتَّقوىٰ؛ فكن من الذَّاكرين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به، واستحضاره لذلك، بحيث لا يكون غافلًا عنه؛ أكمل ممن صدق به وغفل عنه، فإن الغفلة تضاد كمال العلم، والتصديق والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين، ولهذا قال عمر بن حبيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من الصحابة: «إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبَّحناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيَّعنا فذلك نقصانه» وهو كذلك.

وكان معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول لأصحابه: «اجلسوا بنا نؤمن ساعة»، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ [الأعلىٰ: ١٠، ١١]، ثم كلما تذكَّر الانسان ما عرفه قبل ذلك، وعمل به؛ حصل له معرفة شيء آخر لم يكن عرفه قبل ذلك، وعرف من معاني أسماء الله وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك، كما في الأثر[(٢)]: «**من عمل بما علم؛ ورثه الله علم ما لم يعلم**»، وهذا أمر يجده في نفسه كلُّ مؤمن.

وفي «الصحيح» عن النبي: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وذلك أنها تزيدهم علم ما لم يكونوا قبل ذلك علموه، وتزيدهم عملًا بذلك

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) عن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

العلم، وتزيدهم تذكرًا لما كانوا نسوه، وعملًا بتلك التذكرة».

والنبيُّ ﷺ المعصوم فيما يُبلِّغ عن الله، المسدَّد بالوحي، الذي أسلم قرينه فلا يأمره إلا بخير، والذي غسلت الملائكة قلبه بماء زمزم، كان يُكثر من دعاء الله بتثبيت قلبه علىٰ دين الله، فما أحوجنا إلىٰ هذا الدُّعاء.

فمن أسباب حفظ القلوب عن الزَّيغ الاستعانةُ بالله في ذلك، هذا شأن المؤمنين المتَّقين، قال العلامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من هذا دعاء الراسخين في العلم، بعد الثناء عليهم بالإيمان التام: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

فسألوا ربَّهم، وتوسَّلوا بربوبيَّته في حصول أفضل الوسائل، وهو استقامة القلوب علىٰ ما يحبه الله ويرضاه، والثَّبات علىٰ ذلك، وعدم زيغها عن هذه الهداية، وأجلّ المقاصد؛ وهو حصول رحمة الله تعالىٰ التي يحصل معها خير الدنيا والآخرة».



---

(١) المواهب الربَّانيَّة من الآيات القرآنيَّة (ص٨١، ٨٢).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

[وَقَالَ أَنَسٌ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فِي أَعْيُنِنَا.

وَأَقَامَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَىٰ حِفْظِ الْبَقَرَةِ عِدَّةَ سِنِينَ، قِيلَ: ثَمَانِ سِنِينَ. ذَكَرَهُ مَالِكٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]. وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]. وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]. وَتَدَبُّرُ الْكَلَامِ بِدُونِ فَهْمِ مَعَانِيهِ لَا يُمْكِنُ.

وَكَذَلِكَ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وَعَقْلُ الْكَلَامِ مُتَضَمِّنٌ لِفَهْمِهِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ فَالْمَقْصُودُ مِنْهُ فَهْمُ مَعَانِيهِ دُونَ مُجَرَّدِ أَلْفَاظِهِ؛ فَالْقُرْآنُ أَوْلَىٰ بِذَلِكَ.

وَأَيْضًا فَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنَ الْعِلْمِ كَالطِّبِّ، وَالْحِسَابِ، وَلَا يَسْتَشْرِحُوهُ، فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللهِ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؟!]

الشَّرح:

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ أثر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فِي أَعْيُنِنَا» رواه البخاري؛ يعني: أعين الصحابة، فهذا معيار تقييم الناس، «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ» يعني حفظهما «جَدَّ فِي

أَعْيُنِنَا»؛ أي: كبر في أعيننا؛ لأن الخير في هذا القرآن، العقيدة والأحكام والفقه، والدِّين كله وما تعبَّدنا الله به مما فيه من الأوامر والنواهي وما أمرنا باعتقاده من الأخبار التي فيه؛ الدين كلُّه في القرآن، فمن أخذ به فهو الأفضل والأحسن والأتقىٰ.

وعن أبي الأسود الدؤلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال:** بعث أبو موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلىٰ قراء البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، رواه مسلم.

وبسبب ما يحصل من العلم بالقرآن وفهمه والعمل به من زكاء العقيدة والسِّياسة والأخلاق كان القراء أصحاب مشورة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والبقرة وآل عمران لهما فضائلهما العظيمة من بين سائر سور القرآن، وكما تتعبد لله عَزَّوَجَلَّ بتلاوتهما والعمل بهما؛ فإنَّهما يشفعان لك يوم القيامة كما قال النبيُّ ﷺ: «**يأتي القرآن شفيعًا لأصحابه يوم القيامة**» **رواه مسلم**، خصوصًا البقرة وآل عمران تشفع لمن حفظهما وتدبَّر ما فيهما وعمل بما فيهما، ولذلك قال النبي ﷺ: «**اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة يحاجان عن صاحبهما**»، ثم ذكر النبيُّ ﷺ فضل البقرة علىٰ وجه الخصوص؛ فقال: «**اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة**»؛ يعني: يدرك حافظها والمتفقه والعامل بها والتالي لها بركة عظيمة بسبب ذلك، فحفظ القرآن كله أو بعضه بهذا المعنىٰ بركة، وتركه «**حسرة**»؛ ليس فقط البقرة، بل القرآن كله إذا تركته فهو حسرة عليك، «**ولا يستطيعها البطلة**»؛ يعني السحرة. فسورة البقرة حرز لك من الشيطان وبركة لك، وأيضًا تشفع لك يوم القيامة؛ لذلك ذكر بعض العلماء أن السبع

المثاني من القرآن هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة.

والصَّحيح أنَّ السَّبع المثاني هي سورة الفاتحة.

وقال العلماء: ينبغي لطالب العلم علىٰ الأقل أن يجتهد في حفظ هذه السبعة السور من القرآن، وطالب العلم إذا حفظ هذه السبع الطوال فما بقي فهو يسير جدًّا جدًّا في حفظه.

ومن السور التي تشفع لحافظها سورة الملك ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، قال النبي ﷺ في فضلها: «**سورة ثلاثون آية لم تزل تشفع لصاحبها حتىٰ أدخلته الجنة**»، وهكذا من حفظ بعض السور رأىٰ في نفسه قدرة علىٰ حفظ غيرها، ورأىٰ بركة ما حفظه من القرآن في عمله وفي تزكيته وفي فهمه؛ فيكون خيرًا له، فلا يزال المؤمن يحفظ أكثر وأكثر؛ لأن المؤمن لا يقضي نهمته من حفظ القرآن وتلاوته ومذاكرته وفهم معانيه، ولذا قال عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربِّكم»، وبعض العوام عندما يسمع القرآن يأتيه من الخشوع والبكاء ما يزيد في إيمانه وحرصه علىٰ حفظ القرآن وتلاوته وسماعه.

فحفظ القرآن والعمل به وتفهُّم معانيه هو أفضل وأولىٰ ما يجب في طلب العلم، قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «أعلىٰ الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسُّنَّة، والفهم عن الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ نفس المراد».

---

(١) الفوائد (ص٨٤).

علِّموا الناس بحسب طبقاتهم وقدراتهم الذهنيَّة في الحفظ والفهم، مَن عجز عن حفظ القرآن كلِّه، أو ما يكون سببًا للشفاعة له: كالبقرة وآل عمران؛ دلُّوه على ما هو أيسر له كسورة الملك، ومن بورك له في حفظ بعض القرآن ازدادت رغبته في الخير وفي تعلُّم العلم وحفظ القرآن. والإنسان لا يولد عالمًا ولا حافظًا، ولا يزال المسلم يترقى في الخير حتى يكون من الأخيار والأبرار؛ فعبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وهو ذو العلم والورع والتقوى لم يكن يقيم الليل، فرأى رؤيا أن ملكًا يسوقه إلى النار، فأخبر أخته حفصة زوج النبي ﷺ، فسألت النبيَّ ﷺ فقال ﷺ: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل**» رواه البخاري؛ فكمل نفسه بعد ذلك، وهكذا الإنسان كل يوم يتدرج في الخير، ويكمل نفسه.

هذا هو المقصود بالنصيحة للمسلمين.

قال أَنَسٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فِي أَعْيُنِنَا» الله أكبر! فهذا المعيار الذي لابُدَّ أن يكون عندنا؛ في تقييم النَّاس، وهذا المعيار ذكره النبي ﷺ؛ فالصَّحابة لم يضعوه من عند أنفسهم، وإنما هذا مقتضى حكم الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، قال النبي ﷺ: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله**»، وكان عمرو بن أبي سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يؤم قومه وهو ابن ست سنين، أو ابن سبع سنين؛ رواه البخاري لأنه أحفظهم.

ولما اضطر النبي ﷺ إلى دفن أكثر من صحابي في قبر واحد في غزوة أحد؛ لكثرة القتلى، ولما أصاب الصحابة من الجروح في المعركة، فكان يسأل: «**أيهم أكثر قرآنًا**»؟ فيقدمه في اللحد.

وهذا أيضًا حكم الله في الدار الآخرة؛ «**يقال لقارئ القرآن: اقرأ وارتقِ؛ فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها**»، والنبي ﷺ كان إذا بعث بعثًا في سفر أو غيره؛ استقرأهم، فاستقرأ أحدثهم سنًّا فقال: معي سورة كذا وكذا والبقرة. قال: «**تحفظ سورة البقرة؟**» قال: نعم. قال: «**اذهب فأنت أميرهم**». والحديث في «صحيح ابن حبان»، وهذا في السفر، والنبي ﷺ يقول في حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إن لله أهلين من الناس**»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**أهل القرآن أهل الله وخاصَّته**»؛ فاحرص علىٰ حفظ القرآن وتزكية نفسك بمعانيه وتدبره والعمل بما فيه، وهذا الذي يحصل به ما قاله شيخ الإسلام: «العصمة، والنجاة، والسعادة، وقيام الدين والدنيا».

إذًا المعيار الذي كان عليه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ هو المعيار الذي ينبغي أن نكون عليه، قيمة النَّاس ما قاموا به من القرآن حفظًا وفهمًا وعملًا.

ثم ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآيات التي تدل علىٰ وجوب طلب معاني القرآن:

قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]؛ فالقرآن لم ينزل ليهذ هذًّا فقط بدون تدبر معانيه، فالقرآن تدرك بركته بفهم معانيه، طبعًا لا يمكنك أن تدرك معاني القرآن كله في وقت واحد، لكن تطلب معانيه شيئًا فشيئًا، والقرآن والحمد لله أكثره لا يستغلق علىٰ أكثر الناس ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧]؛ يسَّر الله ألفاظه للحفظ ومعانيه للفهم، وبعض الآيات التي تستغلق عليك تقرأ معانيها في كتب التفسير أو تسأل عنها مشافهة.

وكذلك ذكر شيخ الإسلام قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ

تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]. يعني: لعلكم تفهمون وتعقلون معاني القرآن، ولذلك أُنزل بأفصح اللغات، وبأفصح لغات العرب لغة قريش، ألفاظ القرآن يسيرة، تجد يسرها في الحفظ وتجد يسرها في فهم المعنىٰ، وتجد أيضًا قوة ألفاظها بحيث إنها أقوىٰ الألفاظ، ومن رام أن يذكر معاني هذه الألفاظ في المقدار الذي أنزلت به من الجملة الواحدة يكتب جُملًا، ومع هذا لا توازي معناها، وإنما يذكر الناس بعض معناها؛ كلُّ هذا من إعجاز القرآن البلاغي، وإعجازه التشريعي أعظم؛ أي: ما فيه من أحكام تدل علىٰ كمال هذا الشرع ووجوب تحكيمه.

قال شيخ الإسلام: «وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ فَالْمَقْصُودُ مِنْهُ فَهْمُ مَعَانِيهِ دُونَ مُجَرَّدِ أَلْفَاظِهِ؛ فَالْقُرْآنُ أَوْلَىٰ بِذَلِكَ»؛ ومعاني القرآن قطعيَّة تفيد العلم واليقين، فالقرآن يفسِّر بعضه بعضًا، والنبيّ ﷺ فسَّره للصَّحابة الذين أدوا إلينا معانيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لو كان كلام الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ لا يفيد اليقين والعلم، والعقل معارض للنقل، فأي حجة تكون قد قامت علىٰ المكلفين بالكتاب والرسول ﷺ؟! وهل هذا القول إلا مناقض لإقامة حجة الله علىٰ خلقه بكتابه من كل وجه؟!».

فمعاني كلام الله أظهر بيانًا من كل كلام سواه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «العلم بمراد الله من كلامه أوضح وأظهر من العلم بمراد كل متكلم من كلامه؛

---

(١) الصَّواعق المرسلة (٢/ ٧٣٧).

(٢) الصَّواعق المرسلة (٢/ ٦٣٦، ٦٣٧).

لكمال علم المتكلم، وكمال بيانه، وكمال هداه وإرشاده، وكمال تيسيره للقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا وتلاوة، فكما بلَّغ الرسول ﷺ ألفاظ القرآن للأمة بلغهم معانيه».

إذا قرأت كتابًا فلابد أن تفهم معناه؛ فكتاب الله أولىٰ بفهم معانيه؛ لأنه هو الشرع الذي تعبدنا الله عَزَّوَجَلَّ به، ولأن فيه تزكية للنفوس وحياة للقلوب، من يتلوه ومن يحفظه والله لا يمل ولا يصيبه هم ولا حزن؛ فإن تلاوة القرآن تذهب ذلك كلَّه، فالإنسان في كل يوم تعتريه أحوال فيدفع هذه الأحوال بتلاوة كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يقول ابن القيم في «مدارج السالكين»: «لا أذهب للهمِّ من تلاوة القرآن»، والله يبعد عنكم الحزن، وهذا يكون كذلك في الدار الآخرة ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، لكن الدنيا فيها مكدرات، قال النبي ﷺ لأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**ألست تحزن يا أبا بكر، أليست تصيبك اللأواء**»، قال: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**هذه كفارة**»، ولهذا لما نزل قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، عظمت علىٰ أبي بكر وهو من خيار الصحابة، فكيف بنا نحن؟!

والمقصود أن الإنسان لا يطلب الحزن لنفسه، بل إذا كان هذا من ابتلاء الله لعبده فإنه يذهبه عن نفسه بتلاوة القرآن، فلا تجعل الحزن يستولي عليك ويقعدك عن طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وذكره ومناجاته، بل ادفعه بتلاوة القرآن وبالفرح بالله؛ هكذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد رماه الناس كلهم عن قوس واحدة: الرافضة والمعتزلة والأشاعرة والفلاسفة والمتكلمون والقبوريون، وحرشوا عليه ولي الأمر، وقال تلميذه ابن القيم في وصف حال شيخ الإسلام وتلاميذه وما ينالهم من أذىٰ المخالفين والحاسدين: إذا اشتدت بنا الخطوب أتيناه فوجدناه

أشرح الناس صدرًا.

وقد تحدَّث شيخ الإسلام عن سلاحه في مواجهة الأعباء، فقال: «أما أنا فطريقتي الفرح بالله»، تسلىٰ بمذاكرة أحوال النبيِّين - عليهم السلام - وورثتهم العلماء، ويكون هذا أيضًا من أسباب فرحك بنصرة الدِّين إذا استعملك الله في ذلك، ولا تخش شغب المبطلين؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ ينصر من ينصره: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وإذا كان العبد صادقًا مع الله عَزَّوَجَلَّ في تبيين شرع الله وحفظ الدين ومناصحة ولي الأمر وعامة الناس، وقال بالنَّصيحة للكتاب والسنَّة؛ فالله عَزَّوَجَلَّ يدافع عنه.

وحثَّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا علىٰ تفهُّم معاني كتاب الله، لأنَّه حجَّة الله علىٰ خلقه، ولأنَّ فيه تفصيل كل شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، خصوصًا صراط الله الذي أوجب الله علىٰ عباده سلوكه؛ ليحقِّقوا عبوديَّة الله ويكون ذلك هو السبب الذي يدخلون به الجنَّة.

وإذا كان يمتنع علىٰ أي قوم أن يقرءوا ما لا يفهمونه من أي كتاب، فإنَّ هذا أحرىٰ بالامتناع في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفيه تفصيل كل شيء مما يهدي إلىٰ مصالح وخيرات الدُّنيا والآخرة، ولذلك قال شيخ الإسلام:

[وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ فَالْمَقْصُودُ مِنْهُ فَهْمُ مَعَانِيهِ دُونَ مُجَرَّدِ أَلْفَاظِهِ؛ فَالْقُرْآنُ أَوْلَىٰ بِذَلِكَ.

وَأَيْضًا فَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنَ الْعِلْمِ؛ كَالطِّبِّ، وَالْحِسَابِ، وَلَا يَسْتَشْرِحُوهُ، فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ، وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؟!]

والنبيُّ ﷺ شرح معاني القرآن الذي أُوحي إليه إلىٰ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ شرحوا ذلك للتَّابعين، كما في أثر أبي عبد الرحمن السلمي الذي ذكره شيخ الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بلغوا عن النبيِّ ﷺ لفظَ القرآن ومعانيه جميعًا، كما ثبت ذلك عنهم، مع أن هذا مما يُعلم بالضرورة من عادتهم؛ فإن الرجل لو صنَّف كتاب علم في طب أو حساب أو غير ذلك، وحفظه تلامذته؛ لكان يعلم بالاضطرار أن هممهم تشوق إلىٰ فهم كلامه ومعرفة مراده، وإن بمجرد حفظ الحروف لا تكتفي به القلوب، فكيف بكتاب الله الذي أُمر ببيانه لهم، وهو عصمتهم وهداهم، وبه فرَّق الله بين الحقِّ والباطل، والهدىٰ والضلال، والرشاد والغي، وقد أمرهم بالإيمان بما أخبر به فيه والعمل بما فيه، وهم يتلقونه شيئًا بعد شيء؟! كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

---

(١) السبعينية (ص٣٣٠، ٣٣١).

وهل يتوهم عاقل أنهم كانوا إنما يأخذون منه مجرد حروفه وهم لا يفقهون ما يتلوه عليهم، ولا ما يقرؤونه، ولا تشتاق نفوسهم إلىٰ فهم هذا القول ولا يسألونه عن ذلك، ولا يبتدئ هو بيانه لهم؟! هذا مما يُعلم بطلانه أعظم مما يعلم بطلان كتمانهم ما تتوفر الهمم والدواعي علىٰ نقله».

وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنَ الْعِلْمِ؛ كَالطِّبِّ، وَالْحِسَابِ، وَلَا يَسْتَشْرِحُوهُ، فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللهِ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ، وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؟!].

هذا فيه حثٌّ من شيخ الإسلام للمسلمين بالنَّصيحة لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، قال النبيُّ ﷺ: «**الدِّين النَّصيحة، لله ولكتابه، ولرسوله، وأئمَّة المسلمين وعامَّتهم**»، رواه مسلم من حديث تميم الدَّاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أما النصيحة لكتاب الله، فشدَّةُ حبه وتعظيمُ قدره، إذ هو كلامُ الخالق، وشدَّةُ الرغبة في فهمه، وشدَّةُ العناية لتدبُّره والوقوف عند تلاوتهِ؛ لِطلب معاني ما أحبَّ مولاه أنْ يفهمه عنه، ويقوم به له بعدَ ما يفهمه، وكذلك الناصحُ من العباد يفهم وَصِيَّةَ من ينصحه، وإنْ ورد عليه كتابٌ منه؛ عُني بفهمه ليقوم عليه بما كتب به فيه إليه؛ فكذلك الناصحُ لِكتاب ربِّه، يعنىٰ بفهمه؛ ليقوم لله بما أمر به كما يحب ويرضىٰ، ثم يَنْشُرُ ما فهم في العباد، ويُديم دراسته بالمحبَّة له، والتخلُّق بأخلاقه، والتأدُّب بآدابه».

(١) جامع العلوم والحكم (ص١٠٠).

ومن آمن بالقرآن وحيًا من الله وكلامه سبحانه، وأنَّه خطاب الله إلىٰ خلقه فيما يجب عليهم اعتقاده والعمل به، ليفوزوا بالجنة؛ أقبل علىٰ تفهُّم معانيه والعمل بما فيه.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من تمام الإيمان به الإقبالُ علىٰ معرفة معانيه، والعمل بكلِّ ما دلَّ عليه؛ بالتصديق بأخباره، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه».

والقرآن مبارك، قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، والأُمَّة تُدْرِك البركة من القرآن بتفهُّمه والعمل بما فيه.

قال العلامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إذا كان ذكرًا مباركًا؛ وجب تلقِّيه بالقبول والانقياد والتَّسليم، وشكر الله علىٰ هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلُّم ألفاظه ومعانيه».

وحاجة الأمَّة إلىٰ تدبُّر معاني القرآن ضروريَّة؛ ليفهموا خطاب الله لهم، وليقيموا دينهم ودنياهم.

وقراءة القرآن بلا تدبُّر قراءة أماني، ما أقل نفعها وبركتها!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «الفقه لا يكون إلَّا بفهم الأدلَّة

---

(١) فتح الرَّحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام (ص٦٨).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٥٥٣).

(٣) الاستقامة (ص٧١).

الشَّرعيَّة بأدلَّتها السَّمعيَّة الثُّبوتيَّة من الكتاب والسُّنَّة والإجماع نصًّا واستنباطًا».

فالقرآن فيه بيان ما يجب اعتقاده، وما تعبَّدنا الله به من عبادات وأحكام، وما أرشدنا إليه من أحسن وأقوم الأخلاق، وما يحتاجه النَّاس من أمور دينهم ودنياهم، قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وقد بيَّن لنا في هذا القرآن كلَّ علم، وكل شيء.

وقال مجاهد: كل حلال وحرام.

وقول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أعمُّ وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل علىٰ كلِّ علم نافع، من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كلِّ حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم».

وعائدة حفظ القرآن وتلاوته وتفهُّم معانيه والعمل به علىٰ الفرد؛ عاجلةٌ وآجلة، فمن بركات عوائده العاجلة: انشراحُ الصدر بذكر الله بتلاوة القرآن، والاستضاءة بهديه في السَّير إلىٰ الله، وكذلك يُمتَّع حافظ القرآن بعقله، فلا يصيبه خرف.

ومن كان ملازمًا لتلاوة القرآن في آناء الليل والنَّهار؛ فإنَّ الله يختم له بخير، ويكون آخر كلامه ذكر الله الذي اعتاده في حياته.

حضرت آدم بن أبي إياس الوفاة، ختم القرآن وهو مسجًّىٰ، ثم قال: لا إله

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٥٤).

إلا الله. ثم قضىٰ[(١)].

وحضرت أبا بكر بن عيَّاش الوفاة، فجعلت أخته تبكي، فقال لها: ما يُبكيك؟ انظري إلىٰ تلك الزَّاوية، فقد ختم أخوك فيها ثمانية عشر ألف ختمة[(٢)].

ومن ثواب حفظ القرآن الآجل النَّجاة من النَّار، فعن عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لو كان القرآن في إهاب ما مسته النَّار**»، رواه أحمد.

قال العلامة أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُٱللَّهُ[(٣)]: «أراد بالإهاب قلب المؤمن وجوفه الذي وعىٰ القرآن».

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ[(٤)]: «يرجىٰ لمن القرآن محفوظ في قلبه ألا تمسَّه النَّار».

وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال**: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرءوا القرآن؛ فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**»، رواه مسلم.

ومن طلب حفظ القرآن وتفهُّم معانيه والعمل به، وقصد هداية أمَّة الإسلام لذلك، واستفرغ وسعه في تدبُّره واستنباط فوائده وتوجيه الأمَّة للأخذ به؛ فهو من أزكياء الخلق الذين تُعمَّر بهم الدِّيار، ويزكو بهم العباد، وهو من خير ورثة الرُّسل، عليهم أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٥٠٣، ٥٠٤).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢/ ٤٨٦).

(٣) فضائل القرآن (ص٢٣).

(٤) شرح السنة (٤/ ٤٣٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من المستقر في أذهان المسلمين: أن ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء هم الذين قاموا بالدين علمًا وعملًا، ودعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ والرسول ﷺ؛ فهؤلاء أتباع الرسول حقًّا، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير؛ فزكت في نفسها وزكىٰ الناس بها.

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة علىٰ الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾ [ص: ٤٥]؛ فالأيدي: القوة في أمر الله، والأبصار: البصائر في دين الله؛ فبالبصائر يُدرك الحقُّ ويُعرف، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه.

فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم، والفقه في الدِّين، والبصر والتأويل؛ ففجَّرت من النصوص أنهار العلوم، واستنبطت منها كنوزها، ورُزقت فيها فهمًا خاصًّا، كما قال أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وقد سُئل: هل خصَّكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: «لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه»، فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الذي أنبتته الأرض الطيبة».

وبتدبُّر معاني القرآن نجد أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يأمرنا فقط بتلاوة القرآن، بل أمرنا

(١) نقض المنطق (ص٧٨، ٧٩).

بتلاوته حقَّ تلاوته؛ فالشَّأن في تحقيق التِّلاوة، رزقنا الله والمسلمين إيَّاها.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التِّلاوة الحقَّة، تلاوة اللَّفظ كما أُنزل، وتلاوة المعنىٰ فيفهمه علىٰ مراد الله، وتلاوة الحكم بامتثال الأوامر واجتناب النَّواهي وتصديق الأخبار».



(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٣٥)، باختصار.

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وَلِهَذَا كَانَ النِّزَاعُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ قَلِيلًا جِدًّا].

الشَّرح:

كان النزاع بين الصحابة في عهد النبي ﷺ قليلًا جدًّا في كل شيء؛ لأن المرجعية موجودة، فكان الصحابة إذا اختلفوا في مسألة رجعوا إلىٰ النبي ﷺ، كان أحدهم إذا فهم من النص فهمًا خاطئًا رجع إلىٰ النبي ﷺ، أو إذا استبهم علىٰ أحدهم فقه آية، أو معنىٰ حديث؛ رجع إلىٰ النبي ﷺ، فالمرجع موجود؛ هذا شيء، الشيء الآخر أن الله قضىٰ كونًا أن الخلاف يكثر بعد النبي ﷺ؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتىٰ أصحابي ما يوعدون**»، رواه مسلم. لذلك عندما خشي الصحابة من الدجال من كثرة ما حذَّر منه النبيُّ ﷺ، قال: «**إن يظهر فأنا حجيجه**»، أي: أنا أكفيكم إياه ببيان ضلاله، «**وإن يظهر ولست فيكم فالله خليفتي في كل مسلم**» رواه مسلم؛ الله أكبر! إن الله إذا أستودع شيئًا حفظه؛ تولَوْا الله عَزَّوَجَلَّ، استشعروا معيته، فالله هو الحافظ وهو الكافي، وهو الناصر وهو المعين وهو الهادي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣]؛ إذًا هكذا كان الشأن في عهد النبي ﷺ كان الخلاف يسيرًا، وأيضًا كان يدفعه النبي ﷺ ببيانه فهو المرجع.

ولأن سنة الله الكونية أن الخلاف بعده ﷺ يكون أكثر، فقد قال ﷺ: «**فإنه من**

يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا»، والنبي ﷺ كان مرجعًا يبيِّن الشرع، وبعد وفاته المرجع الذي تحصل به الهداية هو الوحي الذي بُعث به، قال ﷺ: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي**»، وأحال على خاصة الصحابة الذين يؤخذ عنهم العلم، لمعرفة الحق بالرجوع إليهم فيما يقع من الخلاف؛ فقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ**»، رواه أحمد وأصحاب السنن. ثم خصَّ بعد ذلك أخص الخاصة من الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فإن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ وسألته، وأفتاها وأجابها، ثم قال لها: «**ائتي من قابل**»، قالت: أرأيت إن لم أجدك؟ قال: «ائتي أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ» رواه البخاري؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «بدائع الفوائد»: «الصحابة مرجع، والخلفاء الأربعة خاصة المرجع، وخاصة الخاصة أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ».

ولماذا كان الخلاف بعد الصحابة أكثر؟

لأن الصحابة أفصح الخلق، وأفهمهم لمعاني القرآن، ولأنهم حضروا التنزيل؛ فالآيات كانت تنزل على النبي ﷺ وهم موجودون، ويعرفون أسباب النزول ويعرفون قرائن الأحوال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الصَّحابة - رضوان الله عليهم - خير قرون هذه الأُمَّة التي هي خير أمَّة أُخرجت للنَّاس، وهم تلقَّوا الدِّين عن النبيِّ

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٨٨).

ﷺ بلا واسطة، ففهموا من مقاصده ﷺ وعاينوا من أفعاله وسمعوا منه شفاهًا ما لم يحصل لمن بعدهم».

فقرائن الأحوال هذه ما أدركناها نحن، بل رويت لنا مفصلة وفي بعض الأحيان مجملة، لكن معنىٰ ما فهمه الصحابة حُجَّة علينا من جهة أنهم أدركوا قرائن الأحوال، فأبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رأىٰ رجلًا يخرج من المسجد بعد الأذان، قال: أما هذا فقد عصىٰ أبا القاسم، رواه مسلم هذه قرائن الأحوال التي أدركها أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ولم نعرفها، فاحتمالٌ أنه قد يكون خرج وربما يريد أن يرجع، لكن علم أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه لا يريد أن يرجع.

كذلك قال النبي ﷺ في الصدقة: «لا تحلُّ لقوي ولا لغني»، وبعض الأحاديث وردت في أن النبي ﷺ أعطىٰ بعض الأقوياء؛ لذلك يقول العلماء في شرحهم لذلك: هناك قرائن أحوال جعلت النبي ﷺ يعطيهم، كيف يعطي النبي ﷺ القوي القادر علىٰ التكسب؟ نقول: الله أعلم، لعل القوي لم يكن قادرًا علىٰ التكسب، أو علم النبي ﷺ من حاله استحقاقه للصدقة أو الزكاة، أو غلب جانب حسن الظن في معاملة السائلين، أو أبىٰ علىٰ نفسه البخل.

الأمر الرابع غير حضور التنزيل وقرائن الأحوال، ومعرفة أحوال النزول، وكونهم أفصح الخلق: كون الصحابة أنصح الخلق؛ يطلبون معاني القرآن بنصيحة، تديُّنًا، ليس لهم هوًىٰ في تحريف معاني القرآن، بخلاف المبتدعة، قال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في الخوارج: «عمدوا إلىٰ آيات في الكافرين فجعلوها في

المسلمين»، رواه مسلم، وقال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الخوارج لما قالوا له: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]؛ قال: «كلمة حق أريد بها باطل» رواه مسلم، فسوء القصد يوقع في البدع والضَّلال وتحريف معاني القرآن.

والخوارج تلاوتهم للقرآن لا تجاوز حناجرهم، بلا تدبُّر، لذلك ضلُّوا في فهمه؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هم لا يفهمونه بقلوبهم، إنَّما يتلونه بألسنتهم».

وقال أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أهل البدع الخوارج الذين خرجوا علىٰ عثمان وعلىٰ عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، جعلوا آراءهم وأهواءَهم حاكمةً علىٰ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسُنَّة رسوله ﷺ وسيرة الخلفاء الرَّاشدين، فاستحلُّوا بذلك الفتنة وسفك الدِّماء، وغير ذلك من المنكرات».

والخلاف فيمن بعد الصحابة أكثر بسبب بغيهم في الخلاف؛ فيظهر الحق لكن المخالفون له يبطرونه، ويقعون بسبب ذلك في تحريف معاني القرآن والسنة.

والذي يدلُّ علىٰ وجوب تلقي معاني القرآن عن الصحابة ثم عن التابعين ثم عن تابعي التابعين؛ هو قوله ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» متفق عليه، وهذا حثٌّ علىٰ أخذ الدين عنهم.

والنبيُّ ﷺ في ذِكْره لاختلاف الأُمَّة بعده وتفرُّقها إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة،

---

(١) الصَّارم المسلول (ص١٨٥).

(٢) «جامع المسائل»، المجموعة الخامسة (ص٣٩١).

ذكر المرجع الموجب لمعرفة الصَّواب في الخلاف فقال: «**عليكم بالجماعة**»، وذكر مفهوم الجماعة ومعيار معرفة الحق فقال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»؛ إذًا هذا هو العصمة والسلامة من الخلاف الباطل والبدع والضلالات، الزم عقيدة الصحابة فهم الجماعة، ولهذا قال البربهاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «الأساس الذي تبنىٰ عليه الجماعة هم الصحابة»، فافهم الدين بفهمهم، ولذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ**﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ فبعض الخلاف سببه الخصومة في الحق، وبعضه سببه التعالم، والقول بغير علم، ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «مدارج السالكين»: «لو سكت من لا يعلم لقلَّ الخلاف»؛ لأنه لا يمكن أن يزول الخلاف كله؛ لأن الله قضاه كونًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ [هود:، ١١٨، ١١٩]، ولذلك قال قتادة وغيره من السلف: «خلق أهل رحمته لئلا يختلفوا»، وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «الخلاف شر»؛ رواه أبو داود وإسناده صحيح، وأصله في «الصحيحين».

وحديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: عندما تفرَّق الصحابة في الوادي – مع أن بواطنهم مؤتلفة وعقائدهم متفقة – قال لهم النبيُّ ﷺ: «**أرأيتم تفرقكم هذا فإنه من الشيطان**»، وفي حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**الجماعة رحمة والفرقة عذاب**»، رواه أحمد وصححه الألباني؛ لذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتاب «الاستقامة»: «السنَّة مقرونة بالجماعة، والفرقة مقرونة

بالبدعة، فيقال: أهل السنَّة والجماعة، ويقال: أهل البدعة والفرقة»؛ فالمبتدعة أوقعوا الفُرْقة في الأمَّة بما ابتدعوه من الأهواء والضلالات والبدع؛ واتباع الهوىٰ من أعظم أسباب الخلاف، وسيأتي في شرح بقية متن الكتاب ذكر بقية الأسباب.

ثم ذكر شيخ الإسلام تبليغ الصحابة معاني القرآن كله، قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «عرضت المصحف علىٰ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ثلاث مرات، أوقفه عند كل آية»، وقال قتادة: «ما من آية إلا وسمعنا فيها»؛ يعني: من الصحابة؛ يعني: تلقىٰ التابعون معاني القرآن كما تلقوا ألفاظه من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وقد كانوا يجلسون يُعلِّمون الناس عشر آيات، عشر آيات.

وتفسير مجاهد له قيمته ووزنه؛ لأنه تلقىٰ معاني القرآن من ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهو ترجمان القرآن وحبر الأمَّة، وقال أبو العالية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أخذت معاني القرآن من الصحابة».

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يمنَّ علينا بفهم كتابه والعمل بما فيه، وأن يرزق الأمة تحكيم شرع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن يهدي ولاة أمور المسلمين لتحكيم شرع الله، فالإعجاز التشريعي فيه أعظم من الإعجاز البلاغي، فأحكامه غاية في الإتقان وفي تحقيق مصالح الخلق، باليسر وبما لا يشقّ عليهم ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ١، ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧].

وبعض التابعين كان له استنباط واستدلال لمعاني القرآن؛ لأن النبي ﷺ قال: «**رب مبلَّغ أوعىٰ من سامع**»؛ فبعض الناس قد يمنُّ عليه الله باستنباطات نافعة

عظيمة، فاسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقنا فهمًا في القرآن، وكان من دعاء شيخ الإسلام ابن تيمية: «يا مفهم سليمان فهمني»، وسأل أبو جُحيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟»؛ يعني: أنت من سادات أهل البيت، فهل عهد إليك النبي ﷺ بشيء خاصٍّ في القرآن وغيره؛ فقال: «لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة» أكده بيمين «إلا رجلًا يؤتيه الله فهمًا في القرآن» رواه البخاري؛ يعني أن الناس يتفاضلون في فهم معاني القرآن، أما قرآن غير هذا أو أكثر منه بالثلثين، كما يزعم الرافضة كذبًا عن مصحف فاطمة؛ فهذا نفاه عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقد كان من أشجع الناس وأقومهم بدين الله، وقد ولي الخلافة خمس سنوات وبضعة شهور، ولم يظهر قرآنًا غير القرآن الذي تلاه هو والصحابة من قبله، وقد أثنىٰ عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ الصَّحابة في جمعه؛ فالكذب علىٰ الناس بهذا الكلام الفاسد هو تكذيب للقرآن، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وما تكفَّل الله بحفظه فلن يضيع.

وقال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **أيضًا:** «اقضوا كما كنتم تقضون فإني أكره الخلاف»؛ رواه البخاري، وهذا توجيه منه إلىٰ الأخذ بما كان عليه الخلفاء من قبله.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن تدرك هذه الأمة بركة هذا القرآن، وأن ينصرها الله عَزَّوَجَلَّ بالعمل والقيام به، وأن يرزقنا الله عَزَّوَجَلَّ الحكم به، فإن هذا القرآن أحكامه عدلٌ، والله عَزَّوَجَلَّ لا يأمر إلا بالعدل، قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وإذا كان القرآن أدَّىٰ إلينا لفظه ومعناه الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الذين تلقَّوا ذلك مباشرة عن النبي ﷺ، فلماذا افترقت الأُمَّة وظهرت فيها اثنان وسبعون فرقة مبتدعة؟

وإذا كان القرآن هدًىٰ، فلماذا ضلَّ عنه الكفَّار؟

الكفَّار اختاروا لأنفسهم الكفر، ولاح لهم الحقُّ بنور الوحي فكفروا به، فعُوقبوا علىٰ ذلك بالزَّيغ عن الحقِّ؛ لأنَّهم استكبروا عن الإيمان به، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وكانت عقوبة الله لأولئك الكافرين الذين عطَّلوا قوىٰ إدراكهم للحق - السمع والبصر والفؤاد - فكفروا بالقرآن، وآيات الله المشاهدة في الكون وفي أنفسهم؛ بأن حال بينهم وبين الإسلام لأنَّهم كفروا به ظلمًا وردًّا للحق، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٨-١٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾، فعطَّل قوَّة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أُمر به، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾، بترك التقوىٰ عن ربِّه، فعطَّل قوَّة الانكفاف والتَّرْكِ عن فعل ما نُهي عنه، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، فعطَّل قوَّةَ العلم والشُّعور عن التَّصديق

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٩٦).

بالإيمان وجزائه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾».

والمقصود أنَّ الأمم الكافرة قد أعذر الله إليها بإرسال الرُّسل - صلوات الله عليهم وسلامه -، وبالوحي الذي خاطب به الرسل أقوامهم، وقد عقلوا عن الله خطابه، وقامت عليهم الحجَّة، ولكنَّهم اختاروا الكفر علىٰ الإسلام، وهذا شأن جميع الكافرين، وخُصَّت ثمود بالذِّكر في هذا بسبب مزيد رغبتهم عن الحقِّ ومضادَّته، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وإن كان جميع الأمم المُهْلكَة هذا شأنهم؛ فإنَّ الله لم يُهْلك أُمَّة إلَّا بعد قيام الحُجَّة عليها، لكن خُصَّت ثمود من ذلك الهدىٰ والبصيرة بمزيد».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أيضًا** [(٢)]: «فكان في تخصيصهم بالذِّكر تحذيرٌ لكلِّ من عَرَف الحقَّ ولم يتَّبعْهُ، وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أَعَمُّ الأدواء وأغلبُها علىٰ أهل الأرض، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم».

فتكذيب الكافرين للنبيِّ ﷺ ليس اعتقادًا منهم بكذبه، ولكنَّه مدافعة للحقِّ؛ لحظوظ الجاه وتقليد الآباء والعناد بالباطل، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «لا يعتقدون أنَّك كاذب، ولكنَّهم يعاندون،

(١، ٢) التبيان في أيمان القرآن (ص٣٩).

(٣) التبيان في أيمان القرآن (ص٨٢).

ويدفعون الحقَّ بعد معرفته جحودًا وعنادًا».

ومن الأسباب التي ضلَّ بها الكفَّار عن الاهتداء بالقرآن والإيمان والعمل به؛ إيثار حظوظ الدُّنيا من الجاه والمال علىٰ الإسلام، وهذا سبب كفر سادات قريش؛ فإنَّهم آثروا جاههم في ملَّة الكفر علىٰ أن يكونوا تابعين في ملَّة الإسلام.

وهذا الذي ضلَّ به هرقل بعد أن عرف دلائل نبوَّة خاتم الرسل محمد ﷺ، فاختار أن يكون ملكًا في ملة الكفر علىٰ أن يكون ناصرًا في التَّوحيد والإسلام.

قال تعالىٰ: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا** ﴾ [النجم: ٢٩]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إرادتهم هوىٰ نفوسهم وعلومهم تدعو إلىٰ إرادتهم، وإرادتهم تدعو إلىٰ علومهم، فإن اتِّباع الهوىٰ يصدُّ عن الحقِّ، ويضلُّ عن سبيل الله؛ فتولَّوا عن القرآن، وآثروا عاجل الدُّنيا، وهؤلاء الذين أمر الله عَزَّوَجَلَّ رسولَه ﷺ بالإعراض عنهم بعد إقامة الحُجَّة عليهم».

وعامَّة من ضلَّ عن الحقِّ من فرق المبتدعة؛ إنَّما هو بسبب تركهم الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، قال الزُّهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان علماؤنا يقولون: الاعتصام بالسُّنَّة هو النَّجاة».

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٤٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ السنَّة والشريعة والمنهاج هو الصراط المستقيم الذي يوصل العباد إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والرسول ﷺ هو الدليل الهادي الخريت في هذا الصراط، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشورىٰ: ٥٢، ٥٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «خط رسول الله ﷺ خطًّا، وخط خطوطًا عن يمينه وشماله، ثم قال: هذا سبيل الله، وهذه سبل، علىٰ كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾».

وإذا تأمل العاقل الذي يرجو لقاء الله هذا المثال، وتأمَّل سائر الطوائف من الخوارج ثم المعتزلة، ثم الجهمية والرافضة، ومن أقرب منهم إلىٰ السنة من أهل الكلام؛ مثل الكرامية والكُلَّابية والأشعرية وغيرهم، وأن كلًّا منهم له سبيل يخرج به عما عليه الصحابة وأهل الحديث، ويدعي أن سبيله هو الصواب؛ وجدت أنهم المراد بهذا المثال الذي ضربه المعصوم الذي لا يتكلم عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ.

---

(١) نقض المنطق (ص٤٨، ٤٩).

والعجب أنَّ من هؤلاء من يصرِّح بأنَّ عقله إذا عارضه الحديث - لا سيما في أخبار الصفات - حمل الحديث علىٰ عقله وصرح بتقديمه علىٰ الحديث، وجعل عقله ميزانًا للحديث، فليت شعري هل عقله هذا كان مصرَّحًا بتقديمه في الشريعة المحمدية فيكون من السبيل المأمور باتباعه، أم هو عقل مبتدع جاهل ضال حائر خارج عن السبيل؟! فلا حول ولا قوة إلا بالله».

وعامَّة ضلال فرق المبتدعة يرجع إلىٰ عدولهم عن تفسير السَّلف، وتقديم آرائهم عليه، وتأويل معاني ألفاظ القرآن بما فهموه هم لا بما فهمه الصَّحابة الذين تلقَّوا معاني القرآن عن النبيِّ ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «عدلت المرجئة في هذا الأصل عن بيان الكتاب والسنَّة، وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان، واعتمدوا علىٰ رأيهم، وعلىٰ ما تأولوه بفهمهم اللغة، وهذه طريقة أهل البدع، ولهذا كان الإمام أحمد يقول: أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس.

ولهذا تجد المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع يفسِّرون القرآن برأيهم ومعقولهم وما تأوَّلوه من اللغة، ولهذا تجدهم لا يعتمدون علىٰ أحاديث النبيِّ والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين؛ فلا يعتمدون علىٰ السنَّة، ولا علىٰ إجماع السلف وآثارهم، وإنما يعتمدون علىٰ العقل واللغة، وتجدهم لا يعتمدون علىٰ كتب التفسير المأثورة والحديث وآثار السلف، وإنما يعتمدون

---

(١) الإيمان (ص١١٣، ١١٤).

علىٰ كتب الأدب وكتب الكلام التي وضعتها رؤوسهم، وهذه طريقة الملاحدة أيضًا، إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة وكتب الأدب واللغة، وأما كتب القرآن والحديث والآثار فلا يلتفتون إليها، هؤلاء يُعرضون عن نصوص الأنبياء؛ إذ هي عندهم لا تفيد العلم، وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبي وأصحابه، وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره في إنكار هذا وجعله طريقة أهل البدع».

والقرآن هدًىٰ، قال تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وضلَّ في فهم معانيه المبتدعةُ لسوء قصدهم في الاهتداء به، فعمدوا إلىٰ ألفاظه فحرَّفوها وغالطوا في معانيها، فجعلوا بدعهم حاكمة علىٰ كتاب الله، ولو أقبلوا علىٰ فهم معانيه بالاستعانة بالله، وقصدوا اتِّباع معانيه؛ لكانوا من المهتدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من تدبَّر القرآن طالبًا للهدىٰ منه؛ تبيَّن له طريق الحقِّ».

وضلال من ضلَّ عن الاهتداء بالقرآن إنَّما هو بعدوله عن اتِّباعه، وإلا فهو واضح الألفاظ بيِّن المعاني، أيسر الكلام في الفهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وبهذا افترقت

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ١٣٧).

الأمة إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة، بسبب عدول فرق المبتدعة عن صراط الله المستقيم إلىٰ سبل الأهواء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الكتاب والسُّنَّة يحصل منهما كمال الهدىٰ والنُّور لمن تدبَّر كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنَّة نبيِّه ﷺ وقصد اتِّباع الحقِّ، وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه».

فالقلوب هي الأساس في الهداية، متىٰ كانت القلوب سليمة آمنت بحقائق القرآن، واغتذت به علمًا واعتقادًا وعملًا، وأقبلت لتعي معاني كلام الله علىٰ مراد الله.

ومتىٰ كانت القلوب زائغة بالغرور أو قصد غير الحقِّ؛ عارضت الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بذوق، أو عقل غير صريح، أو قياس باطل، أو تقليد.

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: ٧].

والأُذُن إذا أصغت إلىٰ كلام الله بإقبال، ووعت معنىٰ ما سمعت؛ فقهت معنىٰ الآية، وكان هذا من أسباب انتفاعها بمعنىٰ ما سمعت، وأمَّا إن مرَّ كلام الله علىٰ الأذن صفحًا، فما أقلَّ انتفاع السامع منه!

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٠٢).

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا ينتفع بالموعظة من تمر علىٰ أذنيه صفحًا».

ولهذا حثَّ السلف علىٰ رعاية السَّمع بالإصغاء إلىٰ كلام الله، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إذا قيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك؛ فإما خير تؤمر به، أو شرٌّ تنهىٰ عنه»[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «قال قتادة: أُذن سمعت وعقلت عن الله ما سمعت. وقال الفراء: لتحفظها كلُّ أُذُن فتكون عظة لمن يأتي بعد.

فالوعي توصف به الأذن كما يُوصف به القلب؛ يقال: قلب واعٍ، وأُذُن واعية؛ لما بين الأذن والقلب من الارتباط. فالعلم يدخل من الأذن إلىٰ القلب؛ فهي بابه، والرسول الموصل إليه العلم، كما أن اللسان رسوله المؤدي عنه. ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب؛ علم أن الأذن أحقها أن تُوصف بالوعي، وأنها إذا وعت وعىٰ القلب».

وأعلمنا الله أنَّ الكافرين ضلُّوا عن الاهتداء بالقرآن؛ لإعراضهم عن فقه معانيه، بسبب عدم إقبالهم علىٰ تدبُّره بقصد حسن، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (ص٢٨٧).

(٢) رواه ابن أبي حاتم، وصحَّحه ابن كثير.

(٣) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٢٥).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: تغافلوا، وتعامُّوا، وتصامموا عن قبول الهدىٰ واتِّباع الحقِّ».

فالقلب له سمع يفقه ويعقل ويتدبَّر به معنىٰ ما سمع، وله إرادة يختار بها العمل بأحسن ما سمع، وله علم واعتقاد وعمل، فالقلب الملك؛ إذا صلح صلح الجسد كله.

قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يقول تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لدعوتك ويلبِّي رسالتك وينقاد لأمرك ونهيك ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الألباب والأسماع.

والمراد بالسماع هنا سماع القلب والاستجابة، وإلَّا فمجرد سماع الأُذُن يشترك فيه البرُّ والفاجر، فكلُّ المكلَّفين قد قامت عليهم حُجَّة الله تعالىٰ باستماع آياته، فلم يبقَ لهم عذر في عدم القبول».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٥٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٥٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لم يُختلف في أنَّ المراد بالقلبِ القلبُ الواعي، وأنَّ المراد بإلقاء السمع إصغاؤه وإقباله على الذكر، وتفريغ سمعه له».

وإذا كانت الآذان غير صاغية والقلوب لاهية؛ ما وعت القلوب ما تزكو به ممَّا سمعته من ألفاظ القرآن، وصار سماع القرآن في هذه الحال حُجَّة على سامعه، وبهذا زاغت أفئدة الكافرين عن الاهتداء بالقرآن.

قال تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الأنبياء: ٢، ٣].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ﴾، سماعًا تقوم عليهم به الحجة، ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾، أي: قلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبها الدنيوية».

وهذا السماع من الكافرين متحقِّق، وقد نفاه الله عنهم لعدم انتفاعهم بما سمعوه، فكانوا كمن لا يسمع؛ إذ المقصود من السماعِ الانتفاعُ بالإيمان بحقائق القرآن.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: ٣-٥].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٨٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٤٤).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، هذا نتيجة الإعراض: أنَّهم صاروا لا يسمعون، ونفي السَّماع عنهم لانتفاء فائدته، وهي الاتِّعاظ والقبول».

وقال أيضًا شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أتوا علىٰ كل مدارك الإحاطة؛ فالمدرك الأول: القلب، والثاني: السَّمْعُ، والثالث: البصر، وانتفاء البصر عنهم لقوله: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥].

وقد جمع الله تعالىٰ بين هذه الثَّلاثة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]».

وقال تعالىٰ في الكافرين: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «هذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ؛ فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان وهذا إسماع القلوب؛ فإن الكلام له لفظ ومعنًىٰ، وله نسبة إلىٰ الأذن والقلب وتعلق بهما؛ فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظُّ القلب؛ فإنه سبحانه نفىٰ عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله: ﴿مَا

---

(١) تفسير سورة فصلت (ص٢٨).

(٢) تفسير سورة فصلت (ص٣٠، ٣١).

(٣) بدائع التَّفسير (١/ ١٥٠).

يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢، ٣]، وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها.

وأما مقصود السماع وثمرته والمطلوب منه؛ فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلًا للحاضر معه: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمد: ١٦]».



ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[الْخِلَافُ بَيْنَ السَّلَفِ فِي التَّفْسِيرِ قَلِيلٌ، وَخِلَافُهُمْ فِي الْأَحْكَامِ أَكْثَرُ مِنْ خِلَافِهِمْ فِي التَّفْسِيرِ، وَغَالِبُ مَا يَصِحُّ عَنْهُمْ مِنَ الْخِلَافِ يَرْجِعُ إِلَىٰ اخْتِلَافِ تَنَوُّعٍ، لَا اخْتِلَاف تَضَادٍّ، وَذَلِكَ صِنْفَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُعَبِّرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنِ الْمُرَادِ بِعِبَارَةٍ غَيْرِ عِبَارَةِ صَاحِبِهِ، تَدُلُّ عَلَىٰ مَعْنًىٰ فِي الْمُسَمَّىٰ غَيْرِ الْمَعْنَىٰ الْآخَرِ، مَعَ اتِّحَادِ الْمُسَمَّىٰ بِمَنْزِلَةِ الْأَسْمَاءِ الْمُتَكَافِئَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمُتَرَادِفَةِ وَالْمُتَبَايِنَةِ.

كَمَا قِيلَ فِي اسْمِ السَّيْفِ: الصَّارِمُ، وَالْمُهَنَّدُ، وَذَلِكَ مِثْلُ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، وَأَسْمَاءِ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَسْمَاءِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ أَسْمَاءَ اللهِ كُلَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ مُسَمًّىٰ وَاحِدٍ.

فَلَيْسَ دُعَاؤُهُ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ مُضَادًّا لِدُعَائِهِ بِاسْمٍ آخَرَ؛ بَلِ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وَكُلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ الذَّاتِ الْمُسَمَّاةِ، وَعَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا الِاسْمُ.

كَالْعَلِيمِ يَدُلُّ عَلَىٰ الذَّاتِ وَالْعِلْمِ.

وَالْقَدِيرِ يَدُلُّ عَلَىٰ الذَّاتِ وَالْقُدْرَةِ.

وَالرَّحِيمِ يَدُلُّ عَلَىٰ الذَّاتِ وَالرَّحْمَةِ.

وَمَنْ أَنْكَرَ دَلَالَةَ أَسْمَائِهِ عَلَىٰ صِفَاتِهِ مِمَّنْ يَدَّعِي الظَّاهِرَ، فَقَوْلُهُ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ

غُلَاةِ الْبَاطِنِيَّةِ الْقَرَامِطَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا يُقَالُ: هُوَ حَيٌّ، وَلَا لَيْسَ بِحَيٍّ؛ بَلْ يَنْفُونَ عَنْهُ النَّقِيضَيْنِ؛ فَإِنَّ أُولَئِكَ الْقَرَامِطَةَ الْبَاطِنِيَّةَ لَا يُنْكِرُونَ اسْمًا هُوَ عَلَمٌ مَحْضٌ كَالْمُضْمَرَاتِ؛ وَإِنَّمَا يُنْكِرُونَ مَا فِي أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ مِنْ صِفَاتِ الْإِثْبَاتِ.

فَمَنْ وَافَقَهُمْ عَلَىٰ مَقْصُودِهِمْ كَانَ - مَعَ دَعْوَاهُ الْغُلُوَّ فِي الظَّاهِرِ - مُوَافِقًا لِغُلَاةِ الْبَاطِنِيَّةِ فِي ذَلِكَ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِ ذَلِكَ.

وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنَّ كُلَّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ ذَاتِهِ وَعَلَىٰ مَا فِي الِاسْمِ مِنْ صِفَاتِهِ، وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي فِي الِاسْمِ الْآخَرِ بِطَرِيقِ اللُّزُومِ.

وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُ: مُحَمَّدٍ، وَأَحْمَدَ، وَالْمَاحِي، وَالْحَاشِرِ، وَالْعَاقِبِ.

وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ مِثْلُ: الْقُرْآنِ، وَالْفُرْقَانِ، وَالْهُدَىٰ، وَالشِّفَاءِ، وَالْبَيَانِ، وَالْكِتَابِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

فَإِذَا كَانَ مَقْصُودُ السَّائِلِ تَعْيِينَ الْمُسَمَّىٰ؛ عَبَّرْنَا عَنْهُ بِأَيِّ اسْمٍ كَانَ، إِذَا عُرِفَ مُسَمَّىٰ هَذَا الِاسْمِ.

وَقَدْ يَكُونُ الِاسْمُ عَلَمًا، وَقَدْ يَكُونُ صِفَةً؛ كَمَنْ يَسْأَلُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ [طه: ١٢٤]، مَا ذِكْرُهُ؟

فَيُقَالُ لَهُ: هُوَ الْقُرْآنُ - مَثَلًا -، أَوْ هُوَ مَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْكُتُبِ؛ فَإِنَّ الذِّكْرَ مَصْدَرٌ، وَالْمَصْدَرُ تَارَةً يُضَافُ إِلَىٰ الْفَاعِلِ، وَتَارَةً إِلَىٰ الْمَفْعُولِ.

فَإِذَا قِيلَ ذِكْرُ اللهِ بِالْمَعْنَىٰ الثَّانِي، كَانَ مَا يُذْكَرُ بِهِ؛ مِثْلَ قَوْلِ الْعَبْدِ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ.

وَإِذَا قِيلَ بِالْمَعْنَىٰ الْأَوَّلِ؛ كَانَ مَا يَذْكُرُهُ هُوَ، وَهُوَ كَلَامُهُ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾؛ لِأَنَّهُ قَالَ قَبْلَ ذَلِكَ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]. وَهُدَاهُ هُوَ مَا أَنْزَلَهُ مِنَ الذِّكْرِ، وَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦].

وَالْمَقْصُودُ أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الذِّكْرَ هُوَ كَلَامُهُ الْمُنَزَّلُ، أَوْ هُوَ ذِكْرُ الْعَبْدِ لَهُ؛ فَسَوَاءٌ قِيلَ: ذِكْرِي كِتَابِي، أَوْ كَلَامِي، أَوْ هُدَايَ، أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ؛ كَانَ الْمُسَمَّىٰ وَاحِدًا.

وَإِنْ كَانَ مَقْصُودُ السَّائِلِ مَعْرِفَةَ مَا فِي الِاسْمِ مِنَ الصِّفَةِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ قَدْرٍ زَائِدٍ عَلَىٰ تَعْيِينِ الْمُسَمَّىٰ؛ مِثْلَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْقُدُّوسِ، السَّلَامِ، الْمُؤْمِنِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ اللهُ؛ لَكِنَّ مُرَادَهُ: مَا مَعْنَىٰ كَوْنِهِ قُدُّوسًا، سَلَامًا، مُؤْمِنًا؟ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

إِذَا عُرِفَ هَذَا، فَالسَّلَفُ كَثِيرًا مَا يُعَبِّرُونَ عَنِ الْمُسَمَّىٰ بِعِبَارَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ عَيْنِهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الصِّفَةِ مَا لَيْسَ فِي الِاسْمِ الْآخَرِ، كَمَا يَقُولُ: أَحْمَدُ هُوَ الْحَاشِرُ وَالْمَاحِي وَالْعَاقِبُ، وَالْقُدُّوسُ هُوَ الْغَفُورُ وَالرَّحِيمُ؛ أَيْ أَنَّ الْمُسَمَّىٰ وَاحِدٌ، لَا أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ هِيَ هَذِهِ الصِّفَةُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لَيْسَ اخْتِلَافَ تَضَادٍّ كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ النَّاسِ.

مِثَالُ ذَلِكَ: تَفْسِيرُهُمْ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْقُرْآنُ. أَيْ: اتِّبَاعُهُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَرَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ: «هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ».

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْإِسْلَامُ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ فِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، وَفِي السُّورَيْنِ أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، وَدَاعٍ يَدْعُو عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ. قَالَ: فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ، وَالدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ».

فَهَذَانِ الْقَوْلَانِ مُتَّفِقَانِ.

لِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ كُلٌّ مِنْهُمَا نَبَّهَ عَلَىٰ وَصْفٍ غَيْرِ الْوَصْفِ الْآخَرِ، كَمَا أَنَّ لَفْظَ صِرَاطٍ يُشْعِرُ بِوَصْفٍ ثَالِثٍ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ السُّنَّةُ وَالْجَمَاعَةُ.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ طَرِيقُ الْعُبُودِيَّةِ.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ طَاعَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ أَشَارُوا إِلَىٰ ذَاتٍ وَاحِدَةٍ؛ لَكِنْ وَصَفَهَا كُلٌّ مِنْهُمْ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهَا.

الصِّنْفُ الثَّانِي:

أَنْ يَذْكُرَ كُلٌّ مِنْهُمْ مِنَ الِاسْمِ الْعَامِّ بَعْضَ أَنْوَاعِهِ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّمْثِيلِ وَتَنْبِيهِ الْمُسْتَمِعِ عَلَى النَّوْعِ، لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْحَدِّ الْمُطَابِقِ لِلْمَحْدُودِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ.

مِثْلُ: سَائِلٍ أَعْجَمِيٍّ سَأَلَ عَنْ مُسَمَّىٰ لَفْظِ الْخُبْزِ، فَأُرِيَ رَغِيفًا، وَقِيلَ لَهُ: هَذَا. فَالْإِشَارَةُ إِلَىٰ نَوْعِ هَذَا لَا إِلَىٰ هَذَا الرَّغِيفِ وَحْدَهُ.

مِثَالُ ذَلِكَ: مَا نُقِلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

فَمَعْلُومٌ أَنَّ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ يَتَنَاوَلُ الْمُضَيِّعَ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُنْتَهِكَ لِلْمُحَرَّمَاتِ.

وَالْمُقْتَصِدُ يَتَنَاوَلُ فَاعِلَ الْوَاجِبَاتِ وَتَارِكَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالسَّابِقُ يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ سَبَقَ، فَتَقَرَّبَ بِالْحَسَنَاتِ مَعَ الْوَاجِبَاتِ.

فَالْمُقْتَصِدُونَ هُمْ أَصْحَابُ الْيَمِينِ، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، ثُمَّ إِنَّ كُلًّا مِنْهُمْ يَذْكُرُ هَذَا فِي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ؛ كَقَوْلِ الْقَائِلِ: السَّابِقُ الَّذِي يُصَلِّي فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ.

وَالْمُقْتَصِدُ الَّذِي يُصَلِّي فِي أَثْنَائِهِ، وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ الَّذِي يُؤَخِّرُ الْعَصْرَ إِلَىٰ الِاصْفِرَارِ.

وَيَقُولُ «الْآخَرُ»: السَّابِقُ وَالْمُقْتَصِدُ وَالظَّالِمُ قَدْ ذَكَرَهُمْ فِي آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْمُحْسِنَ بِالصَّدَقَةِ، وَالظَّالِمَ بِأَكْلِ الرِّبَا، وَالْعَادِلَ بِالْبَيْعِ، وَالنَّاسُ فِي الْأَمْوَالِ إِمَّا مُحْسِنٌ، وَإِمَّا عَادِلٌ، وَإِمَّا ظَالِمٌ؛ فَالسَّابِقُ: الْمُحْسِنُ بِأَدَاءِ الْمُسْتَحَبَّاتِ مَعَ الْوَاجِبَاتِ. وَالظَّالِمُ: آكِلُ الرِّبَا، أَوْ مَانِعُ الزَّكَاةِ. وَالْمُقْتَصِدُ: الَّذِي يُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَلَا يَأْكُلُ الرِّبَا. وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ.

فَكُلُّ قَوْلٍ فِيهِ ذِكْرُ نَوْعٍ دَاخِلٍ فِي الْآيَةِ، ذُكِرَ لِتَعْرِيفِ الْمُسْتَمِعِ بِتَنَاوُلِ الْآيَةِ لَهُ، وَتَنْبِيهِهِ بِهِ عَلَىٰ نَظِيرِهِ؛ فَإِنَّ التَّعْرِيفَ بِالْمِثَالِ قَدْ يَسْهُلُ أَكْثَرَ مِنَ التَّعْرِيفِ بِالْحَدِّ الْمُطْلَقِ.

وَالْعَقْلُ السَّلِيمُ يَتَفَطَّنُ لِلنَّوْعِ، كَمَا يَتَفَطَّنُ إِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَىٰ رَغِيفٍ، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا هُوَ الْخُبْزُ.

الشَّرْح:

هذا الفصل من أهم ما يكون في هذا المصنَّف في أصول التَّفسير في تبيين مقدار ونوع الخلاف بين المفسِّرين.

وبيَّن شيخ الإسلام أولًا أنَّ الخلاف في العلم عمومًا وفي التَّفسير خصوصًا في الصَّحابة قليل، واتفاقهم هو الأكثر؛ لأنَّ مصدر تلقِّيهم العلم واحد، من مشكاة المعلم والمبلِّغ عن الله عَزَّوَجَلَّ رسول الله ﷺ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)]: «إنَّه من المعلوم أنَّ الصَّحابة سمعوا القرآن من النبيِّ ﷺ، وقرءوه وأقرءوه من بعدهم، وتكلَّم العلماء في معانيه وتفسيره، ومعاني الحديث وتفسيره، وما يتعلق بالأحكام وما لا يتعلَّق بها، وهم مجمعون علىٰ غالب معاني القرآن والحديث، ولم يتنازعوا إلَّا في قليل من كثير، لا سيما القرون الأولىٰ، فإنَّ النِّزاع بينهم كان قليلًا جدًّا بالنِّسبة إلىٰ ما اتَّفقوا عليه».

---

(١) الصَّواعق المرسلة (٢/ ٦٥٣).

وفي هذا الفصل تبيين لأسباب اختلاف عبارات السلف في معاني الألفاظ، أو معاني الآيات، وهذا يحتاجه من يقرأ كتب التَّفسير ليفهم ذلك؛ لأنَّ كتب التَّفسير أنواع، منها كتب مخلِّطة تذكر أقوال أهل السُّنَّة وأقوال أهل البدعة ولا تُميِّز بينها، تسرد الأقوال سردًا؛ كتفسير ابن الجوزي «زاد المسير»، هذا لا ينبغي قراءته إلا لمحقق محرِّر يعرف أقوال أهل السُّنَّة من أقوال المبتدعة، ويعرف كيف يميِّز الأقوال الصَّحيحة من الأقوال الضَّعيفة في تفسير الآية، والأقوال المرجوحة من الأقوال الرَّاجحة، والأقوال التي تحتملها ألفاظ الآية والتي لا تحتملها، والأقوال المتَّفقة غير المتعارضة، وإنما هي في معنىً بعضها البعض، والأقوال التي هي خارجة عن قول أهل السُّنَّة؛ فابن الجوزي أحيانًا يذكر أشدّ أقوال المبتدعة ضلالًا كالجهمية مع قول أهل السنَّة، فتفسيره لا يحسن بكل أحد قراءته، لأنَّا وجدنا بعض مَن تصدَّر للتَّفسير ربَّما اعتمد على هذا التَّفسير أو غيره يلمُّ بأقوال الجهميَّة، فيجد في تفسير ابن الجوزي: أنه ممَّا قيل في تفسير ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] تفسير كرسي الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه، وهذا قول الجهمية وليس من قول أهل السُّنَّة والجماعة، فمن أسباب الخطأ في التفسير أن يهجم الإنسان على الخوض في معاني القرآن قبل أن يطلب أنواع العلوم، ومن أهمِّها علم العقيدة.

كان الصَّحابة يتورَّعون عن التَّفسير للقرآن أشدَّ التورُّع، وهذا دليل وفور إيمانهم، كان أحدهم لا يتكلَّم في تفسير آية إلَّا عن تحقُّق ومن غير تكلُّف، وكذلك التَّابعون كانوا لا يجازفون في التَّفسير، يمسكون عن التَّفسير، فماذا

تصنع أنت إذا أردت أن تتكلَّم في التَّفسير؟ تطلب أنواع العلوم التي تمكِّنك من القول في تفسير الآية بمعناها الصَّحيح، وبأقوال أهل السُّنَّة والجماعة لا بأقوال المبتدعة، فتطلب علم العقيدة كاملًا؛ تأخذه عن علماء العقيدة وقراءة كتب أهل السُّنَّة والجماعة، وتطلب الفقه؛ فتعرف الأحكام، وتطلب القواعد الفقهية، وتطلب أصول الفقه لتفسِّر آيات الأحكام، وتطلب أيضًا علم النحو، وتطلب أيضًا معاني الألفاظ والحروف، كل هذا ممَّا يعينك علىٰ التَّفسير؛ أما أن تهجم علىٰ التَّفسير بمجرَّد أنك أخذت شهادة لغة، هذا غير كافٍ، أو بمجرَّد قراءة الكتب من غير مشافهة للعلماء؛ تَضِلُّ، وتُضِلُّ، القرآن ليس كلُّه ممَّا تأخذه بخاصَّة نفسك، لابد أن تقرأه علىٰ عالم، وتطلب معانيه من العلماء، والإنسان إذا سلك الطَّريق الذي أُمر به في تفسير القرآن يسَّر الله عَزَّوَجَلَّ له قولَ الحقِّ، ومَن تكلَّف ما ليس له به علم ولو أصاب الحق كان مخطئًا؛ لأنَّه منهي عن سلوك هذا الطَّريق بحيث يتكلَّم في كتاب الله بغير علم، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «**من قال في القرآن برأيه، فأصاب؛ فقد أخطأ**».

عندما تقرأ كتب التَّفسير التي تجمع أقوال أهل السُّنَّة مع أقوال غيرهم، وأقوال المبتدعة مع أهل السُّنَّة، والأقوال الضَّعيفة مع الأقوال الصَّحيحة؛ لابُدَّ حينئذ من تحرير الأقوال، وطلب الصَّحيح من المعاني، وهذا لا يكون إلَّا بطلب ذلك مشافهةً عن علماء السُّنَّة المفسِّرين، وقراءة كتب علماء أهل السنَّة المحققين الذين يحرِّرون الأقوال؛ كتفسير العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إذا أتيت إلىٰ كتب تفسير أهل السُّنَّة والجماعة للعلماء المحققين؛ كتفسير

الحافظ الطَّبري، وهو شيخ المفسِّرين، وتفسير الحافظ ابن كثير، وتفسير شيخ الإسلام المجموع من مجموع كلامه الموجود في مصنَّفاته؛ تجد تفسير الآية محرَّرًا، يُسندون الأقوال إلىٰ الصَّحابة والتَّابعين، ثم الأقوال عن التَّابعين تجدها متنوِّعة، لكن هذا التنوُّع كما قال شيخ الإسلام في بداية هذا الفصل: اختلاف تنوُّع وليس اختلاف تضاد، يعني: القول لا يخالف القول الآخر، طيب كيف تأتلف هذه الأقوال وكيف تفهمها أنت؟ الجواب جاء من شيخ الإسلام وهو الخبير المطلع علىٰ التَّفاسير، والذي كان يقول: إني لا أقول في تفسير الآية إلا بعد أن أقرأ فيها أكثر من ثلاثمائة تفسير أو نحو ذلك؛ يعني: تفسيره عن تحرير وعن مقابلة كلِّ الأقوال، ومعرفة هذه الأقوال علىٰ ماذا خرجت.

فالتَّفسير المنقول عن الصَّحابة والتَّابعين تجد غالب ما ينقل في ذلك عن ابن مسعود، وعن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وابن عبَّاس أخذ التَّفسير عن عمر وعليٍّ وأبيِّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أعلم الصَّحابة بالقرآن، وزيد بن أسلم أخذ التَّفسير عن أسلم أبيه، عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومجاهد وسعيد بن جبير وطاوس وعكرمة وجماعة من التَّابعين أخذوا تفسيرهم عن ابن عبَّاس، وأبو العالية وقتادة أخذا التفسير عن الصَّحابة؛ فإذن هؤلاء كلُّ أقوالهم في الغالب تجدها مؤتلفة، لكن الذي لا يحسن تدبُّر ذلك يظن أن هذا كلَّه اختلاف تضاد؛ نقول: هذا اختلاف تنوُّع. فالشأن أن تجمع هذه العبارات وتستفيد منها المعنىٰ المؤتلف بحسب ما ورد في عبارات السلف من التفسير بالمثال واللازم، وبالعبارة الجامعة لكل معاني لفظ الآية.

كل واحد من السلف ذكر معنًىٰ في المسمَّىٰ، قال النبي ﷺ في السُّنَّة: «**أوتيت جوامع الكلم**» متفق عليه، هذا شأن ألفاظ الوحي؛ يعني كلمات يسيرة لكنَّها دالَّة علىٰ معانٍ كثيرة، فيأتي بعض السَّلف فيفسِّر بعض معنىٰ الآية، ولا ينفي المعنىٰ الآخر الذي هو من معاني الآية، يذكر المعنىٰ من باب تبيينه، وليس من باب الحدِّ الجامع لمعنىٰ اللفظة أو معنىٰ الآية؛ فتجد كل هذه العبارات عن الصَّحابة والتَّابعين تأتلف في معناها، ويأتون بألفاظ أيضًا متقاربة، لا نقول: مترادفة؛ لأنَّ الألفاظ المترادفة قليلة، وليس هناك لفظ يؤدي معنىٰ اللفظ الآخر تمامًا من كل وجه، وإنَّما ألفاظ متقاربة.

فمن هنا قال شيخ الإسلام: (بِمَنْزِلَةِ الْأَسْمَاءِ الْمُتَكَافِئَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمُتَرَادِفَةِ وَالْمُتبَايِنَةِ. كَمَا قِيلَ فِي اسْمِ السَّيْفِ)، يعني: إذا قيل السَّيف عُرف، وإذا قيل الصَّارم عُرف، وإذا قيل المهنَّد عرف؛ فكل هذه الألفاظ من معاني السَّيف، وهي ألفاظ متقاربة، وكذلك القرآن: نعته الله بأنَّه قرآن، وأنَّه كلامه عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه فرقان، وأنَّه شفاء؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ [التوبة: ٦]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا [(١)]﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال أيضًا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفرقان متضمِّن للنجاة، والنَّصر، والعلم، والنُّور الفارق بين الحقِّ والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب»، التبيان في أيمان القرآن (ص٩٠).
فالقرآن فرقان من أخذ به علىٰ مراد الله عَزَّوَجَلَّ عرف الحق ونصره، قال تعالىٰ: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾.

ﱡﭐ ﭐﭐالْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﱠ [الإسراء: ٨٢] فسمَّاه الله شفاءً، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. إذن هو قرآن، وهو شفاء، وهو فرقان، فإذا ذكر أحد العلماء القرآن؛ دلَّ علىٰ أنَّه هو الفرقان، ودلَّ علىٰ أنَّه هو الشِّفاء، ودلَّ علىٰ أنَّه كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهذه كلُّها معانٍ لاسم القرآن.

كذلك أسماء الله الحسنىٰ كثيرة، وليست محصورة في تسعة وتسعين اسمًا، لكنَّه جاء في فضل من أحصاها دخول الجنَّة، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**لله تسعة وتسعون اسمًا من أحصاها دخل الجنَّة**» متَّفق عليه، يعني: من حفظها وعمل بمقتضاها دخل الجنَّة، وهذا لا يقتضي أنه ليس لله أكثر من تسعة وتسعين اسمًا، بل له أكثر من ذلك؛ لكماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك كان من جملة دعاء النبي ﷺ: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»؛ فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ لله عَزَّوَجَلَّ أكثر من تسعة وتسعين اسمًا، لكن كل اسم يدلُّ علىٰ ذات الله عَزَّوَجَلَّ، ويدلُّ علىٰ صفة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ، لكن إذا قيل: الله؛ فهو الاسم الذي ترجع إليه معاني كل الأسماء الحسنىٰ، وإذا قيل: الرَّحمن؛ أفاد معنىٰ الرَّحمة، وإذا قيل: الرَّحيم؛ أيضًا أفاد معنىٰ الرَّحمة، لكن الرحمن لكل مخلوق، مسلم وكافر، والرَّحيم خاص بالمؤمنين؛ فهو أخصُّ من الرَّحمن، وإذا قيل: القدير؛ أفاد معنىٰ القدرة التي يخلق الله عَزَّوَجَلَّ بها ما يشاء، إذا قيل: السَّميع، أفاد معنىٰ إدراك المسموع كما يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كل هذه أسماء لله حسنىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فاملأ قلبك من تعظيم

الله عَزَّوَجَلَّ إذا قرأت شيئًا من أسماء الله الحسنىٰ أو تليت عليك أسماء الله الحسنىٰ.

وأسماء الله الحسنىٰ كل اسم منها يدلُّ علىٰ صفة، فالعليم يدلُّ علىٰ صفة العلم، والقدير يدلُّ علىٰ صفة القدرة، فأسماء الله الحسنىٰ هي أعلام وأوصاف أعلام، وليست أسماءً جامدة، وإنما تدلُّ علىٰ معانٍ عظيمة، وهذا الباب ضلَّ فيه فرقتان: الجهميَّة التي نفت الأسماء والصِّفات فقالوا: الله عَزَّوَجَلَّ ليس بسميع وليست له صفة السَّمع. والمعتزلة وقالت: نثبت لله الأسماء دون الصِّفات، فنثبت أنَّه سميع، وأنَّه بصير، ولا نثبت له صفة السَّمع ولا صفة البصر. وقد وافق المعتزلة في قولهم ابن حزم مع أنَّه ينتسب إلىٰ الظاهر، وكان الأولىٰ به أن يأخذ عقيدته كما يقتضيه ظاهر معاني أسماء الله الحسنىٰ.

ابن حزم مع الأسف في الاعتقاد ليس سلفيًّا كما يتوهم البعض؛ فإنه في باب الأسماء والصفات معتزلي، يقول: نثبت الأسماء دون الصِّفات، وفي باب مسائل الإيمان فإنه مرجئ في كتابه «الدُّرة في الاعتقاد»، يقول: الإيمان في القلب لا يتفاضل. وله أمور في الاعتقاد خطيرة، لذلك هو لا يُتلقَّىٰ عنه العلم مباشرة كما يفعل بعض من ينتسب إلىٰ علم الحديث، يذهب مباشرة إلىٰ كتب ابن حزم ويتتلمذ عليها، فيضلُّ بسبب تلقِّيه عن ابن حزم؛ لذلك حذَّر العلَّامة المجدِّد ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ في الكتاب المطبوع عن محاضراته «حديث المساء»، وهي المحاضرات التي كان يلقيها في جامع الإمام تركي بن عبد الله في الرياض؛ حذَّر من تلقِّي العلم عن ابن حزم، كذلك في الأحكام في الفقه ينفرد ابن حزم بمسائل يخالف فيها عامَّة السلف، فالمقصود أنك ما تأتي إلىٰ ابن حزم وتأخذ ظاهريَّته،

وهي ظاهريَّة غير محمودة ولا يقتضيها ما ظنَّه من ظاهر اللَّفظ وخالف فيه مقتضىٰ اللَّفظ وظاهره المقصود، فهو ظاهر مغلوط وليس ظاهرًا مقصودًا من معنىٰ النصِّ الذي فهمه السَّلف من الصَّحابة والتَّابعين.

وهناك فرقة انحرفت في عقيدة أسماء الله وصفاته الحسنىٰ، وهي فرقة الأشاعرة، يثبتون بعض الأسماء دون بعض، ويثبتون بعض الصفات دون بعض، وتفصيل هذا كما قال شيخ الإسلام موضع آخر.

فالمقصود أيضًا أنّه ما ذكرنا من أسماء الله الحسنىٰ الرَّحمن والرَّحيم، والسَّميع والبصير، كل هذه أسماء لذاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن كل اسم له معنًىٰ يفيده غير المعنىٰ الذي يفيده الاسم الآخر، فعندما ينعت اللهَ عَزَّوَجَلَّ بعضُ من يكتب في التَّفسير، أو بعضُ من يتكلَّم في أسماء الله الحسنىٰ ويقول: هو سميع، وهو بصير. هو مصيب في ذلك إذا أمرَّ هذه النصوص علىٰ ظاهرها كما جاءت؛ فهو الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الرَّحمن، وهو الرَّحيم، وهو السَّلام الذي سلم من كل نقص، وهو القدوس المنزّه من كل شر وعيب، وهو المؤمن الذي يصدِّق ظنون عباده؛ كما قال النَّبي ﷺ فيما يرويه عن ربِّه: «**أنا عند حسن ظن عبدي بي**»، وهو الذي يؤمِّن عباده المؤمنين به من الخلود في النَّار، إلىٰ غير ذلك من معاني أسماء الله الحسنىٰ، كل اسم له دلالة علىٰ مقتضًىٰ، وهو أيضًا دالٌّ علىٰ ذات الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

لذلك قال شيخ الإسلام: (وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنَّ كُلَّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ ذَاتِهِ وَعَلَىٰ مَا فِي الِاسْمِ مِنْ صِفَاتِهِ)، وطبعًا بعض الصِّفات أو بعض الأسماء تدلُّ

علىٰ معانٍ لعدة أسماء وصفات، لذلك قال شيخ الإسلام: (وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي فِي الِاسْمِ الْآخَرِ بِطَرِيقِ اللُّزُومِ)، كما في قوله تعالىٰ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]، فقدرته تدلُّ أيضًا علىٰ علمه وإرادته، فهي التي خلق بها السموات والأرضين وما فيهن وكل مخلوق.

كذلك أسماء النَّبي ﷺ متعددة وذاته واحدة، قال: «**أنا محمَّد، وأنا أحمد**»، ومحمَّد محمود لكثرة خصال الخير فيه وكثرة الحامدين له، وهو أحمد من غيره يعني لكثرة خصال الخير فيه، فحمد الناس له أكثر من غيره صلوات الله وسلامه عليه، وهو الماحي الذي محا الله به الكفر؛ فبعثه الله علىٰ فترة من الرسل، وتبدَّل الأديان، وحُرِّفت التوراة والإنجيل، بعثه الله عَزَّوَجَلَّ بتجديد ملَّة إبراهيم، وبعثه بالحنيفية السَّمحة - صلوات الله وسلامه عليه - فمحا الله به الكفر، وهو الحاشر الذي يحشر النَّاس علىٰ قدمه يوم القيامة، وبعثته فيها تذكير بالبعث والحساب، واليوم الآخر؛ لأنَّه من علامات السَّاعة الصُّغرىٰ، قال ﷺ: «**بُعثت بين يدي السَّاعة كهاتين**»، فإذا كان هو من علامات السَّاعة الصُّغرىٰ، فأيضًا من أسمائه أنَّه الحاشر؛ لأنَّه يوم المحشر يُحشر النَّاس علىٰ قدمه، وأيضًا تأتي الخلائق إليه ليشفع لهم إلىٰ ربِّهم في أن يقضىٰ بينهم، وهو العاقب الذي عقب كل النبيين عليهم السلام، وكان خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليه.

قال شيخ الإسلام: إذا كان المقصود هو المسمَّىٰ فجاء المفسرون من الصَّحابة والتَّابعين وكلُّهم بيَّن معنىٰ المسمَّىٰ بأحد معانيه، فهو لا ينفي المعنىٰ

الآخر الذي ذكره غيره.

وأيضًا ما قيل في معنىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، يعني: من أعرض عن ذكر الله، الذِّكْر يراد به القرآن كله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فُصِّلَت: ٤١، ٤٢]، فهؤلاء كفَّار، ومن أعرض عن ذكره أيضًا لا يذكره لكفره؛ لأنَّه لو كان مؤمنًا لكان يذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما صفة المنافقين ﴿لَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢]، وصفة المؤمنين ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، ومن آكد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الصَّلوات الخمس المفروضة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾ [طه: ١٤]: من لم يقم ذكر الله عَزَّوَجَلَّ بالصلاة؛ فهو كافر بالذِّكْر الذي أوحي إلىٰ النبي ﷺ الذي هو القرآن والسنَّة؛ فهناك من يكون كفره كفر تكذيب، وهناك من كفره كفر تولٍ، لا ينقاد إلىٰ الطَّاعة ولا يذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يقيم ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الذي أمره الله به.

قال شيخ الإسلام: (فَالسَّلَفُ كَثِيرًا مَا يُعَبِّرُونَ عَنِ الْمُسَمَّىٰ بِعِبَارَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ عَيْنِهِ) كما قيل في معنىٰ الصراط المستقيم، قال بعضهم: هو شرع الله، وبعضهم قال: هو القرآن، وبعضهم قال: هو ما بيَّنه النَّبي ﷺ لأُمَّته كيف يتعبَّدون لله عَزَّوَجَلَّ، يعني طريق العبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ، وهذه الألفاظ كلُّها بمعنًىٰ واحد، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، والصِّراط المستقيم هو كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ.

وذكر شيخ الإسلام أنَّ بعض العلماء أحيانًا يذكر مثالًا يفسِّر به لفظ الآية،

يعني: يذكر من الاسم العام بعض أنواعه، لا علىٰ سبيل الحدِّ المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه، لماذا يفعل هذا؟ يقول: لأن هذا أيسر في الفهم، وإنما ذكر مثالًا ونوعًا وفردًا لتعريف المتعلم بتناول الآية لأنواعه وتنبيهه علىٰ نظائره، فإنه بالمثال قد يسهل الفهم أكثر من التَّعريف بالحد المطابق، وأنت إذا عرفت المثال عرفت المعنىٰ العامَّ للَّفظة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ عادة السلف في تفسيرهم هكذا، يذكر الرجل نوعًا من أنواع المسمىٰ لحاجة المستمع إليه، أو لينبِّه به علىٰ الجنس».

مثال آخر: العبادة، بعض العلماء يفسِّرها، يقول: الصَّلاة، وبعضهم يقول لك: الزَّكاة؛ لأن الزَّكاة عبادة، وبعضهم يقول لك: الحجُّ، لأن الحج عبادة، وبعضهم يقول لك: الصِّيام، لأن الصِّيام عبادة، وبعضهم يقول لك: ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، كلُّ هذه الأقوال اختلاف تنوُّع، وهي من باب التَّفسير بالمثال الذي يدلُّ علىٰ المعنىٰ العام.

والحدُّ العام الذي يجمع عمومه وخصوصه وكل أفراده عبارة شيخ الإسلام حيث قال: «هو اسم جامع لكل ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظَّاهرة والباطنة». فموالاة الإسلام والمسلمين، وكراهية الكفر والفسوق والعصيان، والتوكل علىٰ الله، هذه من علم واعتقاد وعمل القلب، والأعمال الظَّاهرة مثل الصَّلاة؛ فبعض العلماء أحيانًا يختار التعريف بالمثال لأنَّه أيسر في

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٨١).

الفهم، والأفضل في ذلك أن يذكر المعنىٰ الكلي وأمثلة لأنواعه، فالعلماء منهم من يذكر اللَّفظة التي تجمع كل أفراد النوع، وبعضهم يذكر مثالًا لذلك، وبعض العلماء يفصِّل في أنواع المعنىٰ بحسب ما يجمع كل أنواعه تفصيلًا ينبِّه إلىٰ كل أفراده، باعتبار كل تقسيم يمكن أن يدلُّ عليه اللَّفظ.

مثال: قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**﴾ [الأعراف: ٥٦]، قال ابن القيم في «بدائع الفوائد»: الصَّلاح هو التَّوحيد، والفساد هو الشِّرك. نأتي إلىٰ تفسير العلَّامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: لا تفسدوا بالشِّرك والبدع والذُّنوب، الثلاثة هي تفصيل للنَّوع الأوَّل؛ لأنَّ كل فروع كلمة التَّوحيد هي كل الأعمال الصَّالحة، والتي هي موافقة للشَّرع والسُّنَّة، وضد التَّوحيد والصَّلاح الشِّرك، وكل فروع الشِّرك منها ما هو من البدع ومنها ما هو من المعاصي، فعندما يأتي تفسير ابن القيم ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**﴾ بالشِّرك، إذن هذا هو تبيين لمعنىٰ الفساد الكلي، وما يندرج تحته.

لذلك قال العلماء في شرائع الإسلام: إنَّها تفصيل لكلمة التَّوحيد. وهذا من توفيق الله للعلماء الذين يعرفون العبارات الجامعة التي تجمع مفهوم اللَّفظة الشَّاملة، بحيث إنه ينبِّهك أنت علىٰ فهم هذه الألفاظ التي ربما لم تفهم منها إلَّا نوعًا خاصًّا، مثلًا بعض النَّاس ربَّما لا يفهم من الجهاد إلَّا جهاد السَّيف، وكنَّا نفهم أيضًا من قوله ﷺ: «**من مات ولم يغز ولم يحدِّث نفسه بالغزو؛ مات علىٰ شعبة من نفاق**» رواه مسلم، كنَّا نظن أن مفهوم الحديث أن الذي لا يجاهد بالسَّيف أو الذي لا يحدِّث نفسه بالجهاد بالسَّيف؛ هو فقط المقصود بمعنىٰ

الحديث، وفي شرح الحديث بالمفهوم العام الذي ذكره شيخ الإسلام قال: «**من مات ولم يغز ولم يحدِّث نفسه بالغزو**»؛ قال: الجهاد هو تحقيق كون المؤمن مؤمنًا، يعني: أن يأتي المسلم بكل أنواع شعب الإيمان، ومن جملة ذلك الجهاد بالسيف في سبيل الله؛ لذلك قال النبي ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله**»، وانظر للمعنىٰ الجامع الذي بيَّنه العلامة عبد الرَّحمن السِّعدي، قال: الجهاد نوعان: نوع يقصد به إصلاح المسلمين في شؤونهم الدِّينية والدُّنيويَّة والعلمية والعمليَّة، والتَّربويَّة؛ فذلك أصل الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النَّوع الثَّاني جهاد الكفَّار.

وقال ابن القيم في معنىٰ الجهاد العام: هو بذل الجهد في طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولذلك قال النبي ﷺ فيمن خرج في طلب العلم: «**فهو في سبيل الله حتىٰ يرجع**»، وإنما أردنا بهذا معرفة قدر كل من يقوم بالجهاد، سواء بالعلم والتَّعليم، أو الجهاد بالسَّيف، أو الجهاد بالمال، ومعلوم أن الجهاد بالمال قدَّمه الله علىٰ الجهاد بالنَّفس في كل مواضع القرآن إلا في موضع واحد في سورة التَّوبة، قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١]. وبهذا نعرف تكامل الأُمَّة بحيث إنَّها تقوم بمجموع ما أمرت به، ولذلك الفروض نوعان: فروض كفاية إذا قام به بعض الأمَّة؛ درءوا الإثم عن باقي الأمَّة، وحفظوا هذا الشيء الذي أمر الله به من تعليم أو جهاد، أو دعوة؛ طبعًا دعوة علىٰ علم وعلىٰ منهج الأنبياء وليس علىٰ مضادة منهج الأنبياء ومنع تعليم التَّوحيد.

وبهذا نعرف فضل من يؤدِّي الجهاد أيضًا الذي يأمن به النَّاس؛ لأننا نحن نأمن بسبب جهاد الذين يحفظون ثغورنا من أعدائنا، قال العلَّامة أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: حسنات الآمنين في الأمصار كلُّها في ميزان حسنات المرابطين في حفظ الثُّغور. ولذلك الله سبحانه ينمِّي للمرابط أجره إلىٰ يوم القيامة، طبعًا هذا إذا احتسب النيَّة أنَّه يحفظ ثغور المسلمين ليأمن المسلمون، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

ثم ذكر شيخ الإسلام مثالًا من تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالظالم لنفسه هو الذي غلبت سيئاته حسناته، أو أتىٰ بالمحظور وفعل أيضًا المأمور، والمقتصد هو الذي استوت حسناته وسيئاته، والسابق بالخيرات هو الذي رجحت حسناته علىٰ سيئاته، أو هو من استبق الخيرات فأتىٰ بالواجبات والنوافل والمستحبات، وهذا من معنىٰ من فسَّر السَّابق بالذي يصلِّي في أوَّل الوقت، هذا نوع أو مثال لاستباق الخيرات، وإلَّا فهو عام لاستباق كل خير، سواء في الصلاة أو الجهاد، أو في طلب العلم، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو في النصيحة للمسلمين، أو في التعليم، فهو عامٌّ لكل أنواع البرّ.

وهذه الآية مطابقة لمعنىٰ الآية التي في سورة الواقعة في ذكر أصناف النَّاس: المقربين وهم السَّابقون، وأصحاب اليمين وهم المقتصدون، وأصحاب الشمال وهم الكفَّار، والقرآن يفسِّر بعضه بعضًا، فـ(الظلم) يُراد به الشِّرك والكفر

المحبط للأعمال، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ويُراد بالظلم فروعه من المعاصي، فمن ظلم نفسه من الموحدين المؤمنين وخلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا؛ فهؤلاء لا يخلدون في النَّار، فإن لم تُكفر سيئاتهم فإنَّهم يُعذَّبون في النَّار بمقدار سيئاتهم حتىٰ ينقوا منها ثم يدخلون الجنة، ومن كُفرت سيئاته بالتوبة والاستغفار والحسنات الكثيرة وغيرها من مكفرات الذنوب؛ فهؤلاء يدخلون الجنة من غير أن يسبقه دخول النار، قال الله تعالىٰ في شأن هؤلاء المسلمين: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢]، ختم الله الآية باسمين يدلان علىٰ الحكم ويعينانه وهو الغفور الرحيم.

من استوت حسناته وسيئاته، فإنّه يُحبس أولًا عن دخول الجنة ثم يدخلها بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لأنَّ رحمة الله سبقت غضبه، وهذا أرجح الأقوال في حال أصحاب الأعراف، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فما دخلوا الجنة مع من دخلها من البداية، وهذا نوع من العذاب ولم يدخلوا النار، وكانوا يخشون أن يكونوا من أهل النَّار، وجعل الله في قلوبهم الطَّمع لدخول الجنَّة؛ قال الحسن البصري: ما جعل الله عَزَّوَجَلَّ في قلوبهم هذا الطَّمع وأخبرنا بذلك إلَّا ليكرمهم بدخول الجنَّة.

وقال العلَّامة عبد الرَّحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: إن الله عَزَّوَجَلَّ رحمته سبقت غضبه، وأيضًا جاء في رواية: «**ورحمتي غلبت غضبي**»، رواها مسلم، ومَنْ رحمته سبقت غضبه لا شك أنَّه سيغفر لأصحاب الأعراف وسيدخلهم الجنَّة.

والمقصود من هذا المبحث أن يُحرِّر طالب العلم معاني المسمِّيات الواردة في عبارات السَّلف في تفسيرهم لألفاظ الوحي، وهذا هو حقيقة الفقه، وهو معرفة معاني الألفاظ ودلالتها علىٰ الأحكام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الاستدلال بكلام الشارع يتوقف علىٰ أن يُعرف ثبوت اللفظ عنه، وعلىٰ أن يُعرف مراده باللفظ.

وإذا عرفنا مراده: فإن علمنا أنَّه حكم للمعنىٰ المشترك، لا لمعنًىٰ يخصُّ الأصل؛ أثبتنا الحكم حيث وُجد المعنىٰ المشترك.

وإن علمنا أنَّه قصد تخصيص الحكم بمورد النص؛ منعنا القياس».



---

(١) الفتاوىٰ (١٩/ ٢٨٦، ٢٨٧).

ثم قـال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وَقَدْ يَجِيءُ كَثِيرًا مِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ: هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي كَذَا، لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ الْمَذْكُورُ شَخْصًا، كَأَسْبَابِ النُّزُولِ الْمَذْكُورَةِ فِي التَّفْسِيرِ.

كَقَوْلِهِمْ: إِنَّ آيَةَ الظِّهَارِ نَزَلَتْ فِي امْرَأَةِ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ.

وَإِنَّ آيَةَ اللِّعَانِ نَزَلَتْ فِي عُوَيْمِرٍ الْعَجْلَانِيِّ أَوْ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ.

وَإِنَّ آيَةَ الْكَلَالَةِ نَزَلَتْ فِي جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ.

وَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، نَزَلَتْ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ.

وَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٦]، نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ.

وَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المائدة: ١٠٦]، نَزَلَتْ فِي قَضِيَّةِ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَّاءٍ.

وَقَوْلَ أَبِي أَيُّوبَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، «نَزَلَتْ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ...» الْحَدِيثَ.

وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرٌ مِمَّا يَذْكُرُونَ أَنَّهُ نَزَلَ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، أَوْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، أَوْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَالَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ لَمْ يَقْصِدُوا أَنَّ حُكْمَ الْآيَةِ مُخْتَصٌّ بِأُولَئِكَ الْأَعْيَانِ دُونَ غَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ وَلَا عَاقِلٌ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ.

وَالنَّاسُ وَإِنْ تَنَازَعُوا فِي اللَّفْظِ الْعَامِّ الْوَارِدِ عَلَىٰ سَبَبٍ، هَلْ يَخْتَصُّ بِسَبَبِهِ أَمْ لَا؟ فَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُمُومَاتِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَخْتَصُّ بِالشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ؛ وَإِنَّمَا غَايَةُ مَا يُقَالُ: إِنَّهَا تَخْتَصُّ بِنَوْعِ ذَلِكَ الشَّخْصِ؛ فَيَعُمُّ مَا يُشْبِهُهُ، وَلَا يَكُونُ الْعُمُومُ فِيهَا بِحَسَبِ اللَّفْظِ.

وَالْآيَةُ الَّتِي لَهَا سَبَبٌ مُعَيَّنٌ، إِنْ كَانَتْ أَمْرًا وَنَهْيًا؛ فَهِيَ مُتَنَاوِلَةٌ لِذَلِكَ الشَّخْصِ وَلِغَيْرِهِ مِمَّنْ كَانَ بِمَنْزِلَتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ خَبَرًا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ؛ فَهِيَ مُتَنَاوِلَةٌ لِذَلِكَ الشَّخْصِ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ كَانَ بِمَنْزِلَتِهِ أَيْضًا.

وَمَعْرِفَةُ سَبَبِ النُّزُولِ يُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِ الْآيَةِ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالسَّبَبِ يُورِثُ الْعِلْمَ بِالْمُسَبَّبِ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَصَحُّ قَوْلَيِ الْفُقَهَاءِ: أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُعْرَفْ مَا نَوَاهُ الْحَالِفُ؛ رُجِعَ إِلَىٰ سَبَبِ يَمِينِهِ وَمَا هَيَّجَهَا وَأَثَارَهَا.

وَقَوْلُهُمْ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي كَذَا. يُرَادُ بِهِ تَارَةً أَنَّهُ سَبَبُ النُّزُولِ، وَيُرَادُ بِهِ تَارَةً أَنَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي الْآيَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ السَّبَبَ، كَمَا تَقُولُ: عُنِيَ بِهَذِهِ الْآيَةِ كَذَا.

وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي قَوْلِ الصَّاحِبِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي كَذَا؛ هَلْ يَجْرِي مَجْرَىٰ الْمُسْنَدِ كَمَا يُذْكَرُ السَّبَبُ الَّذِي أُنْزِلَتْ لِأَجْلِهِ، أَوْ يَجْرِي مَجْرَىٰ التَّفْسِيرِ مِنْهُ الَّذِي لَيْسَ بِمُسْنَدٍ؟

فَالْبُخَارِيُّ يُدْخِلُهُ فِي الْمُسْنَدِ، وَغَيْرُهُ لَا يُدْخِلُهُ فِي الْمُسْنَدِ، وَأَكْثَرُ الْمَسَانِدِ عَلَىٰ هَذَا الِاصْطِلَاحِ، كَمُسْنَدِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ؛ بِخِلَافِ مَا إِذَا ذَكَرَ سَبَبًا نَزَلَتْ عَقِبَهُ؛ فَإِنَّهُمْ كُلَّهُمْ يُدْخِلُونَ مِثْلَ هَذَا فِي الْمُسْنَدِ.

وَإِذَا عُرِفَ هَذَا، فَقَوْلُ أَحَدِهِمْ: نَزَلَتْ فِي كَذَا؛ لَا يُنَافِي قَوْلَ الْآخَرِ: نَزَلَتْ فِي كَذَا. إِذَا كَانَ اللَّفْظُ يَتَنَاوَلُهُمَا، كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي التَّفْسِيرِ بِالْمِثَالِ.

وَإِذَا ذَكَرَ أَحَدُهُمْ لَهَا سَبَبًا نَزَلَتْ لِأَجْلِهِ، وَذَكَرَ الْآخَرُ سَبَبًا، فَقَدْ يُمْكِنُ صِدْقُهُمَا؛ بِأَنْ تَكُونَ نَزَلَتْ عَقِبَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ، أَوْ تَكُونَ نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ؛ مَرَّةً لِهَذَا السَّبَبِ، وَمَرَّةً لِهَذَا السَّبَبِ.

وَهَذَانِ الصِّنْفَانِ اللَّذَانِ ذَكَرْنَاهُمَا فِي تَنَوُّعِ التَّفْسِيرِ: تَارَةً لِتَنَوُّعِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَتَارَةً لِذِكْرِ بَعْضِ أَنْوَاعِ الْمُسَمَّىٰ وَأَقْسَامِهِ كَالتَّمْثِيلَاتِ؛ هُمَا الْغَالِبُ فِي تَفْسِيرِ سَلَفِ الْأُمَّةِ الَّذِي يُظَنُّ أَنَّهُ مُخْتَلِفٌ.

وَمِنَ التَّنَازُعِ الْمَوْجُودِ عَنْهُمْ مَا يَكُونُ اللَّفْظُ فِيهِ مُحْتَمِلًا لِلْأَمْرَيْنِ؛ إِمَّا لِكَوْنِهِ مُشْتَرَكًا فِي اللَّفْظِ كَلَفْظِ (قَسْوَرَةٍ) الَّذِي يُرَادُ بِهِ الرَّامِي، وَيُرَادُ بِهِ الْأَسَدُ، وَلَفْظِ (عَسْعَسَ) الَّذِي يُرَادُ بِهِ إِقْبَالُ اللَّيْلِ وَإِدْبَارُهُ.

وَإِمَّا لِكَوْنِهِ مُتَوَاطِئًا فِي الْأَصْلِ، لَكِنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَحَدُ النَّوْعَيْنِ، أَوْ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ؛ كَالضَّمَائِرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٨، ٩]، وَكَلَفْظِ: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر: ١-٣]، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فَمِثْلُ هَذَا قَدْ يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ كُلُّ الْمَعَانِي الَّتِي قَالَهَا السَّلَفُ، وَقَدْ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ.

فَالْأَوَّلُ: إِمَّا لِكَوْنِ الْآيَةِ نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ، فَأُرِيدَ بِهَا هَذَا تَارَةً وَهَذَا تَارَةً، وَإِمَّا

لِكَوْنِ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ مَعْنَيَاهُ؛ إِذْ قَدْ جَوَّزَ ذَلِكَ أَكْثَرُ الْفُقَهَاءِ: الْمَالِكِيَّةُ، وَالشَّافِعِيَّةُ، وَالْحَنْبَلِيَّةُ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ.

وَإِمَّا لِكَوْنِ اللَّفْظِ مُتَوَاطِئًا، فَيَكُونُ عَامًّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لِتَخْصِيصِهِ مُوجِبٌ؛ فَهَذَا النَّوْعُ إِذَا صَحَّ فِيهِ الْقَوْلَانِ كَانَ مِنَ الصِّنْفِ الثَّانِي].

الشَّرح:

هذا الفصل في أسباب النُّزول، وفي الألفاظ المشتركة والأضداد والمتواطئة.

وأسباب النُّزول عناية السَّلف بها عناية شديدة عظيمة، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولو أعلم أحدًا أعلم مني بتفسير القرآن لرحلت إليه، وما من آية إلَّا وأنا أعلم فيما أنزلت»، متفق عليه، انظر تحرِّيه لأسباب النُّزول ومعاني الآيات، والفاروق عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما قال له اليهودي: أنتم معشر المسلمين نزلت عليكم آية لو نزلت علينا لاتَّخذنا ذلك اليوم عيدًا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؛ قال: أما إنِّي أعلم متىٰ نزلت وأين نزلت. رواه البخاري؛ فالسَّلف من الصَّحابة والتَّابعين كانوا شديدي العناية بأسباب النُّزول؛ لأنَّ فائدة ذلك عظيمة في فهم معنىٰ الآيات، كما قال شيخ الإسلام: إن العلم بالسَّبب يورث العلم بالمُسَبَّبِ. وكان ثابت البناني إذا جلس إلىٰ عبد الرَّحمن بن أبي ليلىٰ وهو الذي أدرك عشرين ومائة من الصَّحابة، يقول: نتلو عليه آي القرآن فيذكر لنا أسباب نزولها ومعانيها.

والعلماء عظمت عنايتهم بأسباب النُّزول وصنَّفوا فيها مصنَّفات خاصَّة،

لكن بعضهم يجمع كلَّ ما قيل في أسباب النُّزول، وبعضه أو كثير منه لا يصحُّ من جهة الرِّواية، وبعضه يحتاج إلىٰ توجيه من جهة الدِّراية.

وآي القرآن نوعان:

ابتدائي؛ فأكثر القرآن نزل ابتدائيًّا من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وبعضها له سبب نزول؛ وقعت حادثة معيَّنة فنزل فيها قرآن؛ فأكثر القرآن ابتدائي، وبعضه له سبب نزول.

ثم تكلَّم شيخ الإسلام في صيغ أسباب النُّزول، يقول: بعضها مسند، وبعضها كالمسند. يعني: بعضها صريح الدلالة علىٰ أنَّه سبب نزول الآية، فيقول الصَّحابي: سبب نزول الآية كذا وكذا. هذا صريح ونصٌّ، وبعض الصَّحابة يقول: نزلت الآية في كذا، وهذا ظاهر في أنَّه سبب نزول، وإذا دلَّ عليه اللَّفظ أيضًا يكون كالمسند في قول جماعة من المفسِّرين ومنهم البخاري. وجماعة من العلماء كأحمد وغيره يجعله من معاني الآية، وبعضهم يقول: ما دام هو من قول الصَّحابي: نزلت في كذا؛ فيكون له حكم الرَّفع؛ لأنَّه تفسير صحابي.

وأحيانًا يقول بعض الصَّحابة: في معنىٰ الآية كذا؛ فهذا محتمل، ليس مثل قوَّة قول الصَّحابي: سبب نزول الآية كذا، أو نزلت في كذا. وما يقوله الصَّحابة في سبب نزول الآية إن كان مسندًا صحيحًا عن جميعهم فتجد أن معاني ما ذكروه مؤتلف علىٰ دلالة لفظ الآية.

وتفسير الصحابي للآية بذكر سبب نزولها نصًّا أو ظاهرًا، أو بذكر معنىٰ الآية؛

حجيته قوية، قال العلامة محمد بن عبد الله الزركشي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «تفسير الصَّحابي إذا وافق ظاهر النصِّ؛ كان حجَّة بلا ريب».

مثال لتعدد أسباب النزول: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ذكر شيخ الإسلام هنا عن أبي أيُّوب الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنَّه قال: نزلت فينا معشر الأنصار، فإنَّه بعد أن دخل النَّاس في دين الله أفواجًا، قلنا: نحن الأنصار نشتغل الآن في إصلاح أموالنا، فنزل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾، وسبب النزول هذا رواه التِّرمذي. وذُكر سبب نزولٍ غيره هو أسند من جهة قوَّة الرِّواية، رواه البخاري عن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ؛ قال: نزلت في النَّفقة، يعني: لا تتركوا النَّفقة في سبيل الله، يعني: لا تتركوا النَّفقة في الجهاد. لأنَّ الجهاد بالسَّيف يحتاج إلىٰ مال وإلىٰ مؤنة، وإلىٰ شراء السلاح والعتاد، وإلىٰ النَّفقة علىٰ المجاهدين، وأيضًا في النفقة علىٰ أهليهم وذويهم، فالأُمَّة إذا ضيَّعت النَّفقة في سبيل الله والجهاد في سبيل الله؛ عرَّضت ديار المسلمين للأخطار، فتهلك، يغزوها الكفَّار ويحتلُّونها، وهذا شرٌّ وهلكة؛ وهذا أصحُّ من جهة السَّند لكنَّه لا يعارض خبر أبي أيُّوب، لأن خبر أبي أيوب بمعناه؛ لأنَّهم لو انشغلوا بالأموال عن الجهاد في سبيل الله تسلَّط العدو علىٰ ديار المسلمين، أو تعطَّل الجهاد. ليس المقصود أن يدخل النَّاس في الإسلام في جزيرة العرب فقط، وإنَّما المقصود أن تكون كلمة الله هي العليا في جميع الأرض، ولذلك قام أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ بعد النَّبي ﷺ بإنفاذ لوائه في جهاد الشَّام،

(١) شرح مختصر الخرقي (٤/ ٥٩٦).

وأرسل أسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأرسل يزيد بن أبي سفيان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أيضًا للجهاد في الشام، وأرسل أيضًا الصحابة لجهاد الفرس والعرب في العراق؛ لأن عرب العراق كانوا أذنابًا للفرس المجوس، كما كان عرب الشام يحتلهم نصارىٰ الروم وقد نصروهم فالصحابة أدخلوهم في دين الله في الإسلام، هذا في بداية عهد أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ثم جاء عمر الفاروق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ونصر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ به الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وكان عنده أبطال قاموا بنصرة هذا الدِّين؛ كسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

فالمقصود أنَّ النَّاس إذا انشغلوا بالتِّجارة وتركوا الجهاد في سبيل الله؛ ضاعت الأُمَّة، والمقصود أن تحصل الكفاية بأنواع ما يجب علىٰ المسلمين، فيقوم النَّاس بتنمية اقتصاد الدَّولة والأفراد؛ لأنَّ الأُمَّة إذا كانت قوية في اقتصادها نهضت بالجهاد وبأعباء التَّعليم وإقامة الدَّولة ومؤسساتها، وصارت في غُنية عن الكفَّار بحيث لا يفرضون عليها سياسات أو شروطًا بسبب حاجتها للمال، وربَّما يفرضون علىٰ المسلمين شروطًا تضرُّ في أديانهم وعقائدهم وأخلاقهم.

ومما ذُكر في سبب نزول الآية ما ذكره البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، حيث قال: هو الرَّجل يُهلك نفسه بالذُّنوب ثم لا يتوب. هذا أيضًا هلاك، لكن هذا ليس صريحًا في سبب النُّزول كقولَي أبي أيوب وحذيفة، لكنَّه ممَّا يدلُّ عليه معنىٰ الآية، ولا ينافي ما ذكره أبو أيُّوب وحذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ لأنَّ الذُّنوب هلكة، كما قال النبي ﷺ: اجتنبوا المهلكات. فالذُّنوب هلكة، لكن إذا تاب الإنسان منها يبدِّل الله سيئاته حسنات.

فهذه أسباب النُّزول الثَّلاثة في الآية الواحدة كلّها تدلُّ علىٰ معنىٰ الآية، فهذا يدلُّ علىٰ أنَّك تتأمَّل فيما يُذكر في سببَ النُّزول، إذا كانت الرِّوايات صحيحة ومؤتلفة ومتنوِّعة علىٰ المعنىٰ الذي يدلُّ عليه لفظ الآية ولا تتعارض ولا تتضادّ، فإنَّها كلَّها تكون من معنىٰ الآية.

والقاعدة أنَّ العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، وهذا عامٌّ لكل آي القرآن، في كل القرآن سواء؛ لأنَّ الله ما أنزل القرآن فقط في فئة الصَّحابة: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، والله عَزَّوَجَلَّ أرسل النَّبي ﷺ للنَّاس كافَّة، والله جعل القرآن حجَّة علىٰ الخلق كافَّة، قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ويدل لذلك إجماع الصَّحابة علىٰ العمل بهذا القرآن مع من جاء بعد عهد النَّبي ﷺ، دعوا النَّاس كلهم إلىٰ هذا القرآن كلِّه، ما كان ابتداءً من الله بلا سبب نزول، أو ما كان له سبب نزول خاص.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ قصر عمومات القرآن علىٰ أسباب نزولها باطل، فإنَّ عامة الآيات نزلت بأسباب اقتضت ذلك، وعُلم أنَّ شيئًا منها لم يُقصر علىٰ سببه».

والصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من كانت فيهم أسباب النُّزول خاصَّة بينوا للنَّاس أنَّ العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب.

---

(١) الصارم المسلول (ص٥٠).

من أولئك كعب بن عجرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقد آذاه القمل في شعره، وهو مُحْرِم بالحجِّ، فرآه النَّبي ﷺ متكلِّفًا، فقال له: «**ما كنت أظن أن الجهد قد بلغ بك هكذا، احلق شعرك وأطعم ستَّة مساكين لكل مسكين نصف صاع، أو صم ثلاثة أيَّام، أو انسك شاة**»؛ فنزل قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، قال كعب بن عجرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو الذي بسببه نزلت الآية: هي لي خاصة ولكم عامَّة، رواه مسلم

وسبب النُّزول قطعي الدُّخول في لفظ الآية، لكن اللَّفظ إذا كان يصلح لمعناه العام فإنَّه يجب أن يبقىٰ العام علىٰ عمومه، فيستفاد منه أن العموم يعم كل أفراد النصّ، لكن نبَّه شيخ الإسلام وحذَّر من الزلل في العام الذي أريد به الخاصّ، وكذلك العام الوارد علىٰ سبب خاصّ.

وقد حرصت في هذا الموضع علىٰ تبيين قاعدة «العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب»، لئلَّا يضلّ الناس باعتقاد أن نصوص القرآن وردت في قوم قد خلوا.

فمن أسباب عدم فقه القرآن وترك العمل به؛ اعتقادُ أنَّ نصوصه وردت في قوم قد خلوا من قبل، فعطَّلوا نصوصه عن دلالاتها ومعانيها، فكيف يفقه وينتفع بالقرآن من لم يعتقد أنَّه خطاب له؟!

ونصوص القرآن أخبار يجب الإيمان بها واعتقادها، وأوامر يجب فعلها، ونواهٍ يجب اجتنابها، وكلُّ ذلك خطاب للنَّاس كافَّة في كل حين.

وفضائل الاعتقادات والأقوال والأعمال مترتبة على أوصاف من تحقَّق بها، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كفى بهذه الآية نورًا وبرهانًا ونجاة، وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا؛ فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شرٌّ منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك».

ومثال العام الذي أريد به الخاصّ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، هذا عام أُريد به الخصوص، يعني عدَّة المطلَّقة من ذوات الحيض ثلاثة قروء ثلاثة حِيَضٍ، أمَّا المطلَّقة الآيسة من المحيض، أو التي لم تحض وزوِّجت وهي صغيرة، ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤]، وأما المطلَّقة الحامل فعدتها وضع الحمل، قال تعالىٰ: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾ [الطلاق: ٤].

فإذن؛ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨]،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٨٠).

(المطلقات) هنا عام أريد به الخصوص.

وقد ضلَّ الخوارج في العام الذي أريد به الخصوص في أخطر موضوع وهو تكفير المسلمين بالذنوب والمعاصي، زلَّ فهمُهم في قوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١] قالوا: هذه ﴿سَيِّئَةً﴾ يعني ذنب عقوبته الخلود في النار، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فكفروا بالذنوب، والصَّحيح أنَّ السيِّئة هنا يراد بها الشِّرك، كما فسَّرها ابن عبَّاس ومن أخذ عنه كمجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ - مجاهد عرض التَّفسير علىٰ ابن عبَّاس يوقفه علىٰ كل آية - قال: السيِّئة الشِّرك. لأن معنىٰ الآية يدلُّ علىٰ ذلك، سيئة الشرك هي التي تحيط بصاحبها، لأنها تحبط العمل، ولا يقبل معها عمل، وهي التي بسببها يخلَّد المشرك في النَّار، والدَّليل لفظ الآية: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وأيضًا تفسير الآية بالمقابل لها من أصحاب الجنة يُعيِّن أن المقصود بـ«السيئة» الشرك، لأنَّ القرآن مثاني إذا ذُكر وعيد المشركين ذكر ثواب الموحِّدين ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨١، ٨٢].

وبعض النَّاس وإن كان لا يكفِّر بالذَّنب لكنَّه يسلك مسلك الخوارج في معاملة المسلمين فيتجسس عليهم ويغتابهم بما لم يفعلوه أو بما تابوا منه ولا يزال علىٰ ذلك مع أنَّ الله يُبدِّل السيئات حسنات بالتوبة، ويأبىٰ المغتاب علىٰ

المسلمين ذلك.

فكما قال شيخ الإسلام عن الخوارج: حصروا الخير في أنفسهم.

ومما وقع الزَّلل في فهمه النصّ العام الوارد علىٰ سبب خاص، من ذلك أنَّ النَّبي ﷺ مرَّ برجل أُغمي عليه وقد ظلِّل عليه، فقال: «**ما هذا؟**» فقالوا: صائم؛ فقال النبي ﷺ: «**ليس من البرِّ الصِّيام في السَّفر**»، متَّفق عليه، فقوله: «**ليس من البر الصيام في السَّفر**»؛ هذا وارد علىٰ سبب خاصٍّ لمن شقَّ عليه الصِّيام وهو مسافر، فهذا الذي ظُلِّل عليه أصابته مشقَّة، وأصابه الحرج، ولم يأخذ بالرُّخصة، والدِّين عزائم ورُخص، والله يحب أن تؤتىٰ رخصه كما يحب أن تؤتىٰ عزائمه، إذن ليس كل واحد صام وهو مسافر تقول له: لا يجوز ذلك لأنَّ النبيّ ﷺ قال: «**ليس من البر الصِّيام في السَّفر**»، وإنما معنىٰ قوله في خصوص من شقَّ عليه الصيام وتكلَّف، فمثل هذا نقول له: خذ بالرُّخصة وأفطر. فيجوز للمسافر أن يفطر إذا شقَّ عليه الصوم في السَّفر، والسَّفر يختلف بحسب وسيلة السَّفر، والوقت الذي تسافر فيه في حرٍّ أو في برد، وبحسب مسافة السَّفر، فالسفر القريب ليست فيه مشقة في الغالب، لذلك جاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصَّحيحين، قال: كنا نسافر مع النبي ﷺ وفينا المفطر وفينا الصَّائم، فلا يعيب المفطر علىٰ الصَّائم، ولا الصَّائم علىٰ المفطر. لأنَّه إذا لم توجد مشقَّة؛ فمن أخذ بالعزيمة وصام صحَّ صيامه، ومن أفطر أخذًا بالرُّخصة جاز له ذلك.

وبالنسبة لتعدُّد سبب نزول الآية فهذا ممكن، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ﴾ [النساء: ١٢٨]؛

فقد ورد أنها نزلت في سودة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا زوج النَّبي ﷺ، وأنَّها نزلت في زوج رافع بن خديج رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فلا يوجد شيء يمنع من تعدد أسباب النزول، لكن بشرط أن تكون الرِّوايات المنقولة في ذلك أسانيدها صحيحة، ويدلُّ عليها لفظ الآية.

وأمَّا بالنِّسبة للخلاف الحاصل بسبب الألفاظ المشتركة، فإذا كان اللفظ المشترك مجردًا عن التخصيص لأحد معانيه فلا يوجد شيء يمنع تفسيره بمعانيه إذا دلَّ عليه السياق، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال في شأن إعراض الكافرين عن تدبُّر القرآن والإيمان به: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ۝٥١﴾ [المدثر: ٤٩- ٥١]، والحمر هي الحمير، ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ بعضهم فسَّر القسورة بالأسد، قال: الحمار إذا رأىٰ الأسد فرَّ منه، وركض بسرعة، فشبَّه الله عَزَّوَجَلَّ إعراض الكافرين عن تدبُّر القرآن ونفورهم منه بسرعة نفور الحمار إذا رأىٰ الأسد، وبعض المفسرين فسَّر القسورة بالرامي، فإذا رآه الحمار فرَّ منه، فتفسير الآية تشبيه نفور الحمار من الرَّامي كتشبيهه أيضًا بنفوره من الأسد، وكل هذا يفيد سرعة النفور، والكفار نفروا عن تدبُّر القرآن بهذه السُّرعة إعراضًا، بسرعة بدون تدبُّر وبدون نظر في معاني القرآن، فلفظ «القسورة» يحتمل أنَّه الأسد، ويحتمل أنَّه الرَّامي، فهذا اللَّفظ فسَّره العلماء بهذا وهذا، ولا تعارض بينهما واللَّفظ يدلُّ علىٰ كليهما.

وتوجد ألفاظ تسمَّىٰ الأضداد، يعني اللَّفظة تحتمل الشَّيء وضدَّه، مثل (عسعس)، تدلُّ علىٰ الإقبال والإدبار، ومثل (وراء) أيضًا في لغة العرب تدلُّ علىٰ الخلف وتدلُّ علىٰ الأمام؛ فقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا

تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨]؛ بعضهم فسَّر الليل إذا عسعس بإقباله، وبعضهم فسَّره بإدباره، والصَّحيح أنه يفسَّر بإدباره؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أقبل الصُّبح؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إذا ذكر إدبار اللَّيل ذكر إقبال النَّهار، وجعل هذا من العلامات الدَّالة علىٰ ربوبيته سبحانه، وأن هذا يخلف هذا؛ قال تعالىٰ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ هو مطابق لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤]. وبعض العلماء قال: دع اللَّفظة تُفسر بالمعنيين، لكن التَّفسير بالمقابل يدلُّ علىٰ أنَّ القرآن تثنَّىٰ فيه المعاني، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ يعني أدبر ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ يعني أقبل، فالليل والنَّهار آيتان عظيمتان دالتان علىٰ ربوبية الله، جعل الله فيهما وظائف دينية ودنيوية، وراحة وسكن وسعي في الأعمال والعبادات والمكاسب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ولفظ الوراء في قصَّة الخضر وموسىٰ مع أصحاب السَّفينة ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ [الكهف: ٧٩]، قال قتادة في ﴿وَرَآءَهُم﴾: أمامهم. وقتادة من علماء التَّفسير المبرزين من التابعين، وبعضهم عاب ذلك عليه واستطال بسببه عليه، وقال: هذا من العجمة. وقالوا: قتادة لا يعرف لغة العرب. وأخطئوا عليه، والصَّحيح أن هذه اللَّفظة من الأضداد، كما قال العلَّامة أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، وابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو قرشي ومن سادات العرب ومن علماء التَّفسير، وحبر الأمَّة وترجمان القرآن في قراءة عنه في «صحيح البخاري»

قال: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا، وهو كقوله تعالىٰ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦] يعني من أمامه جهنم.

علىٰ كل حال قتادة إمام في علم القرآن والسُّنَّة، لا يضرُّه خطأ من غلط عليه. قال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «كان قتادة بارع العلم، نسيج وحده في الحفظ في زمانه، لا يتقدمه كبير أحد».

المقصود: أن تنتبه إلىٰ استعمال الشَّرع للَّفظة في سياق الآيات القرآنية والأحاديث النبويَّة، وما في ذلك من العموم والخصوص بحسب ما يدلُّ عليه لفظ النصِّ في سياقه واستعمال الشرع له والقراءات الواردة في الآية التي تُبيِّن معنىٰ اللَّفظة من آي القرآن.

مثال: لفظ «القرء» في لغة العرب يدلُّ علىٰ الحيض ويدلُّ علىٰ الطُّهر، لكن يقول ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «المغني»: «هذه اللَّفظة لم يرد استعمالها في القرآن والسُّنَّة إلَّا علىٰ الحيض»، فلابُدَّ من ملاحظة العموم اللُّغوي والخصوص الشَّرعي، مع الأخذ بتفسير الصَّحابة والتَّابعين والقراءات التي تفسِّر الألفاظ بعضها ببعض، فكل هذا ممَّا يعين علىٰ فهم المعنىٰ.

وعلىٰ كل حال؛ معاني الألفاظ يعينها سياق الآية واستعمال الشرع لها، ودلالة اللَّفظ تستفاد من معرفة مجموع ذلك.

وألفاظ الأضداد يجوز استعمال معنييها حيث يحتمله لفظ وسياق الآية،

---

(١) الجرح والتعديل (١/ ١٢٧).

مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَءَاخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الرجاء يُطلق على الطمع في المحبوب في الأصل، ويُطلق الرَّجاء بمعنىٰ الخوف، فهو من باب الأضداد».

وقال[٢]: «يجوز أن يكون شاملًا للأمرين».

مثال آخر: قوله تعالىٰ عن السَّاعة: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، قال العلامة هشام بن أحمد الوَّقَشِيُّ الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «من قرأ: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، بضمِّ الألف؛ جاز أن يكون: أُظْهِرُها لقربها. وجاز أن يكون أُسِرُّهَا من نفسي، فكيف أُطْلِعُكُمْ عليها. ومن قرأ: (أَخْفِيهَا)، بفتح الألف؛ فمعناه: أَظْهِرُهَا، لا غير. وأنشد لزُهَيْرٍ:

خَفَاهُنَّ مِن أَنْفَاقِهِنَّ كأَنَّما ... خَفَاهُنَّ وَدْقٌ من سَحَابٍ مُرَكَّبِ».

أَمَّا اللَّفظ المتواطئ[٤]، فهو الذي يكون معناه مطابقًا للفظه، ويُراد به أحد

(١) تفسير سورة العنكبوت (ص١٨١).

(٢) تفسير سورة العنكبوت (ص١٨١).

(٣) التَّعليق على الموطَّأ (١/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٤) **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اسم الجنس العامِّ المتواطئ المطلق إذا دلَّ علىٰ نوع أو عين؛ كقولك: هذا الإنسان، وهذا الحيوان، أو قولك: هات الحيوان الذي عندك؛ وهي غنم؛ فهنا اللفظ قد دلَّ علىٰ شيئين: علىٰ المعنىٰ المشترك الموجود في جميع الموارد، وعلىٰ ما يختصُّ به هنا هذا النوع أو العين، فاللفظ المشترك الموجود في جميع التصاريف علىٰ القدر المشترك، وما قرن باللفظ من لام التعريف مثلًا أو =

النَّوعين.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هي جمهور الأسماء الموجودة في اللغات، وهي أسماء الأجناس اللغوية، وهو الاسم المعلق علىٰ الشيء وما أشبهه - سواء كان اسم عين أو اسم صفة».

وتفسير اللفظ بمعانيه المتناولة له ليس من استعمال اللفظ المشترك بأنواعه، وإنما هو تبيينٌ لمعاني اللفظ.

مثال: قال تعالىٰ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «فُسِّر «الدلوك» بالزوال، وفُسِّر بالغروب، وليس بقولين، بل اللفظ يتناولهما معًا، فإن الدلوك هو الميل، ودلوك الشمس ميلها، ولهذا الميل مبتدأ ومنتهًىٰ؛ فمبتدؤه الزوال، ومنتهاه الغروب، واللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار».

وكذلك القول في عود الضَّمائر في بعض الآيات يكون متَّفقًا عليه فلا يجوز لأحد أن يخالف إجماع الأمَّة في ذلك؛ أمَّا ما اختُلف فيه، فإن كان أحد الضَّمائر عوده مرجوح أو ضعيف؛ قيل بالرَّاجح، وإن كان يحتمله اللَّفظ يُذكر القولان إذا كان ذلك ممَّا قاله السَّلف من الصَّحابة والتَّابعين؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٨، ٩]، بعض المفسرين قال: ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾؛

=

غيرها؛ دلَّ علىٰ الخصوص والتعيين». «تفسير شيخ الإسلام» (٢/ ٢٤٤).

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٠٠/ ٣).

(٢) تفسير شيخ الإسلام (٣/ ١٦٣).

جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأن الآية بعدها ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] هو الله عَزَّوَجَلَّ، وبعضهم قال: الضمائر هذه كلها تعود إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ دنا من نبيه ﷺ، بعد أن بلغ النبي ﷺ سدرة المنتهىٰ، وبلغ إلىٰ موقع يسمع صريف الأقلام، لكنه ما بلغ العرش، لكن الله عَزَّوَجَلَّ دنا فتدلىٰ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ يعني: هذا الدنوُّ قربه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهذا لا يستبعد؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ينزل إلىٰ السماء الدنيا في كل ليلة في الثلث الأخير فيقول: «**من يدعوني فأستجيب له، من يستغفرني فأغفر له**»، فعود الضَّمائر إن كان يدلُّ عليه اللَّفظ ويقتضيه المعنىٰ، وقال به السَّلف؛ نقول: قال بعض العلماء في عود الضمير كذا، وبعضهم قال في عود الضمير كذا. لكن إذا تعيَّن عود الضَّمير علىٰ أحد الأقوال لا يجوز أن نخالف هذا الإجماع.

ومن الأمثلة كذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ③﴾ [الفجر: ١-٣]، ليال عشر من جهة اللفظ متواطئة، يعني: لفظ متواطئ يدلُّ علىٰ معنىٰ عشر ليال، وعامَّة المفسِّرين من السَّلف في تعيينها علىٰ أنَّها العشر من ذي الحجَّة، وبعضهم عيَّنها العشر الأوَّل من رمضان، وبعضهم عيَّنها العشر الأواخر من رمضان، لكن في كل الأقوال المراد القسم بأوقات العبادات؛ الفجر وقت صلاة الفجر، وليال عشر إن كانت العشر الأخيرة من رمضان فهي أوقات أفضل العبادات، وفيها ليلة القدر، من قامها إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه، وهي ليلة خير من ألف شهر؛ أي من ثلاث وثمانين سنة، وإن كانت العشر المراد بها العشر من ذي الحجَّة؛ فهذا قسم بأوقات عبادة الحجِّ، وكلٌّ من عبادة

صلاة الفجر وقيام ليالي رمضان وعبادة الحجِّ من أعظم العبادات.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ الشفع بعض العلماء جعله عامًّا لكل ما هو شفع؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، قال: كل مخلوق فيه ذكر وأنثىٰ من الإنس، ومن النبات؛ النخل فيه ذكر وأنثىٰ، وهكذا، والوتر هو الله عَزَّوَجَلَّ، هو الخالق، قال النبيُّ ﷺ: «**إن الله وتر يحب الوتر**» رواه البخاري من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وبعض العلماء قال: ما دام القسم كله في العبادات والطاعات، فالشفع المراد به صلاة الفجر، أو المراد به كل صلاة هي شفع، والمغرب وتر صلاة النهار، والوتر في قيام اللَّيل أيضًا صلاة وتر، وهذا المعنىٰ يحتمله لفظ الآية ويدلُّ عليه، والله أعلم.



ثم قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

[وَمِنَ الْأَقْوَالِ الْمَوْجُودَةِ عَنْهُمْ وَيَجْعَلُهَا بَعْضُ النَّاسِ اخْتِلَافًا؛ أَنْ يُعَبِّرُوا عَنِ الْمَعَانِي بِأَلْفَاظٍ مُتَقَارِبَةٍ لَا مُتَرَادِفَةٍ؛ فَإِنَّ التَّرَادُفَ فِي اللُّغَةِ قَلِيلٌ.

وَأَمَّا فِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ؛ فَإِمَّا نَادِرٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ.

وَقَلَّ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ لَفْظٍ وَاحِدٍ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي جَمِيعَ مَعْنَاهُ؛ بَلْ يَكُونُ فِيهِ تَقْرِيبٌ لِمَعْنَاهُ، وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ.

فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ [الطور: ٩]؛ إِنَّ الْمَوْرَ هُوَ الْحَرَكَةُ. كَانَ تَقْرِيبًا؛ إِذِ الْمَوْرُ حَرَكَةٌ خَفِيفَةٌ سَرِيعَةٌ.

وَكَذَلِكَ إِذَا قَالَ: الْوَحْيُ: الْإِعْلَامُ. أَوْ قِيلَ: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [النساء: ١٦٣]: أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ.

أَوْ قِيلَ: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٤]؛ أَيْ: أَعْلَمْنَا. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ؛ فَهَذَا كُلُّهُ تَقْرِيبٌ لَا تَحْقِيقٌ؛ فَإِنَّ الْوَحْيَ هُوَ إِعْلَامٌ سَرِيعٌ خَفِيٌّ، وَالْقَضَاءُ إِلَيْهِمْ أَخَصُّ مِنَ الْإِعْلَامِ؛ فَإِنَّ فِيهِ إِنْزَالًا إِلَيْهِمْ، وَإِيحَاءً إِلَيْهِمْ.

وَالْعَرَبُ تُضَمِّنُ الْفِعْلَ مَعْنَىٰ الْفِعْلِ، وَتُعَدِّيهِ تَعْدِيَتَهُ، وَمِنْ هُنَا غَلِطَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْحُرُوفِ تَقُومُ مَقَامَ بَعْضٍ، كَمَا يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ [ص: ٢٤]؛ أَيْ: مَعَ نِعَاجِهِ. وَ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الصف: ١٤]؛ أَيْ: مَعَ اللهِ. وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَالتَّحْقِيقُ: مَا قَالَهُ نُحَاةُ الْبَصْرَةِ مِنَ التَّضْمِينِ؛ فَسُؤَالُ النَّعْجَةِ يَتَضَمَّنُ جَمْعَهَا وَضَمَّهَا إِلَىٰ نِعَاجِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] ضُمِّنَ مَعْنَىٰ: يُزِيغُونَكَ وَيَصُدُّونَكَ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٧٧]؛ ضُمِّنَ مَعْنَىٰ: نَجَّيْنَاهُ وَخَلَّصْنَاهُ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]. ضُمِّنَ (يُرْوَىٰ بِهَا)، وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ.

وَمَنْ قَالَ: ﴿لَا رَيْبَ﴾: لا شَكَّ؛ فَهَذَا تَقْرِيبٌ، وَإِلَّا فَالرَّيْبُ فِيهِ اضْطِرَابٌ وَحَرَكَةٌ.

كَمَا قَالَ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لَا يَرِيبُكَ». وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَّهُ مَرَّ بِظَبْيٍ حَاقِفٍ، فَقَالَ: لَا يَرِيبُهُ أَحَدٌ»، فَكَمَا أَنَّ الْيَقِينَ ضُمِّنَ السُّكُونَ وَالطُّمَأْنِينَةَ، فَالرَّيْبُ ضِدُّهُ ضُمِّنَ الِاضْطِرَابَ وَالْحَرَكَةَ.

وَلَفْظُ الشَّكِّ - وَإِنْ قِيلَ: إِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ هَذَا الْمَعْنَىٰ - لَكِنَّ لَفْظَهُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: هَذَا الْقُرْآنُ؛ فَهَذَا تَقْرِيبٌ؛ لِأَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا؛ فَالْإِشَارَةُ بِجِهَةِ الْحُضُورِ غَيْرُ الْإِشَارَةِ بِجِهَةِ الْبُعْدِ وَالْغَيْبَةِ.

وَلَفْظُ «الْكِتَابِ» يَتَضَمَّنُ مِنْ كَوْنِهِ مَكْتُوبًا مَضْمُومًا مَا لَا يَتَضَمَّنُهُ لَفْظُ الْقُرْآنِ؛ مِنْ كَوْنِهِ مَقْرُوءًا مُظْهَرًا بَادِيًا؛ فَهَذِهِ الْفُرُوقُ مَوْجُودَةٌ فِي الْقُرْآنِ.

فَإِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ: ﴿أَن تُبْسَلَ﴾ [الأنعام: ٧٠]؛ أَيْ: تُحْبَسَ. وَقَالَ الْآخَرُ:

تُرْتَهَنَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ؛ لَمْ يَكُنْ مِنِ اخْتِلَافِ التَّضَادِّ، وَإِنْ كَانَ الْمَحْبُوسُ قَدْ يَكُونُ مُرْتَهنًا، وَقَدْ لَا يَكُونُ؛ إِذْ هَذَا تَقْرِيبٌ لِلْمَعْنَىٰ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَجَمْعُ عِبَارَاتِ السَّلَفِ فِي مِثْلِ هَذَا نَافِعٌ جِدًّا؛ فَإِنَّ مَجْمُوعَ عِبَارَاتِهِمْ أَدَلُّ عَلَىٰ الْمَقْصُودِ مِنْ عِبَارَةٍ أَوْ عِبَارَتَيْنِ، وَمَعَ هَذَا فَلَا بُدَّ مِنِ اخْتِلَافٍ مُحَقَّقٍ بَيْنَهُمْ، كَمَا يُوجَدُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْأَحْكَامِ].

الشَّـرْح:

لا زال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ يشرح ما في ألفاظ المفسرين من التبيين للمعاني المتقاربة، بمعنىٰ أنها معانٍ تقتضيها ألفاظ آيات القرآن، وهي كلها تقرِّب معنىٰ اللفظ، ودلالة هذه المعاني مؤتلفة علىٰ مقتضىٰ اللفظ؛ فهذا كله تفسير حسن لألفاظ القرآن؛ لأنه من دلالة الألفاظ، وما تقتضيه، وتقريب لمعانيها لمن يقرأ كتب التفسير، وهذا هو المقصود بفهم وتدبُّر القرآن، ما دام أن الاختلاف اختلاف تنوُّع وليس اختلاف تضاد، وكانت معاني ألفاظ التفسير كلها متقاربة ويدل عليها لفظ النصِّ من الآية، وقال به خير القرون من السلف، ولم يكن من الأقوال المبتدعة أو الضعيفة أو المرجوحة فهذا تفسير صحيح لآيات القرآن.

وجمع عبارات السلف يدل علىٰ خطأ الأقوال التي تخالف تفسير السلف.

ومن هنا نفهم ما نقرأه في كتب التفسير من الألفاظ التي يذكرها المفسرون وهي معاني متقاربة لما يدلُّ عليه اللفظ إذا كان ذلك كله من جملة أقوال أهل

السنَّة، أمَّا الأقوال المخالفة لأقوال أهل السنَّة التي لا يدل عليها اللفظ، وإنما هي من أخطاء المبتدعين، أو ممن لم يأخذ علم التفسير عن الصحابة والتابعين، فقوله بعيد عن لفظ الآية ومعناها، وهو من الأقوال المردودة الباطلة في التفسير.

وقول شيخ الإسلام: «وَقَلَّ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ لَفْظٍ وَاحِدٍ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي جَمِيعَ مَعْنَاهُ»؛ سبحان الله! لماذا؟ لأنَّ هذا من إعجاز القرآن، فاللفظ الإلهي الذي أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ نبينا محمد ﷺ لا يوازيه لفظ آخر، لا في اختصار الألفاظ، ولا في جزالة المعنىٰ، ولا في فصاحته وبلاغته، ولا في قوَّة ألفاظه، ولا في تجدد معانيه مع القراءة في كل مرة، لا يوجد هذا في كلام غير كلام الله، ولذلك لابُدَّ أن يتلىٰ القرآن كما أُنزل، لأنّنا متعبدون بهذا، وكلما أمكن شرح القرآن بالقرآن؛ فهذا هو الواجب بحيث أن الإنسان يستفيد معاني القرآن من مجموع النصوص في المسألة الواحدة، ولذلك حرم ترجمة القرآن لفظيًّا إلىٰ غير اللغة العربية، وإنما تذكر ترجمة لمعناه.

وأحاديث النبي ﷺ صحيح أن بعضها يروىٰ بالمعنىٰ، لكن مع هذا قال العلماء: لا يوجد لفظ بالمعنىٰ يوازي اللفظ النبوي - أيضًا -؛ لأن كلام النبي ﷺ وحي من الله، وقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، لكن فرق ما بين القرآن والسنَّة ظاهر من جهة أن الله تعبدنا بقراءة القرآن في الصلاة، ولا يجوز أن يقوله أحد بالمعنىٰ كما في سنة النبي ﷺ التي يجوز رواية أحاديثها بالمعنىٰ، وإنما القرآن لابد أن يؤدىٰ لفظه كما أنزل إلىٰ النبي ﷺ، ولذلك قال شيخ الإسلام: «وَقَلَّ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ لَفْظٍ وَاحِدٍ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي جَمِيعَ مَعْنَاهُ؛ بَلْ يَكُونُ فِيهِ تَقْرِيبٌ لِمَعْنَاهُ»؛

إذًا عبارات المفسرين تقرب المعنىٰ، ومجموع ألفاظهم يبيِّن معنىٰ اللفظ القرآني لمن يقرأ كتب التفسير أو من يأخذه بالمشافهة؛ وكلما أمكن أن تؤدي العلم إلىٰ الناس بألفاظ القرآن فإنه أقوىٰ في الإفادة.

وبهذا نعرف بلاغة القرآن التي لا نظير لها؛ لأنَّه كلام الله ربِّ العالمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «البلاغة هي علم المعاني والبيان، فيذكر من المعاني ما هو أكمل مناسبةً للمطلوب، ويذكر من الألفاظ ما هو أكمل في بيان تلك المعاني؛ فالبلاغة بلوغ غاية المطلوب أو غاية الممكن من المعاني بأتمِّ ما يكون من البيان، فيجمع صاحبها بين تكميل المعاني المقصودة وبين تبيينها بأحسن وجه».

وقال شيخ الإسلام[٢]: «فيذكر من المعاني ما هو أكمل مناسبة للمطلوب، ويُذكر من الألفاظ ما هو أكمل في بيان تلك المعاني».

ومن أوتي حسن البيان في تعليم الشَّرع؛ فهو من ورثة الأنبياء، ومُعلِّمي الخير، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١-٤]. فالعناية بالألفاظ الدالَّة علىٰ المعاني الصَّحيحة هو من العلم النافع، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «من الناس من تكون همَّته إلىٰ المعاني، ولا يوفِّيها حقَّها من الألفاظ المبيِّنة، ومن الناس من يكون

(١، ٢) تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٢٨٧).

(٣) تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٢٨٧، ٢٨٨).

مبيِّنًا لما في نفسه من المعاني، لكن لا تكون تلك المعاني محصِّلة للمقصود المطلوب في ذلك المقام».

وقال شيخ الإسلام: «وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ. فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩]؛ إِنَّ الْمَوْرَ هُوَ الْحَرَكَةُ. كَانَ تَقْرِيبًا؛ إِذِ الْمَوْرُ حَرَكَةٌ خَفِيفَةٌ سَرِيعَةٌ».

قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾؛ هذا يكون يوم القيامة؛ إذا أقام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القيامة؛ فينسف الجبال نسفًا، وتذهب هذه الأرض وتبدَّل ويذهب ما فيها من معالم وأنهار وأودية وجبال، والسماء أيضًا تمور مورًا وتتبدل؛ تمور يعني: تسير في حركة سريعة، وبعضهم قال: حركة سريعة فيها دوران. ولا أريد أن أشبهها بالإعصار، لكن حركة سريعة فيها دوران، وهذا من أهوال وأحوال يوم القيامة؛ أن الله عَزَّوَجَلَّ يبدِّل الأرض والسموات، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وهذا تبديل صفات وليس تبديلًا للذوات؛ فتصير الأرض يوم القيامة بيضاءَ كالفضَّة - كما في الحديث الموفوع إلىٰ النبي ﷺ في «صحيح مسلم» وغيره من كتب السُّنَّة - ليس فيها مَعْلَم لأحد، ولم يقع فيها معصية أبدًا.

أما السماء فورد عن عليٍّ وابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنها تكون ذهبًا، لكن لا أعرف في هذا شيئًا مرفوعًا عن النبيِّ ﷺ، وعليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أئمَّة التفسير، وكذلك ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من علماء التفسير، وما قالاه ليس ممَّا للاجتهاد فيه

مجال، وهما لا يُعرفان بالأخذ عن أهل الكتاب.

وبعض العلماء قال: أن السماء تكون يوم القيامة في الجنان.

علىٰ كل حال: قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾؛ هذا يكون يوم القيامة. وعبارات المفسِّرين حول معنىٰ «المور» تقريب للمعنىٰ؛ لأن هذا من أمور الغيب لا يُتجاوز فيها لفظ النصِّ وتفسيره من كلام النبيِّ ﷺ.

بقي بعد ذلك ما تفيده لفظة «المَوْر»، وهو ما ذكره شيخ الإسلام؛ قال: «الْحَرَكَةُ» وهي «حَرَكَةٌ خَفِيفَةٌ سَرِيعَةٌ»؛ فهذا تقريب للمعنىٰ؛ لذلك قال عن هذا البيان: كان هذا تقريبًا؛ يعني للمعنىٰ.

أما قوله تعالىٰ: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ الوحي هو إعلام خاصٌّ، وهذا يصحُّ أن يطلق علىٰ وحي النبوَّة، والوحي الذي ليس بنبوَّة؛ لأنَّ المعنىٰ العام الذي يشمله لفظ «الوحي»، هو الإعلام الخاص، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨]؛ فهذا إعلام خاص؛ ألهم الله عَزَّوَجَلَّ النحل كيف تصنع بيوتها، أما وحي النبوة فهذا خاصٌّ بالرسل - عليهم الصلاة والسلام -، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبينا محمد ﷺ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، وهذا الوحي - وحي النبوة والرسالة - ورد أيضًا بلفظ «أنزل»؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]؛ فهذا أخص من لفظ «الوحي»؛ وهذه اللفظة تستخدم في وحي النبوَّة.

فهذه عبارات المفسرين في تفسير الآية؛ بحيث تفهم من مجموع أقوال

المفسرين من أهل السنَّة والجماعة معناها.

ثم ذكر شيخ الإسلام مثالًا ثالثًا وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٤]؛ يعني: أَعْلَمْنَا؛ وهذا القضاء - كما ذكر العلَّامة عبد الرحمن السعدي - هو ما أوحي إلىٰ أنبياء بني إسرائيل أو إلىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ أنه سيقع الفساد في الأرض من بني إسرائيل، وكأنّ صفة هؤلاء القوم العتوُّ والظلم والتجبر والكبر والبغي بغير الحقِّ، والظلم والعدوان علىٰ النبيين وعلىٰ الخلق.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء: ٤، ٥]، يعني: إذا وقع منكم يا بني إسرائيل الظلم والعدوان والأذىٰ للناس؛ سلَّطنا عليكم من يظلمكم، وهذه سنَّة الله في خلقه جميعًا، ليست خاصَّةً لبني إسرائيل؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يظلم أحدًا، فسنته في الظالمين إذا عتوا وبغوا وظلموا أنه عَزَّوَجَلَّ يسلط عليهم من يظلمهم، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وتمام الآيات: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: ٦، ٧]؛ يعني: بعد أن مكنّاكم فظلمتم وعاديتم واعتديتم؛ سلَّط الله عليكم من يظلمكم، ثم رفع الله عنكم ذلك؛ لأن هذه سنَّة الله أيضًا في خلقه، قال

تعالىٰ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]. فأمدهم الله عَزَّوَجَلَّ بعد ذلك بأموال وبنين؛ أي: زادهم بسطة في المال والجسم وصاروا ذوي عدد وقوَّة وأموال؛ فعادوا لما كانوا عليه من الظلم! كأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ استَعْتَبهم فما استُعْتِبوا، فيسلِّط الله عليهم مرَّة أخرىٰ من يخرجهم من المسجد - والمراد بالمسجد في هذه الآية بيت المقدس -، وينتصر من ظلم اليهود.

فاليهود يستجلبون بظلمهم أسباب هلكتهم أو هزيمتهم، ولذلك فالله عَزَّوَجَلَّ إنما يبتلي المسلمين في بيت المقدس لاستخراج عبودية خلقه المسلمين في السراء والضراء، فلو جعل الله عَزَّوَجَلَّ المسلمين دائمًا في حال سرَّاء لصار إيمانهم عن طبع وليس عن تكليف، وهذا يضاد عبودية المخلوقين، نحن لسنا كالملائكة، فالملائكة خُلقوا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لكن البشر يبتلون بالسرَّاء والضرَّاء ليستخرج الله عَزَّوَجَلَّ عبوديتهم في الأحوال كلها، ويداول الله الأيام - وهذه سنته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين المؤمنين والكافرين -، ويجعل العاقبة والغلبة للمؤمنين إن أخذوا بأسباب العاقبة والغلبة، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

فالكفَّار عمومًا واليهود خصوصًا لو أُديلوا علىٰ المسلمين وتسلَّطوا عليهم بالظلم والعدوان فإنّ هذا التسليط تمحيص للمؤمنين، وسبب لمحق الكافرين، قال تعالىٰ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الله سبحانه إنَّما يعاقب الناس بأعمالهم، والكافر إذا كانت له حسنات أطعمه الله بحسناته في الدنيا، فإذا لم تبقَ له حسنة عاقبه بكفره، والكفَّار إذا أُديلوا يحصل لهم من الطغيان والعدوان وشدَّة الكفر والتكذيب ما يستحقُّون به المَحْقَ، ففي إدالتهم ما يمحقهم الله به».

ثم ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العرب في استعمالها للألفاظ تضمِّن الفعل معنىٰ الفعل الآخر، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [ص: ٢٤]، فهنا ليست (إلىٰ) بمعنىٰ (مع)، وإنما السؤال ضُمِّن معنىٰ الجمع والضم.

و«النعجة» هنا كما قال شيخنا ابن عثمين في تفسيره: «علىٰ ظاهرها»؛ لأن بعضهم فسَّرها بالمرأة، وابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمام متقن للغة ولألفاظ الشريعة، وتعرفون اللفظة واستعمال الشرع لها يبيِّن معناها؛ وهذا أحد المرجحات في تعيين المعنىٰ، فاستعمال الشرع للفظة في موارد القرآن - أي في آيه - في كل موضع؛ هذا يدلُّ علىٰ معنىٰ اللفظة في خطاب الشرع.

ومعنىٰ الآية يدلُّ علىٰ أن الشراكة في التجارة قد يحصل فيها سلب ونهب وظلم.

والمقصود: أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر قاعدة في معاني الفعل، وهو أنَّ الفعل يضمَّن معنىٰ فعل آخر، ويقول: هذا هو الصواب في هذا القول من جهة اللغة العربية؛ خلافًا لمن قرّر من النحويين أن حروف الجر ينوب بعضها عن

---

(١) تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ١٤٥).

بعض، ولذلك قال شيخ الإسلام في أنهار وعيون الجنة في قوله تعالىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]: الشرب ضُمِّنَ معنىٰ الرِّيِّ؛ أي شربٌ مع ريٍّ؛ ضُمِّن معنىٰ فعلين؛ واستُفِيد هذا من الفعل وما تعدىٰ به من حرف الجر ﴿يَشْرَبُ بِهَا ﴾، فالإنسان قد يشرب ماءً ولا يرتوي، لكن أنهار الجنة وسلسبيل الجنَّة فيها شرب وريٌّ، فضُمِّن الفعل وما تعدىٰ به معنىٰ الشرب والري وهذا من بلاغة ألفاظ القرآن.

وذكر شيخ الإسلام من أمثلة ما ضُمن من معاني الفعل معنىٰ فعل آخر: قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء: ٧٣] يعْنِي: يُزِيغُونَكَ وَيَصُدُّونَكَ، يعني: كاد الكفَّارُ يزيغون النبيَّ ﷺ فيقول علىٰ الله غير الحق؛ وحاشاه من ذلك؛ لأن النبي ﷺ مقامه مقام نبوَّة، وتبليغ ما أُوحي إليه؛ قال تعالىٰ: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، والكفار أرادوا منه أمورًا عظيمة في تحريف الشرع، كما قال الله عزوجل: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩].

وفي أسباب النزول ذكر المفسرون أقوالًا لا يصحُّ منها شيء، فبعضهم ذكر أنَّ ثقيفًا قالت للنبيِّ ﷺ: إن كنت تريدنا أن نسلم اترك لنا صنم اللات لا تقربه ولا تهدمه، واتركنا بلا صلاة؛ فاعفنا من الخمس صلوات في اليوم والليلة. هذا ما ذكره بعض المفسِّرين، لكن هذه الآية في سورة الإسراء وهي مكية، وثقيف إسلامهم متأخِّر، ففتح الطائف وإسلام ثقيف كان بعد فتح مكة؛ أي بعد الهجرة قطعًا.

وبعض المفسِّرين قال: ودُّوا أن تتبرك بأصنامهم. وليس هناك شيء يصح في ذلك فيستند إليه.

وبعض المفسِّرين قال: إنّ ذلك كان من النبيّ ﷺ خاطرة، ولم يكن عزمًا، فعاتبه الله عَزَّوَجَلَّ.

والله عَزَّوَجَلَّ تكفَّل بحفظ القرآن والوحي وتبليغه، فثبَّته الله عَزَّوَجَلَّ في قلب النبيِّ ﷺ، وحفظه من وساوس الشيطان. و«تفسير العلامة عبد الرحمن السعدي» المعروف بنقاوته؛ لم يذكر شيئًا من هذه الأقوال لضعفها، وهذا فائدة التفاسير المحرَّرة؛ أنها تنقي التفسير وتذكر القول الصحيح، دون الأقوال الخاطئة، والتي لو ذُكرت فإنَّما تُذكر للتحذير.

وفي هذا موعظة لنا جميعًا، فعلىٰ الإنسان أن يسأل الله التثبيت، خصوصًا فيما يبلِّغه عن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ من العلم النافع والوحي، والأقوال والاعتقادات والمناهج، وإياك أن تقول فيها علىٰ الله الكذب، قال تعالىٰ: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقَّة: ٤٤-٤٦]، هذا أمر عظيم فاحذروه؛ فقد رأيتم خوض المتعالمين والمغرضين والمصانعين للكفرة والمجوس والعلمانيين، فكل منهم جاء بما يفتري به الكذبَ علىٰ شرع الله ودين الله، كقول القائل: الحرية قبل الشريعة! وهذا لا يقوله أحد يعرف شرع الله عَزَّوَجَلَّ ويخلص لله في قوله، ويوافق حكم الله فيما يبلِّغه عن الله، فلا يصدر هذا ممن نصب نفسه لتعليم العلم النافع فضلًا عمن يريد الإصلاح للأمَّة والخير لها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ [يونس: ٦٩]؛ لذلك فملاحدة المبتدعة في خَسارٍ؛ ضلُّوا في دينهم، وباعوا آخرتهم بدُنيا الكافرين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

ثم اعلم يقينًا أن كل من قصد تحريف الشرع في ألفاظه أو معانيه دُحِضَ وخُصِمَ؛ **أولًا**: لأن الباطل لا يمكن أبدًا أن يقوم عليه دليل صحيح من القرآن والسنَّة.

ثانيًا: لأن الله تكفَّل بحفظ الدين، فمهما أوتيت من حذق في تلبيس الحقِّ بالباطل فالله عَزَّوَجَلَّ حافظ دينه، والناس - والحمد لله - عندهم من الفطرة والمعرفة بالإسلام ما يعرفون به إفْكَ قول الكاذبين، وهو قول من باع دينه، فمن يعرف شرع الله لا يمكن أن يقول: الحرية قبل الشريعة. وإلا فلماذا أوحىٰ الله لنبينا ﷺ هذا القرآن، ولماذا جعله الله عَزَّوَجَلَّ حُجَّة علىٰ خلقه، فالله تكفل بحفظ دينه؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فمهما حاول المبتدعة أن يُحرِّفوا الكلم عن مواضعه، فالله ناصر دينه، وقد تكفل سبحانه بحفظ دينه فلابُدَّ أن يقيم من عباده من يرد باطل المبتدعين، قال النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين علىٰ الحقِّ، لا يضرُّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ يأتي اللهُ بأمره**»، رواه البخاريُّ ومسلم.

ثم ذكر شيخ الإسلام من أمثلة تضمين الفعل معنىٰ فعل آخر، فقال: «وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ [الأنبياء: ٧٧]»؛ فقوله: «نصرناه» فيه معنىٰ الإنجاء من أذىٰ الكافرين والمشركين والمعاندين للشرع، وأيضًا فيه معنىٰ إظهار الحق.

ثم ذكر من أمثلة التَّفسير بتقريب المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]؛ أي القرآن، فبعضهم فسَّر «الريب» بأنه لا اضطراب فيه، فهو من جهة اللفظ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فألفاظه أحسن الألفاظ، وكذلك معانيه محكمة، فالقرآن كلُّه مؤتلف، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، لكنّ الجاهلين يظنون أن فيه تعارضًا؛ وهذا إما من قلة علمهم، أو من سوء قصدهم، أو من الاثنين؛ تعالم مع سوء قصد.

والقرآن في اللوح المحفوظ قال الله عنه: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢]؛ باسم الإشارة للبعيد؛ فهذا معناه التفخيم والتعظيم لهذا القرآن فهو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فلا شكَّ في عظم شأنه.

وذكر شيخ الإسلام من الأمثلة أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿أَن تُبْسَلَ﴾، وتمام الآية: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ٧٠]؛ يعني تحبس وتُرتهن؛ فكل إنسان يُحبس يوم القيامة بعمله؛ قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨]؛ يعني يؤاخذ الإنسان بعمله، إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ **في الحديث القدسي: «إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفِّيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»**، رواه مسلم من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ فيما رواه عن ربه.

فقوله تعالىٰ: ﴿أَن تُبْسَلَ﴾ [الأنعام: ٧٠]، من المفسِّرين من فسره بـ«تُحبس»، ومنهم من فسره بـ«تُرتهن»، وكل هذه عبارات تقرِّب المعنىٰ.

فالحاصل: أن شيخ الإسلام ذكر عبارةً مهمة، تبيِّن منهجيَّة طلب معاني التفسير حيث قال: «جَمْعُ عِبَارَاتِ السَّلَفِ فِي مِثْلِ هَذَا نَافِعٌ»، فإنَّك إذا جمعت عبارت السلف كلها في تفسير اللفظة أو الآية اتضح لك المعنىٰ أكثر، وهذا لا شكَّ فيه، فإذا قرأت في التفسير قول ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وقول ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأيضًا قول ابن عباس بالروايات عنه، فتجد سعيد بن جبير يروي عنه رواية، وطاوس رواية أخرىٰ، وعكرمة رواية، ومجاهد رواية، ومجموع هذه الروايات يبيِّن لك المعنىٰ أكثر وأكثر.

إذًا هذه منهجية أن تجمع عبارات المفسرين من السلف في الآية فيظهر لك من معناها ما يوضحها علىٰ أحسن ما يكون.



ثم قال المصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

[وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ عَامَّةَ مَا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ عُمُومُ النَّاسِ مِنَ الِاخْتِلَافِ مَعْلُومٌ - بَلْ مُتَوَاتِرٌ - عِنْدَ الْعَامَّةِ أَوِ الْخَاصَّةِ؛ كَمَا فِي عَدَدِ الصَّلَوَاتِ، وَمَقَادِيرِ رُكُوعِهَا، وَمَوَاقِيتِهَا، وَفَرَائِضِ الزَّكَاةِ وَنُصُبِهَا، وَتَعْيِينِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَالطَّوَافِ وَالْوُقُوفِ، وَرَمْيِ الْجِمَارِ، وَالْمَوَاقِيتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

ثُمَّ اخْتِلَافُ الصَّحَابَةِ فِي الْجَدِّ وَالْإِخْوَةِ، وَفِي الْمُشَرَّكَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، لَا يُوجِبُ رَيْبًا فِي جُمْهُورِ مَسَائِلِ الْفَرَائِضِ.

بَلْ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ عَامَّةُ النَّاسِ هُوَ عَمُودُ النَّسَبِ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ، وَالْكَلَالَةِ مِنَ الْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ، وَمِنْ نِسَائِهِمْ كَالْأَزْوَاجِ؛ فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِي الْفَرَائِضِ ثَلَاثَ آيَاتٍ مُفَصَّلَةً، ذَكَرَ فِي الْأُولَىٰ: الْأُصُولَ وَالْفُرُوعَ، وَذَكَرَ فِي الثَّانِيَةِ: الْحَاشِيَةَ الَّتِي تَرِثُ بِالْفَرْضِ كَالزَّوْجَيْنِ وَوَلَدِ الْأُمِّ، وَفِي الثَّالِثَةِ: الْحَاشِيَةَ الْوَارِثَةَ بِالتَّعْصِيبِ؛ وَهُمُ الْإِخْوَةُ لِأَبَوَيْنِ أَوْ لِأَبٍ، وَاجْتِمَاعُ الْجَدِّ وَالْإِخْوَةِ نَادِرٌ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَقَعْ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَالِاخْتِلَافُ قَدْ يَكُونُ لِخَفَاءِ الدَّلِيلِ، أَوْ لِذُهُولٍ عَنْهُ، وَقَدْ يَكُونُ لِعَدَمِ سَمَاعِهِ، وَقَدْ يَكُونُ لِلْغَلَطِ فِي فَهْمِ النَّصِّ، وَقَدْ يَكُونُ لِاعْتِقَادِ مُعَارِضٍ رَاجِحٍ؛ فَالْمَقْصُودُ هُنَا التَّعْرِيفُ بِجُمَلِ الْأَمْرِ دُونَ تَفَاصِيلِهِ].

الشَّرح:

هذا الكلام الذي ختم به شيخ الإسلام هذا الفصل مهمٌّ جدًّا في فهم منهجية

ما يُنقل عن السلف من العلم، فبعد أن ذكر توجيه كلام السلف في تفسير معاني القرآن، ذكر اختلاف السلف واتفاقهم في الأحكام، فقال: عامَّة مسائل الأحكام متَّفق عليها بين الصحابة، والاختلاف بينهم يسير جدًّا، لا يكاد يُذكر، وأخذ يذكر لذلك أمثلة.

وهذا خلاف المنهج الذي عليه غير المحقِّقين لنوع ومقدار اختلاف السلف؛ يُضخم المسائل الخلافية بين الصحابة في الأحكام، وكأنّه يريد أن يجعلها كثيرة جدًّا، ويريد أن يجعل مسائل الاتفاق والإجماع قليلة جدًّا. وإذا حررتَ مسائل الفقه بالمنهجية الصحيحة يتبين لك أن مواضع الاتفاق أكثر، وهي عامَّة مسائل الأحكام، ومواضع الخلاف يسيرة جدًّا إذا ما قورنت بمواضع الاتفاق، وهذا نبَّه عليه شيخ الإسلام بتفصيل أكثر في أول كتاب «الاستقامة».

وهنا ذكر شيخ الإسلام أمثلةً لذلك: فالصلوات: عددها ومقادير ركوعها وسجودها متَّفق عليها، ثم ذكر فرائض الزكاة ونصبها فهي متفق عليها كلها.

والخلاف الذي وقع في بعض مسائلها كزكاة عروض التجارة؛ وقع بعد عهد الصحابة، وإلا فعامَّة الصحابة كانوا يقولون بوجوب الزكاة في عروض التجارة؛ لأن غالب أموال الصحابة كانت بالتجارة، قال تعالىٰ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ** ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وأموال التجارة من جملة طيِّبات ما كسبنا التي أمرنا الله بإخراج زكاتها.

ومن هنا إذا تدبّرت مسائل الخلاف وأخذتها عن طريق الصحابة أولًا؛ فهذا

فيه صيانة لعلمك عن الضلال والبدع، وعن الأقوال المحدثة، وأيضًا فيه قوَّة لعلمك؛ لأنك أخذت من المعدن الأول الذين تلقَّوا العلم عن النبي ﷺ.

ولأنك أيضًا تنظر في خلاف المتأخِّرين في ضوء اتفاق المتقدِّمين، فلا يعتبر الخلاف الواقع بعد إجماع الصحابة، وبعض الفقهاء كالحنفية يخالف إجماع الصحابة المتقدم، مثل روث وبول ما يؤكل لحمه كالأبل والغنم، هذا عند الصحابة بالإجماع طاهر، وعند الحنفية من المتأخرين نجس، وهو خلاف الصَّحيح الذي عليه إجماع الصحابة السَّابق من القول بطهارته.

وذكر شيخ الإسلام أيضًا تعيين شهر رمضان وأحكام الصيام، فمسائله متَّفق عليها، وكذلك الحجُّ فمسائله متفق عليها، ولا يكاد يوجد فيها من الخلاف إلا الشيء اليسير.

ثم ذكر شيخ الإسلام أمثلة من خلاف السابقين: «اخْتِلَافُ الصَّحَابَةِ فِي الْجَدِّ وَالْإِخْوَةِ»؛ فهذا من المسائل التي اختلف فيها الصحابة، في الفرائض - يعني المواريث -، وعامَّة مسائل المواريث قد اتفق عليها الصحابة؛ كما ذكر شيخ الإسلام هنا؛ كميراث الزوجين وميراث الآباء وميراث الأبناء؛ فهؤلاء يرثون بكل حال، وأمَّا ميراث الحواشي فكما في الحديث: «**فما بقي فلأولىٰ رجل ذَكَرٍ**» يعني: بعد توزيع إرث أصحاب الفروض: يُعطىٰ العصبة نصيبهم من الإرث، فمسائل قسمة التركات كلُّها مسائل اتفاق وإجماع بين الصحابة، لكن وقع خلاف بين الصحابة في مسألة توريث الجدِّ مع الإخوة، والجد هو الجد لأب

يعني أبُ الأبِ، وهذا إذا كان الأب متوفًّى، أمَّا إذا كان الأب حيًّا فإنه يُحجب الجد ولا يرث الجد مع وجود الأب. فإذا كان أبو الميِّت متوفًّى، وجده حيٌّ، وللميت أيضًا إخوة؛ فالصحيح هو قول أبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الجد بمنزلة الأب، فهو أب أب، فيرث ويحجب الإخوة، فلا يرثون في وجود الجد. وهذه المسألة وقع فيها خلاف بين الصحابة، لكن البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ قال في صحيحه: إن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن الجد أبٌ، قال: ولا يُعرف له مخالف في عهده؛ كأنه إجماع سابق من أكابر الصحابة[1]، لكن بعد ذلك وقع الخلاف من بعض الصحابة، ففي رواية عن عُمر وعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ الإخوة تورّث مع الجد، لكن مذهب بضعة عشر صحابيًّا ومنهم من هم من علماء الصحابة كعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو مذهب أبي حنيفة ورواية عن الإمام أحمد، وترجيح شيخ الإسلام المجدِّد محمَّد بن عبد الوهَّاب والعلامة عبد الرحمن السعدي، والعلامة ابن باز، والعلامة ابن عثيمين رحمهم الله كمذهب أبي بكر.

وقد استدلَّ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **وابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **بقوله تعالى:** ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فآدم أبونا كلُّنا، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: ٧٨]، فبنو إسماعيل كلُّهم من ذريَّة إبراهيم عَلَيۡهِ السَّلَامُ.

فهذه مسألة واحدة في مقابل مسائل الاتفاق من بقية مسائل الفرائض

---

(١) الصحابة طبقات في السبق والعلم، قال تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِى عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾.

والمواريث، فهكذا يُفهم الفقه.

وشيخ الإسلام له منهجيَّة في عرض الفقه؛ ففي الفرائض جمع الأدلَّة التي ترجع إليها كل مسائل المواريث؛ وهذا أحسن ما يكون في منهجية تعليم طالب العلم؛ أن تبيِّن له – أولًا – الأدلَّة التي تجمع كل مسائل فقه الموضوع، فذكر في أدلة الفرائض آيتين في أول سورة النساء، وآية الكلالة: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ [النساء: ١٧٦]، وذكر حديث: «**ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولىٰ رجل ذكر**»، فهذا الحديث مع الآيات الثَّلاث في المواريث تجمع أكثر مسائل المواريث، فهكذا التعليم.

وهكذا قال العلماء في شرح أحكام سجود السَّهو: أحكامُ سجود السهو ترجع إلىٰ خمسة أحاديث، مع أن فيها أحاديث غيرها، لكن من جهة تحرير الرواية ومرجع كلِّ الأحاديث إلىٰ المعنىٰ الذي يبيِّن كل أحكامها، هي أحاديث خمسة.

وهكذا لو أخذ طالب العلم الفقهَ بهذه المنهجيَّة فيتيسَّر عليه فقه المسائل، ويتيسَّر عليه أيضًا تعليم الناس، والتعليم بهذه المنهجية أقرب إلىٰ الفهم للمتعلِّمين.

ثم ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أسباب اختلاف العلماء:

فقال: «قَدْ يَكُونُ لِخَفَاءِ الدَّلِيلِ»؛ فأحيانًا بعض العلماء يفوته الدليل، أو يكون لم يبلغه، وهذا من أسباب مخالفته للعلماء، ومن أمثلة خفاء الدَّليل: ما وقع للصحابة عندما كانوا في غزوٍ ووصلوا إلىٰ سرغ، وهو وادٍ في تبوك أو قريب منها، وبلغهم أن الطاعون وقع في الشَّام، فشاور عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ الصحابة ولم يستبدَّ

بالقول دونهم، وأراد أن يستظهر إنْ كان عند أحدهم نصٌّ عن النبي ﷺ فيأخذ به، فاستشارهم: هل يذهبون إلىٰ الشام وفيها الطاعون أم يرجعون؟ فعامَّة الصحابة لم يكن عندهم دليل لخفاء الدليل، وكان عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ متغيِّبًا في حاجة له، فلم يكن حاضرًا وقت المشورة، فلما جاء قال: إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا وقع الطاعون بأرض قوم فلا تقدموا عليهم، وإذا وقع في أرضكم فلا تخرجوا منها**»، رواه البخاري.

فأخذ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بقول النبيِّ ﷺ، فهنا خفي الدليل علىٰ أكثر الصحابة، والذي عنده الدليل نصح للأمَّة وبيَّنه، وكان في هذه المسألة عبد الرحمن بن عوفٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو من السابقين من الصحابة.

وقال شيخ الإسلام في أسباب الخلاف: «أَوْ لِذُهُولٍ عَنْهُ»؛ أي عندهم الدليل ويعرفونه، لكن أصابهم الذهول عن الشيء الذي يعرفونه.

مثال ذلك: عندما مات النبيُّ ﷺ وذهل أكثر الصحابة عن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤] حتىٰ ذكَّرهم بها الصدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يقول الراوي من الصحابة: لمَّا تلاها أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خرج الناس يتلونها في سكك المدينة؛ كأنها أنزلت للتوِّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الناس تغيب عنهم معاني القرآن عند

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٣٦٣).

الحوادث، فإذا ذُكِّرُوا بها عرفوها».

وقال العلامة أبو المظفر يحيىٰ بن محمد بن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فيه من الفقه أنَّ القرآن وحي مجدد كلما سُمع».

وقول العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن القرآن: «وحي مجدد»؛ هو من معنىٰ قوله تعالىٰ عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «التذكُّر يفيد تكرار القلب علىٰ ما علمه وعرفه؛ ليرسخ فيه ويثبت، ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة».

وقال ابن القيم أيضًا[(٣)]: «يُسمَّىٰ: تذكُّرًا؛ لأنَّه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]».

ثم قال شيخ الإسلام في ذكر أسباب الاختلاف: «وَقَدْ يَكُونُ لِعَدَمِ سَمَاعِهِ»، وهذا يعتبر تفصيلًا لخفاء الدليل.

وذكر شيخ الإسلام من أسباب الاختلاف الخطأ في الفهوم؛ حيث قال: «وَقَدْ يَكُونُ لِلْغَلَطِ فِي فَهْمِ النَّصِّ»، فالبعض يعرف الدليل لكنّ فهمه له غير صحيح، مثال ذلك: ما حدث لعديِّ بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (١/ ١٧٨).
(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٥٢٥).
(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٢٤).

﴿يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فعدي بن حاتم - خلافًا لبقيَّة الصحابة - فهم الخيط باللغة العُرفية عنده، فجعل تحت وساده عقالين أسود وأبيض، وكان يأكل ويشرب حتىٰ يظهر له هذا من هذا، فجاء وأخبر النبيَّ ﷺ بذلك فقال له النبيُّ ﷺ: «**إنّ وسادك لعريض، إنما هو بياض الفجر وسواد الليل**»، وتمام الآية يدلُّ علىٰ أن المراد هذا المعنىٰ الشرعي وليس اللفظ العرفي؛ قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فالخيط الأبيض ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ إنَّما هو بياضه. واستطال الزمخشري المعتزلي بسبب ذلك علىٰ صحابيّ رسول الله ﷺ، وقال: قوله: «**إن وسادك لعريض**» كناية عن البلادة والغباء. وهذا من سوء أدبه مع الصَّحابة والعدوان عليهم، فينبغي مراعاة مقام الصحابي، والعصمة ليست لواحد من الصحابة، إنّما العصمة لمجموع الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، لقوله ﷺ: «**لا تجتمع أُمَّتي علىٰ ضلالة**»، والنبيُّ ﷺ هو المرجع في تبيين المعاني إذا أخطأ البعض فيها، وعامَّة الصحابة - والحمد لله - فهموا النصَّ علىٰ ما هو عليه.

وعدي بن حاتم - علىٰ عكس ما ذكره الزمخشري - له مقامٌ مع قومه عندما امتنعوا عن دفع الزكاة يدلُّ علىٰ ذكائه؛ فقد احتال عليهم وأخذ قلائص الإبل حتىٰ خرج بها خارج ديار قومه، ثم ذهب بها إلىٰ أبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وتفصيل ذلك لا يتَّسع له المقام، لكن المقصود التنبيه إلىٰ توقير الصحابة، ولا يتَّخذ من خطأ أحدهم ذريعة للسبِّ، فهذه ليست طريقة الخيار والناصحين.

والمعتزلي بلادة فهمه أضلَّته عن توقير الصَّحابة، وعن عدم تلقي الدين

عنهم، وبسببه زاغ في بدعة الاعتزال المكفِّرة.

وقال شيخ الإسلام في أسباب الاختلاف: «وَقَدْ يَكُونُ لِاعْتِقَادِ مُعَارِضٍ رَاجِحٍ»؛ وقد يكون الاعتراض مرجوحًا؛ من ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**وإنِّي حرّمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكَّة**» متَّفق عليه؛ يعني: سأل النبي ﷺ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن يجعل المدينة حرمًا كما أنَّ مكَّة حرم، ومكَّةُ الذي حرّمها هو الله عَزَّوَجَلَّ بدعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فالتحليل والتحريم من الله عَزَّوَجَلَّ، والنبيُّ ﷺ سأل الله أن يحرِّم المدينة كما حرَّم مكة، والحديث رواه البخاري ومسلم، وهو بهذا المعنىٰ متواتر من رواية خمسة وعشرين صحابيًّا أو أكثر، قال النبي ﷺ: «**ما بين لابتيها حرام**»؛ يعني: ما بين الحرة الشرقية والحرة الغربية حرام، فالأحاديث متعاضدة علىٰ هذا المعنىٰ، وإن كان هناك فروق بين الحرمين المكي والمدني لا شك في ذلك، مثل أن من أراد النُّسك من حجٍّ أو عمرةٍ فلا يدخل مكة حتىٰ يحرم، وليس ذلك في المدينة.

وجاء في حديث: «**يا أبا عُمير ما فعل النُّغير**»، والنغير طائر كان يلعب به طفل صغير فمات في يده، والطفل لم يقصد إلىٰ هلاك الطير، فهو ليس كالمرأة التي قال فيها النبيُّ ﷺ: «**دخلت امرأة النار في هرة حبستها، لا هي التي أطعمتها، ولا هي التي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»؛ فهي حبستها، لكن الغلام لم يقصد أذيَّة الطير لكن مات في يده، فكان النبي ﷺ يواسيه تطييبًا لخاطره.

فاعترض البعض بهذا الحديث علىٰ مدلول قوله ﷺ: «**المدينة حرم**»، وقالوا: هذا الغلام قد أمسك الطير بالمدينة؟!

قال ابن القيم: «لعل هذا الطير صيد خارج الحرم، ثمَّ أُدخل إلىٰ الحرم»، فيُوجّه هذا الحديث بما يتوافق مع دلالة الحديث المتواتر من رواية خمسة وعشرين صحابيًّا.

فمن المنهج في طلب العلم والفقه أن تجمع الأدلَّة، ومن مجموع الأدلة وتعاضدها علىٰ معناها تدفع الأقوال الضعيفة والمرجوحة فضلًا عن الأقوال المبتدعة، هذه طريقة الراسخين في العلم، أمّا المتعالم فيضرب الأحاديث بعضها ببعض، ولا يعرف المعارض المرجوح من المعارض المساوي.

فهذا فيه بيان منهجية تلقي العلم، ومعرفة الأقوال الصحيحة من الأقوال المرجوحة، والله أعلم.



ثم قال المصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

[فَصْلٌ: الِاخْتِلَافُ فِي التَّفْسِيرِ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ: مِنْهُ مَا مُسْتَنَدُهُ النَّقْلُ فَقَطْ، وَمِنْهُ مَا يُعْلَمُ بِغَيْرِ ذَلِكَ؛ إِذِ الْعِلْمُ: إِمَّا نَقْلٌ مُصَدَّقٌ، وَإِمَّا اسْتِدْلَالٌ مُحَقَّقٌ.

وَالْمَنْقُولُ: إِمَّا عَنِ الْمَعْصُومِ، وَإِمَّا عَنْ غَيْرِ الْمَعْصُومِ.

وَالْمَقْصُودُ بِأَنَّ جِنْسَ الْمَنْقُولِ - سَوَاءٌ كَانَ عَنِ الْمَعْصُومِ أَوْ غَيْرِ الْمَعْصُومِ، وَهَذَا هُوَ النَّوْعُ الْأَوَّلُ - مِنْهُ مَا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ الصَّحِيحِ مِنْهُ وَالضَّعِيفِ، وَمِنْهُ مَا لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ فِيهِ.

وَهَذَا الْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ الْمَنْقُولِ - وَهُوَ مَا لَا طَرِيقَ لَنَا إِلَىٰ الْجَزْمِ بِالصِّدْقِ مِنْهُ - عَامَّتُهُ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ؛ فَالْكَلَامُ فِيهِ مِنْ فُضُولِ الْكَلَامِ.

وَأَمَّا مَا يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ نَصَبَ عَلَىٰ الْحَقِّ فِيهِ دَلِيلًا.

فَمِثَالُ مَا لَا يُفِيدُ، وَلَا دَلِيلَ عَلَىٰ الصَّحِيحِ مِنْهُ: اخْتِلَافُهُمْ فِي لَوْنِ كَلْبِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَفِي الْبَعْضِ الَّذِي ضَرَبَ بِهِ مُوسَىٰ مِنَ الْبَقَرَةِ، وَفِي مِقْدَارِ سَفِينَةِ نُوحٍ، وَمَا كَانَ خَشَبُهَا، وَفِي اسْمِ الْغُلَامِ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَهَذِهِ الْأُمُورُ طَرِيقُ الْعِلْمِ بِهَا النَّقْلُ، فَمَا كَانَ مِنْ هَذَا مَنْقُولًا نَقْلًا صَحِيحًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَاسْمِ صَاحِبِ مُوسَىٰ أَنَّهُ الْخَضِرُ؛ فَهَذَا مَعْلُومٌ، وَمَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، بَلْ كَانَ مِمَّا يُؤْخَذُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَالْمَنْقُولِ عَنْ كَعْبٍ، وَوَهْبٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَأْخُذُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ فَهَذَا لَا يَجُوزُ

تَصْدِيقُهُ وَلَا تَكْذِيبُهُ إِلَّا بِحُجَّةٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، فَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوهُ، وَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوهُ»].

الشَّـرْح:

هذا الفصل في ذكر قواعد نافعة في تحرير المنقول في التَّفسير، فذكر شيخ الإسلام أنَّ المنقول في التفسير - يعني في كتب التفسير - إمَّا نقل - أي رواية - فهذه الرواية إمَّا أن أن تكون عن المعصوم ﷺ أو عن غير معصوم؛ يعني من علماء الصحابة، والتابعين.

والنقل لابُدَّ فيه من أمرين: تحرير المنقول، وتمييز الروايات الصَّحيحة من الضعيفة، وهذا الفصل أكثر قواعده في ذلك. وذكر شيخ الإسلام أيضًا أن بعض المنقول في التفسير هو استدلال محقَّق؛ يعني: أن ألفاظ القرآن تدلُّ علىٰ معانٍ، وما يذكره العلماء من المعاني التي تدل عليها ألفاظ القرآن هو مِن تدبُّر القرآن، إن كان الاستدلال محققًّا.

وأفادنا شيخ الإسلام بقوله: «اسْتِدْلَالٌ مُحَقَّقٌ»، أنَّ من قال في القرآن بما لا يدلُّ عليه لفظه، ولا معناه في سياقه، ولا ما هو ممَّا قاله السابقون الأولون، وانفرد عنهم بما يخالف معاني القرآن؛ أنّ استدلاله غير محقق؛ يعني: مردود، وهو من الخطأ في تفسير القرآن، وسيذكر شيخ الإسلام قواعد في كلِّ هذه الأمور، وقبل أن يبدأ في ذكر قواعد تمييز المرويَّات والكلام في الاستدلال المحقَّق ذكر قاعدةً

مهمَّةً وضروريةً في التفسير، وهي: «وجوب العناية بِصُلَبِ علم التفسير، والالتفات عن فضوله».

ومن صلَب العلم: علم العقيدة، وعلم الفقه، وعلم التفسير، وعلم الحديث؛ يعني معانيه - ولابد من الاستدلال علىٰ ثبوت الأحاديث بتمييز المرويَّات، وهذا من علم الوسائل -.

أما علم أصول الفقه، وعلم القواعد الفقهيَّة، وعلم النحو، وعلم الجرح والتعديل، وعلم تمييز المرويَّات؛ هذا من وسائل العلم، لكن بعض الوسائل ضرورية؛ فلا يمكن أن تستنبط الأحكام الشرعيَّة من أدلَّتها إلا بمعرفة أصول وقواعد الفقه، ودلالات الألفاظ.

وعلم أصول الفقه المقصود به أصول استدلال الصحابة، لا قواعد المتكلِّمين والمعتزلة وفروعهم، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أصول الفقه، القدر الذي يتوقَّفُ فهمُ الخطاب عليه منه تجب معرفته، دون المسائل المقدَّرة والأبحاث التي هي فَضْلة».

وكذلك الكلام في معاني الأحاديث لابُدَّ أولًا من معرفة ثبوتها من ضعفها، وهذا ضرورة في علم التَّصحيح والتَّضعيف وتخريج الأحاديث، وقد كفانا جملة من العلماء مؤونة ذلك أو أكثره.

وأيضًا كتب التفسير وكلام الشارحين لمعاني الآيات ستجد فيه من كلام

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٥٠).

بعض المفسرين عناية بصلب التفسير، وبعضه من فضول التفسير؛ فاعتنِ بالأصول وأعرضْ عن الفضول؛ لا تصرف همتك إليه؛ لأن هذا العلم به لا ينفع والجهل به لا يضر، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثالين:

- **المثال الأول**: لون كلب أصحاب الكهف - الذي تكلم فيه بعض المفسرين -؛ فالله عَزَّوَجَلَّ ذكر قصَّة أصحاب الكهف في القرآن، لكن ذكر المهمَّ منها، وهو أن الله نجَّاهم بدينهم وعقيدتهم، وحَفِظ لهم توحيدهم، وكفاهم شرَّ من قصد إفساد دينهم، وذكر الله عَزَّوَجَلَّ عدَّتهم؛ فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [الكهف: ٢٢]؛ تنبيهًا إلىٰ أنَّ هذا العلم غير مهمٍّ؛ سواء كانوا ستَّة أو سبعة أو أكثر من ذلك أو أقل، قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾ [الكهف: ٢٢]؛ يعني: لا تخُض في هذا مع غيرك، ولا تجعل ذلك سببًا للمراء ولا في الاستفتاء في عددهم.

ومن حشو الكلام وفضول الشارحين لقصة أصحاب الكهف خوضهم في لون ونوع كلبهم، وهذا لا فائدة في معرفته، والمقصود هو معرفة معاني قصة أصحاب الكهف.

إذًا فضول التفسير إنَّما هو في كلام المفسِّرين أنفسهم؛ وليس في القرآن فضول، بل كلُّه وحيٌ مُحْكَمٌ، ونوع الكلب ولونه لم يجعله الله سببًا في زيادة الإيمان، ولا الموعظة به، ولكن ذكر الله كيف نجَّىٰ أصحاب الكهف من الكفار بعد أن أرادوا إكراههم علىٰ الكفر، وفي فوائد ذلك: أنَّ من تولَّىٰ الله فإنّ الله يتولَّاه

حفظًا، وتدبيرًا، ورزقًا، ونصرًا، وتأييدًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] فالمقصود: أن تعتني بصُلَبِ العلم ولا تشتغل بفضوله.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ينبغي لطالب العلم أن يعتني بمعنىٰ القصة وغرضها».

وبسبب العناية بالفضول دخلت الإسرائيليات علىٰ كتب التفسير؛ لأن هذا العلم لم يرد الله عَزَّوَجَلَّ أن يعلمنا إياه لعدم أهميَّته؛ لأنَّ الله أكمل الدين من دونه، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وتجاوز الفضول معرفة ما لا يضر الجهل به إلىٰ طلب معرفة تلك الأمور - التي هي من فضول العلم - عن طريق الإسرائيليات؛ فزاد الانحراف في طلب الفضول. وهذا لا أثر له في فهم القرآن، ولسنا في حاجة إلىٰ حرف واحد ممَّا في الإسرائيليات؛ كما قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره».

وكلام ابن كثير هذا فيه بيان أن من منهجه في «تفسيره» عدم التعويل علىٰ الإسرائيليات، وقد أخطأ بعض من تكلَّم في نقد كتب التفسير ممن ليس له شأن في علم التفسير ولا في صحيح الاعتقاد؛ فزعم أن «تفسير ابن كثير» فيه إسرائيليات!

فـ«تفسير ابن كثير» من أنقىٰ كتب التفسير، وهو الذي يقول: «ليس بنا حاجة إلىٰ حرف واحد مما في الإسرائيليات»، وما ذكره من الإسرائيليات إنما ذكره ليردَّ

---

(١) تفسير سورة البقرة (١/ ٢٤٤).

عليهم، أو ذكر ما كان متعاضدًا مع ما صحّ في شريعتنا.

ومن أنقىٰ كتب التفسير التي التزمت هذا المنهج الذي نبَّه عليه شيخ الإسلام، ولم يكن فيه شيء من الإسرائيليات البتة: تفسير العلَّامة عبد الرحمن السعدي، وتفسير شيخنا العلامة محمد العثيمين، رحمهما الله تعالىٰ.

وقول شيخ الإسلام: «وَفِي الْبَعْضِ الَّذِي ضَرَبَ بِهِ مُوسَىٰ مِنَ الْبَقَرَةِ»؛ أي: ومن خوض بعض المفسرين في الفضول خوضهم في البعض الذي ضُرِبَ به قتيل موسىٰ من البقرة.

فقتيل موسىٰ اختلف بنو إسرائيل في قاتله، فأُمروا أن يضربوا القتيل ببعض البقرة، ما هذا البعض؟ هل هو من الفخذ، أو من الذراع أو غير ذلك من أجزاء البقرة؟ فهذا لم يبيِّنهُ الله، ولا أثر له في زيادة الإيمان، فليس لنا حاجة إلىٰ تعيين هذا البعض، فهو إذًا من فضول العلم.

فلا يكن شأنك في طلب معاني القرآن فضول العلم الذي لا تنتفع به، فعليك العناية بصُلَب التفسير.

وقول شيخ الإسلام: «وَفِي مِقْدَارِ سَفِينَةِ نُوحٍ، وَمَا كَانَ خَشَبُهَا»، فماذا يفيدك هذا؟!

لكن المستفاد من قصة نوح: الدلالة علىٰ أهمية صناعة السفن، وهدي نوح في الدعوة إلىٰ التوحيد، وبذله الجهد ليلًا ونهارًا في الدعوة إلىٰ الله؛ حيث لم يكلَّ ولم يملَّ في تبليغ دعوة التوحيد، وبلغ الغاية في الدعوة، وفيه أيضًا تثبيت للموحدين والمؤمنين والصالحين وتسلية لهم عن شنآن الكافرين والمبتدعين

والفاجرين والظالمين والمُؤْذِين، ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: ٣٨]؛ ونحن - والحمد لله - في غنًىٰ عن السخرية من أحد، لكن هذه عاقبة الظالم بسخريته بالناس وأذاهم والعدوان عليهم، خصوصًا لقيامهم بأداء العلم ونصرة التوحيد والسنَّة، وردِّ البدع والضلالات والأهواء؛ فالله عَزَّوَجَلَّ يكفيكم سخرية الظالم، والله يريكم عاقبته، كما أرىٰ الله الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بعدما نالهم ما نالهم من الأذىٰ في مكَّة، ثم جعل الله العاقبة لهم.

وهكذا في كلِّ طبقة من طبقات العلماء، أرانا الله عَزَّوَجَلَّ كيف أن من أراد أذية أوليائه قد انتصر الله عَزَّوَجَلَّ منهم، وهذه من جملة سنن الله التي يطمئن إليها العالم، وتزيده صبْرًا علىٰ الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا من جملة ما أوصىٰ به لقمان الحكيم ابنَه وهو يعظه، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]، وقبل ذلك علَّمه في أول الأمر أول مسائل الحكمة؛ وهو الدعوة إلىٰ التوحيد: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهكذا نبَّه ورقةُ بن نوفل النبيَّ ﷺ في أول مقامات الوحي، وقال له: «هذا هو الناموس الذي أتىٰ موسىٰ»، وقال له: «ليتني أكون فيها جذعًا إذ يخرجك قومك»؛ هذه سنَّة الله في الأنبياء وكذلك في ورثة الأنبياء؛ ولذلك ينبغي أن نطمئن في مواجهة هذه الأمور، ونعلم أنَّها من لوزام الدعوة، ونطمئن إلىٰ ما قاله العلماء، وسنَّة الله معلومة في خاتمة من ينتقص العلماء، فغالبًا ما تُختم له بخاتمة سوء، وقد رأيتم بعض ذلك وسترون غيره، فقد رأينا بعض من كان به داخلة عجب وغرور استطال بسببها علىٰ الصحابة والتابعين وخيار علماء السلف السابقين، كيف أزاغ

الله قلبه وصار يثني علىٰ الثورة الخمينية.

وكذلك أرانا الله سوء ما آل إليه المتعالم الذي أسرف في القول علىٰ الله بغير علم، حتىٰ صار يقول بجواز الردَّة! سبحان الله! والله سيريكم في هؤلاء ما هو أعظم عظة لكم، يا مقلِّب القلوب ثبِّتْ قلوبنا علىٰ دينك، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

فالمقصود: أنَّ قصص القرآن يجب العناية بما فيها من المعاني العظيمة، أمَّا الفضول التي ذكرتها بعض التفاسير في هذه القصص، فهذه لا تفيدك شيئًا.

ومن الأمور الملفتة في بعض كتب التفسير عند مطالعتها تتعجب كيف انصرفت جهود بعض العلماء إلىٰ فضول العلم؛ من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ ۗ﴾ [النساء: ١٠٠]؛ فتعيين ذلك الرجل ليس بضروريٍّ؛ لأنه لو كان في تعيينه ضرورة لأخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ بذلك؛ لكن المعنىٰ: أنَّ من عقد عزمه علىٰ الطاعة وبذل أسبابها، لو أدركته المنيَّة فسيدرك أجر ما شرع فيه من الطاعة، وهذا الحكم عامٌّ لكل المسلمين إلىٰ يوم القيامة، وهو ليس بخاصٍّ في طاعة الهجرة من بلاد الكفر إلىٰ بلاد الإسلام، بل هو عامٌّ في كل الطاعات، لكنّ فضول بعض العلماء أخذ منه وقتًا كثيرًا «أربعة عشر عامًا» في تعيين الذي خرج من بيته مهاجرًا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، وذكر أنه ضَمْرة بن الْعِيص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، فهذا ليس فيه كبير فائدة، لننشغل به عن صُلب العلم.

---

(١) عمدة القاري (١١/ ٣٣٦).

فالمقصود: أن تعتنوا بما يذكره المفسرون من صُلب التفسير، وأما الفضول فلا تؤلوها جهدًا بحيث تجعلون لها الأولوية.

وقول شيخ الإسلام: «فَمَا كَانَ مِنْ هَذَا مَنْقُولًا نَقْلًا صَحِيحًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَاسْمِ صَاحِبِ مُوسَىٰ أَنَّهُ الْخَضِرُ»؛ فهذا أخبر به النبي ﷺ في السنَّة، «فَهَذَا مَعْلُومٌ»؛ أي: نؤمن به، «وَمَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، بَلْ كَانَ مِمَّا يُؤْخَذُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»، هنا فرّق شيخ الإسلام بين أنواع المنقول عن أهل الكتاب بحسب ما يشهد لصحَّته أو بطلانه الوحي من القرآن والسنَّة، فالذي يذكره بعض العلماء من الإسرائيليات سواء أخذوه من كتب بني إسرائيل أو مما سمعوه من أحبار بني إسرائيل؛ هذا إن كان في القرآن والسنَّة ما يدلُّ عليه؛ فهذا نصدِّقُه؛ لأنه موافق للوحي.

وما كان يكذبه رددناه، لأنَّ القرآن وما أُوحي إلىٰ النبيِّ ﷺ من السنَّة حقٌّ، وما خالف الحقَّ فهو باطل، وما كان دون ذلك - يعني مسكوتًا عنه - لم يشهد له الشرع بصحة ولا بنفي - فلا نخوض فيه؛ فيكفينا شرع الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَ الله بيَّن كلَّ ما تحتاج إليه الأمة.

وعندما يقول العلماء: «الاستدلال بشريعة من قبلنا» فماذا يريدون به؟

قال الكيا الهراسي في «أحكام القرآن»، وشيخ الإسلام ابن تيميَّة في «الصفدية» - رحمهما الله تعالىٰ -: «هذا يرادُ به ما ذكره الله عن أهل الكتاب في القرآن، وما ذكره النبي ﷺ عنهم في السُّنَّة»؛ هذا هو المقصود بشريعة من قبلنا، وقد حكىٰ الإجماع علىٰ هذا المقصود الهراسي، وليس المراد به المذكور في

كتب أهل الكتاب؛ لأن كتبهم أصابها التحريف والتبديل، وهي ليست كلها محرّفة؛ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ [المائدة: ١٥]؛ يعني: حرَّف اليهود والنصارىٰ الكثير من التوراة والإنجيل، وبعضها لم يحرِّفوه، فحرَّفوا وكتموا ما كان لهم غرضٌ فيه؛ مثل كتمهم البشارة بالنبيِّ محمَّد ﷺ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٨٩].

وأراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يُسلِمَ بعض أحبار وعلماء أهل الكتاب ليخبرنا بصدق ما جاء في القرآن والسنَّة عن بشارة الله لليهود والنصارىٰ في التوارة والإنجيل بخاتم المرسلين نبينا محمد ﷺ المرسل للعالمين كافَّةً، وليس للعرب فقط.

وكذلك نقلوا لنا بعض العلم الذي في كتبهم - وإن كنَّا لا نعول عليها - الذي يوافق شريعتنا، وهذا يستفاد منه أنهم لم يحرفوا كل شيء، وعبد الله بن سَلَامٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان من أحبار اليهود، وأسلم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصار من علماء الصحابة، فتذاكر مع أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ متىٰ ساعة إجابة الدعاء في يوم الجمعة، فقال عبد الله بن سلام: «إنا نرىٰ في التوراة أنها آخر ساعة من النهار قبل غروب الشمس»، وهذا أيضًا موجود في شريعتنا؛ كما في «صحيح مسلم»، فتعويلنا ليس علىٰ ما نقله عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن أهل الكتاب، ولكن التعويل علىٰ ما في حديث النبيِّ ﷺ؛ لأنه هو الذي لا ينطق عن الهوىٰ، لكن استفدنا منه أنّ أهل الكتاب لم يحرفوا كل التوراة ولا كل الإنجيل، كما دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾ [الأنعام: ٩١].

وبعض العلماء اشتهر بالأخذ عن أهل الكتاب؛ إما لأنه كان كتابيًّا فأسلم، أو كان عنده شغف بمطالعة صحف أهل الكتاب؛ مثل كعب الأحبار، ووهب بن مُنبِّه رحمهما الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أما عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فليس منهم، وحاشاه وهو ترجمان القرآن، وقد دعا له النبي ﷺ بعلم التفسير، بل في «صحيح البخاري» عنه أنه كان يحذِّر من الأخذ عن أهل الكتاب؛ قال: «ما بالكم تسألون أهل الكتاب وكتابكم آخر ما نزل من القرآن من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»، فابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ليس ممن يأخذ عن أهل الكتاب.

ولماذا يذكر العلماء مَنْ مِنَ الصَّحابة الذي اشتُهر بالأخذ عن أهل الكتاب؟ لأنهم في فقه الأحاديث الموقوفة والمرفوعة إلىٰ النبيِّ ﷺ يقولون عن الموقوف: إذا كان ممَّا لا مجال للرأي فيه، والصحابي الذي رواه لا يأخذ عن أهل الكتاب؛ فله حكم الرفع.

لكن عندما يأتون إلىٰ مثل عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو من المشهورين بالأخذ عن أهل الكتاب، فما يقوله ممَّا لا مجال للرأي فيه؛ فيحتمل أنَّه أخذه من أهل الكتاب؛ فلا يكون له حكم الرفع.

وبعض العلماء عندما يكون مشهورًا بالأخذ عن أهل الكتب كمحمَّد بن إسحاق؛ نستفيد أنه إذا قال في مسائل العلم ما لا يدلُّ عليه دليل من الكتاب والسنَّة، وانفرد به عن سائر العلماء؛ نقول: فيحتمل أنه أخذه عن أهل الكتاب، لأنّه إذا كان من علم الكتاب والسنَّة فلابد أن تدلَّ معاني الشريعة عليه، وكما قال

ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم - يعني القرآن - آخر ما نزل من السماء»؛ يعني: لنا في القرآن والسنَّة غنية عن الإسرائيليات، وبنحو هذه العبارة قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «لنا في صحيح الأحاديث شغل عن سقيمها»؛ فالأحاديث المرويَّة من طريق الضعفاء في الصحيح ما يغني عنها والحمد لله. وتدبَّر دائمًا معاني الأحاديث الصَّحيحة إن وجدت حديثًا ضعيفًا إن كان هناك ما يغني عنه من معاني القرآن والأحاديث الصحيحة؛ فليكن معولك علىٰ القرآن والأحاديث الصحيحة، وليكن تعليمك هكذا.

فتأمَّل كيف وفِّق الحافظ عبد الغني المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «أحاديث الأحكام الصغرىٰ»؛ في ذكر الأحاديث المتَّفق عليها فقط، فعظمت لذلك عناية العلماء بشرح هذا الكتاب، وهذا منهجٌ حثَّ عليه عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان من الولاة العلماء، وعلىٰ هذا علماؤنا؛ فالعلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتنىٰ بشرح «صحيح البخاري»، وشرح «صحيح مسلم»، وشرح «عمدة الأحكام الصغرىٰ»، والمشهور من كتب الأحكام كـ«بلوغ المرام».



قال المصنِّف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

[وَكَذَلِكَ مَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ أَخَذَهُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَمَتَىٰ اخْتَلَفَ التَّابِعُونَ لَمْ يَكُنْ بَعْضُ أَقْوَالِهِمْ حُجَّةً عَلَىٰ بَعْضٍ.

وَمَا نُقِلَ فِي ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ نَقْلًا صَحِيحًا، فَالنَّفْسُ إِلَيْهِ أَسْكَنُ مِمَّا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ؛ لِأَنَّ احْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ مِنْهُ أَقْوَىٰ، وَلِأَنَّ نَقْلَ الصَّحَابَةِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَقَلُّ مِنْ نَقْلِ التَّابِعِينَ.

وَمَعَ جَزْمِ الصَّاحِبِ فِيمَا يَقُولُهُ، فَكَيْفَ يُقَالُ: إِنَّهُ أَخَذَهُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَدْ نُهُوا عَنْ تَصْدِيقِهِمْ؟!

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ مِثْلَ هَذَا الِاخْتِلَافِ - الَّذِي لَا يُعْلَمُ صَحِيحُهُ، وَلَا تُفِيدُ حِكَايَةُ الْأَقْوَالِ فِيهِ - هُوَ كَالْمَعْرِفَةِ لِمَا يُرْوَىٰ مِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي لَا دَلِيلَ عَلَىٰ صِحَّتِهِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ].

الشَّرح:

هنا يفرِّق شيخ الإسلام بين المنقول عن التابعين والمنقول عن الصحابة، فالمنقول عن الصحابة في التفسير يقول: الاختلاف فيه قليل. وتجد عامة التفسير عن الصَّحابة إنما يذكر معانيه ابن مسعود وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حبر الأمة وترجمان القرآن، ودعا له النبي ﷺ بعلم التفسير، وابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أعلم الصحابة بالقرآن، وهذا مما لا يُختلف فيه عند العلماء، لكن اختلاف ابن مسعود وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قليل جدًّا، فإذا تأمَّلت كلامهما

تجد قول أحدهما في معنىٰ قول الآخر، أو تجدهما يختلفان من حيث انفكاك الجهة في الكلام، فتكون الآية لها أكثر من متعلِّق؛ فهذا يتكلَّم في متعلِّق منها، وهذا يتكلَّم في متعلِّق آخر، فليس هو باختلاف تضادٍّ، وإنَّما هو اختلاف تنوُّعٍ، وهو ممَّا يزيدنا في فهم واستنباط معاني الآيات.

والمنقول عن الصحابة في التفسير ليس محصورًا في ابن عباس وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لكنَّه هو الأكثر.

وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تلقَّىٰ علم التَّفسير عن الصَّحابة، قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]: «إنَّ ما فسَّرته من القرآن، فسمعت ممن شافه النبيَّ ﷺ، وما من آية إلَّا وقد سمعت فيه».

وغالب التفسير أخذه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن عليٍّ وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال معمر رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «عامة علم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من ثلاثة: من عمر، وعليٍّ، وأبيِّ بن كعب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ».

وعلم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التفسير دوّنه زيد بن أسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهو أكثر من ذكر علمه، وزيد بن أسلم أخذه عن أسلم مولىٰ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فأسلم أخذ علم التفسير عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكن الذي دوَّنه تدوينًا زيد بن أسلم، وعنه أخذ كافَّة العلماء إلىٰ اليوم في كتب التفاسير، وكان

---

(١) الإرشاد في معرفة علماء الحديث (١/ ٣٩٧).

(٢) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٢/ ٦٩٦).

يجلس إلىٰ زيد بن أسلم سادات آل البيت ليأخذوا عنه العلم، ومنهم علي بن الحسين رحمهما الله.

إذًا المنقول عن الصحابة ينقله أحيانًا الصحابة أنفسهم، وبعضه نقله التابعون، والتابعون أكثرهم ينقل معاني القرآن عن الصحابة فيسمي من يأخذ عنه، ومن ينقل عنهم ولا يسميهم ينقمون عليه ذلك؛ لأنَّ إسناد التَّابعي التفسيرَ عن الصَّحابي أقوىٰ في الحجِّيَّة. وقد ذكر أبو يعلىٰ الخليلي في «الإرشاد» ما انتقده العلماء علىٰ الحسن البصري في التفسير، فقال[1]: «عابوا علىٰ الحسن البصري أنَّه لم يُبيِّنْ ما فَسَّرَ، ولم ينسبه إلىٰ قائله»، يعني: يذكر معاني التفسير، لكن لا يذكر عمَّن أخذها، لكن إن كان أخذها عن صحابي فعلمه يرجع إلىٰ الصحابة، وإن كان بعض النصوص فسَّرها استنباطًا فإنه من علمه، وقد أوتي علمًا كثيرًا، وكان ربيبًا لأم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، ومن هنا أدركته بركة النبي ﷺ، ومن هنا أيضًا نعرف منهجه في علم الحديث، فله مراسيل كثيرة، فهذه ليست طريقته فقط في تفسير القرآن، وإنَّما هي طريقته أيضًا في علم الحديث.

فهذا منهج الحسن البصري، وإن كان ينبغي عليه أن يُسند مروياته خصوصًا في رواية الأحاديث، لكن بعض العلماء استقرأ مرويَّات الحسن البصري في مراسيله عن النبي ﷺ؛ فقال أبو زرعة الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأيت كل مراسيل الحسن صحيحة إلا ثلاثة مراسيل».

(١) الإرشاد في معرفة علماء الحديث (١/ ٣٩٦).

وبعض التابعين ممَّن أخذ علم الصحابة يسمي؛ يقول: أخذت تفسير هذه الآية من الصحابي، مثل مجاهد أخذه عن ابن عباس، وأحيانًا يذكر ذلك عند كل آية، يقول: قال ابن عباس كذا. وأحيانًا يفسر هو بخاصة نفسه، وقد يكون ذلك مما أخذه عن ابن عباس، واكتفىٰ بقوله الذي دائمًا يكرِّره: «عرضت القرآن علىٰ ابن عباس ثلاث مرات أوقفه عند كل آية»، فمعنىٰ هذا الكلام أنَّ تفسيره كلَّه أخذه من ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، كما أقول لكم أنا: أخذت علمي من ابن عثيمين، وأحيانًا أذكر الكلام من كلام ابن عثيمين وأقول: قال شيخنا. وأحيانًا لا أقول، لأنه ليس كل درس وكل فائدة أقول فيها: قال ابن عثيمين، قال ابن عثيمين، فاستغني بما نبَّهتُ عليه أحيانًا عن التنبيه عليه كل مرَّة، وهذا من باب ذكر مِنَّته علينا في تعليمنا، جزاه الله خيرًا، وكان النبيُّ ﷺ هو أَمَنُّ الناس علىٰ أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ويقول: «**إنَّ من أمنّ الناس عليَّ في صحبتي أبا بكر** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ»، فكيف بنا نحن؟! فشيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ له المنّة كلها في تعليمنا.

فإذا كان المفسِّر من التابعين مشهورًا بالتلقي عن الصحابي، ومعروفًا بأخذه عنه، فشهرته بتلقي العلم عن هذا الصحابي تغني عن أن يذكره عند كل آية، لكن أحيانًا يذكر من أخذ عنه، وأحيانًا يكتفي بالمعلوم أنه أخذ علمه عن شيخه كمجاهد عن ابن عباس، وهكذا قال قتادة: «أخذت علم التفسير عن الصحابة»، وهكذا قال أبو العالية، فهؤلاء علماء التفسير من التابعين.

فهذا علم التفسير في طبقة الصحابة والتابعين، لكن الخلاف في التابعين أكثر من الخلاف في الصحابة؛ لأنَّه ظهر في التابعين من يأخذ عن الإسرائيليات، وبهذا

يظهر فضل علم الصحابة علىٰ علم التابعين، فما كان فيهم من يأخذ عن الإسرائيليات، ولا يكاد يذكر ذلك إلا عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وكان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يتهدَّد من يأخذ عن أهل الكتاب، فكان يتهدَّد كعب الأحبار ويقول له: والله لألحقنك بأرض القردة والخنازير؛ لأنه كان يقرأ في الإسرائيليات. وقد استفاد عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ذلك من زجر النبي ﷺ له عندما رأىٰ في يده صحيفة من التوراة فقال: «**أمتهوكون يابن الخطاب؟! والله لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسىٰ حيًّا لما وسعه إلا اتباعي**»، رواه أحمد والدارمي، فانتفع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من هذه الموعظة، وصار يزجر عن الأخذ عن الإسرائيليات.

إذًا ما يتفق عليه التابعون من التفسير يكون من التفاسير الصحيحة لمعنىٰ الآية؛ لأنَّ أكثرهم تلقىٰ علم التفسير عن الصحابة، وما اختلفوا فيه يكون الترجيح مع من أخذ التفسير عن الصحابة، وما يكون موافقًا لمعاني القرآن والسنَّة.

ومن المرجِّحات بين التابعين: ترجيح قول التابعي الموافق لعامَّة التابعين، دون المنفرد عنهم بالمخالفة.

ومنها: خصوصية التابعي المشهور بالعناية بتلقي التفسير عن الصحابة، كمجاهد، فإنه لم يأخذ التفسير فقط من ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، بل كان يذاكر العلم مع عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وكان يخبرها بما يقول الصحابة وما يختلفون فيه، وتلقِّيه للتفسير عن ابن عباس كان لكل آية من القرآن، فهو شيخ المفسرين من التابعين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تفسير مجاهد أصحُّ تفسير التابعين».

---

(١) الاستقامة (ص١٧٣).

وما ينفرد به أحد التابعين مما يأخذه عن الإسرائيليات، أو يكون قاله تفقُّهًا ويخطئ فيه؛ هذا عرفنا خطأه فيه بإصابة غيره من التابعين الموافقين لمعاني القرآن والسنَّة وفهم الصحابة.

فهذه كلها مرجِّحات، لكن كل آية تدبرها في سياقها وأسباب النزول وتفسير الصحابة؛ ثم انظر في أقوال التابعين ما يوافقون فيه معاني القرآن، والصحابة ومن ينفرد بمخالفة الصحابة، لأنَّ معاني القرآن كلها تأتلف علىٰ المعاني الشرعية الصحيحة.



ثم قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[وَأَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ الَّذِي يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ الصَّحِيحِ مِنْهُ؛ فَهَذَا مَوْجُودٌ فِيمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ - وَلِلهِ الْحَمْدُ -، فَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْمَغَازِي أُمُورٌ مَنْقُولَةٌ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ -، وَالنَّقْلُ الصَّحِيحُ يَدْفَعُ ذَلِكَ، بَلْ هَذَا مَوْجُودٌ فِيمَا مُسْتَنَدُهُ النَّقْلُ، وَفِيمَا قَدْ يُعْرَفُ بِأُمُورٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ النَّقْلِ.

فَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْمَنْقُولَاتِ الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي الدِّينِ، قَدْ نَصَبَ اللهُ الْأَدِلَّةَ عَلَىٰ بَيَانِ مَا فِيهَا مِنْ صَحِيحٍ وَغَيْرِهِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَنْقُولَ فِي التَّفْسِيرِ أَكْثَرُهُ كَالْمَنْقُولِ فِي الْمَغَازِي وَالْمَلَاحِمِ.

وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: ثَلَاثَةُ أُمُورٍ لَيْسَ لَهَا إِسْنَادٌ: التَّفْسِيرُ، وَالْمَلَاحِمُ، وَالْمَغَازِي، وَيُرْوَىٰ: لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ؛ أَيْ: إِسْنَادٌ.

لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهَا الْمَرَاسِيلُ؛ مِثْلُ مَا يَذْكُرُهُ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَالشَّعْبِيُّ، وَالزُّهْرِيُّ، وَمُوسَىٰ بْنُ عُقْبَةَ، وَابْنُ إِسْحَاقَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ؛ كَيَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ الْأُمَوِيِّ، وَالْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، وَالْوَاقِدِيِّ، وَنَحْوِهِمْ فِي الْمَغَازِي.

فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْمَغَازِي أَهْلُ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ أَهْلُ الشَّامِ، ثُمَّ أَهْلُ الْعِرَاقِ؛ فَأَهْلُ الْمَدِينَةِ أَعْلَمُ بِهَا؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ.

وَأَهْلُ الشَّامِ كَانُوا أَهْلَ غَزْوٍ وَجِهَادٍ، فَكَانَ لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِالْجِهَادِ وَالسِّيَرِ مَا

لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ؛ وَلِهَذَا عَظَّمَ النَّاسُ كِتَابَ أَبِي إِسْحَاقَ الْفَزَارِيِّ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي ذَلِكَ، وَجَعَلُوا الْأَوْزَاعِيَّ أَعْلَمَ بِهَذَا الْبَابِ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ].

الشَّرْح:

هذا كلام مهمٌّ ينبغي فقهه ومعرفة المراد منه، وقد ذكر نحوًا منه الخطيب البغدادي في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، وعبارات السلف إذا لم تُفهم على المعنى الصحيح المقصود منها فقد يضل الإنسان بسبب ذلك.

فما زال شيخ الإسلام يذكر قواعد تمييز المنقولات في التفسير والمغازي، يعني في الجهاد والغزو، ويُقال في جهاد الكفار: المغازي والغزو والجهاد، ويقال في قتال المسلمين فيما بينهم: الفتن.

قال شيخ الإسلام: «قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: ثَلَاثَةُ أُمُورٍ لَيْسَ لَهَا إِسْنَادٌ: التَّفْسِيرُ، وَالْمَلَاحِمُ، وَالْمَغَازِي»، هذا ليس معناه أنه لا توجد روايات صحيحة للمغازي أو التفسير أو الملاحم، حاشا الإمام أحمد أن يريد هذا، وإنما أراد به أنواع مخصوصة من الكتب التي يكثر فيها المنقولات الغير صحيحة لأن هذه العلوم الثلاثة يكثر فيها الضعيف، والمروي فيها كثير منه ضعيف وبعضه موضوع مكذوب، فيحتاج الناس إلى العناية بالصحيح المروي في هذه الأمور الثلاثة.

فغزوات النبي ﷺ جلُّها ذكرها الله في القرآن، فذكر غزوة بدر في سورة الأنفال، وغزوة أحد كلها في سورة آل عمران، وغزوة الخندق بكلِّ تفاصيلها في سورة الأحزاب، وما بعدها من الغزوات كغزوة بني قريظة، وغزوة حنين وتبوك

في سورة التوبة، والتهيئة لغزوة مؤتة ذُكِرَت في سورة الفتح في قوله تعالىٰ: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]، وذُكرت غزوة الحديبية وفتح مكة في سورة الفتح أيضًا، وتفاصيل غزوة مؤتة في رواية الصحيحين البخاري ومسلم، أصح الكتب بعد كتاب الله.

فإذا كانت مغازي النبي ﷺ جلُّها في القرآن، وبعض ما لم يذكر في القرآن في صحيحي البخاري ومسلم؛ إذًا الإمام أحمد أراد بقوله: «لا أسانيد لها»: أن كثيرًا منها مروية بأسانيد ضعيفة، ولذلك يقول العلماء في الحديث المروي بالسند الضعيف: لا إسناد له؛ وإلا فكل حديث له إسناده؛ حتىٰ في التفسير، وبهذا يعرف العلماء مخرج الرواية وصحيحها من ضعيفها.

والمقصود أيضًا: معاني المغازي أيضًا، فليس المقصود فقط أن نجعلها كأحاديث وأسمار، ولذلك فالصحابة أنفسهم استفادوا من مغازيهم مع النبي ﷺ في جهادهم بعد النبي ﷺ؛ كأبي عبيدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومن معه من الصحابة عندما غزو الشام خصوصًا في المعركة الفاصلة مع الروم قرءوا سورة الأنفال قبل المعركة؛ لما فيها من معانٍ تثبِّت في القتال وتُبشِّر المؤمن بنصر الله عَزَّوَجَلَّ الذي له جنود السموات والأرض، وقرأ سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في جهاد المجوس في العراق قولَه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؛ حثًّا لمن معه من الصَّحابة علىٰ الجهاد، وتفاؤلًا واستبشارًا بالنصر.

وانظر في غزوة أحد كيف استعتب الله الصحابة في سورة آل عمران، وكيف

هُزموا بسبب معصية واحدة، وهي النزول عن جبل الرُّماة، فهذا فيه موعظة لنا واستعتاب، فكيف بنا نحن وقد تركنا جبالًا من التكاليف.

إذًا هذا فيه توجيه للأمة لأسباب النصر؛ قال تعالىٰ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، ومن جملة أسباب النصر: تقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [آل عمران: ١٢٥]، فهذا نصر من الله نزل من السماء.

أو أن يكون سبب النصر بما يُنْزله الله من الطمأنينة في قلوب المؤمنين في جهادهم؛ كما ذكر الله في غزوة الأحزاب، وفي غزوة الحديبية، فهذا يدلُّ علىٰ أنه ينبغي أن ننظر في المعاني العظيمة المقصودة من الغزو، ومنها أن تكون كلمة الله هي العليا، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ومن أسباب النصر أيضًا: الثبات في الجهاد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥]؛ لأنَّ المعركة ليست لحظة واحدة، وإلَّا ففي بداية غزوة أحد كان الصحابة منتصرين، فالثبات في المعركة كلها من أسباب النصر؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**إن النصر مع الصبر**».

ومن أسباب النصر: حسن تدبير المعركة؛ بوضع خطة عسكرية مُحْكَمَة تهيئ للمسلمين أسباب النصر، كما حصل في غزوة أحد، فقد اختار النبي ﷺ للصحابة جبل الرماة ليرموا الكفار عن قوس واحدة، وانتصروا بسبب ذلك، لكن بسبب استعجال بعضهم أَخْذَ الغنائم نزلوا عن الجبل فحصلت الهزيمة.

ونستفيد من مدارسة غزوات النبيِّ ﷺ الأخذ بهديه قبل المعركة؛ من إعداد العدَّة والأخذ بأسباب النصر، ومن جملة ذلك الإلحاح في الدُّعاء قبل المعركة والاستنصار بالله.

وكذلك نستفيد من هدي النبي ﷺ والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في أثناء المعركة كلها، ومن أحوال النبيِّ ﷺ بعد المعركة. فالنبي ﷺ دخل مكة عام الفتح متواضعًا، ونستفيد من هذا عدم الغرور والزهو بالنصر، بل إذا انتصرنا نردُّ النصر إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ ونتواضع، وقد بوّب البخاري علىٰ ذلك في «صحيحه»، والصحابة هُزموا في غزوة حنين في البداية بسبب عُجْبِهم بكثرتهم، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

إذًا جُلُّ غزوات النبي ﷺ مذكورة في القرآن، وبعضها في الصحيحين، وقد استنبط منها العلماء أحكام كثيرة.

ثم ذكر شيخ الإسلام تفاضل الأمصار في علم المغازي؛ فقال: «إِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْمَغَازِي أَهْلُ الْمَدِينَةِ»؛ لأن المدينة انطلق منها الجهاد، قال النبي ﷺ: «**أُمرت بقرية تأكل القُرَىٰ**»؛ يعني: هي التي ينطلق منها الجهاد والفتوح في سبيل الله، ولأن العلم كان بالمدينة والدولة أقيمت بها، والنبيُّ ﷺ والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هاجروا من مكة لما كانت مكة بلاد كفر، وأقاموا بالمدينة وأقاموا دولة الإسلام، ومنها خرجت بعوث الجهاد في سبيل الله إلىٰ العراق وإلىٰ الشام وإلىٰ أذربيجان، وأرمينيا، والمدينة هي معدن العلم في كلِّ شيء، وليس فقط في المغازي، بل في كلِّ العلوم الشرعيَّة؛ كالتفسير والحديث والفقه، وغيرها من العلوم، ومنها

المغازي، فهي معدن العلم، وهذا هو المقصود من القول بحجيَّة عمل أهل المدينة؛ يعني: مما سبيله النقل؛ مثل صاع الزكوات ونحوه. ثم بعد ذلك كل مصر من أمصار المسلمين بحسب من ذهب إليه من علماء الصحابة، أما المدينة فقد كان فيها كل الصحابة، ولم تكن هذه الخصوصيَّة لغيرها من المدن والأمصار، أما مكة فقد ظهر فيها العلم بعد ذلك فإنها كانت بلاد كفر، فلما فتح النبي ﷺ مكة وصارت بلاد إسلام أمر من كان قد هاجر من مكة إلىٰ المدينة ألا يرجع إليها؛ لأنه هاجر لله، حتىٰ هو ﷺ لم يرجع إلىٰ مكَّة مع أنها بلده، وهي أحب الأرض إلىٰ الله، ولكن لتكون الهجرة خالصة لله عَزَّوَجَلَّ بقي في المدينة ومات فيها - صلوات الله وسلامه عليه -؛ لذلك علماء الصحابة بقوا فيها ولم يخرجوا منها، وبقيت المدينة هي مجمع العلم ودار الإمارة، ومقرَّ عقد ألوية الجهاد.

وفي عهد أبي بكر و عمر وعثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بدأت الفتوح، وغزيت الشام والعراق في عهد أبي بكر، وبعد ذلك في عهد عمر امتدَّ الجهاد إلىٰ فارس وخراسان، وذهب علماء الصحابة والمجاهدون منهم إلىٰ العراق، فعتبة بن غزوان ولَّاه عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إمارة البصرة، وهو الذي بنىٰ البصرة، ثم بعد ذلك جاء إلىٰ العراق عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ووددنا أنه لم يخرج من المدينة وبقيت الخلافة فيها[١]، لأن المدينة هي معدن العلم، ومن كان فيها هم خُلَّص الصحابة، والرعية لم تكن ملتوية في المدينة، فلما أراد عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن

---

(١) **قال الإمام أحمد** رَحِمَهُٱللَّهُ: «كل بيعة كانت في المدينة فهي خلافة نبوَّة». قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص٣٥).

يذهب إلىٰ العراق، نصحه عبد الله بن سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ألا يذهب، فلم يكن بعد أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ خير من علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكان أهل العراق متقلِّبون علىٰ الولاة، فلا يعجبهم أحد، فلم يعجبهم عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولذلك دعا عليهم في آخر الأمر، وقبله ولَّىٰ عليهم الفاروقُ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سعدَ بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو من العشرة المبشَّرين بالجنَّة ولم يعجبهم.

ولذلك خرج من عسكر عليٍّ فئتان ضالَّتان: الخوارج والرافضة، وبذلك ضعف عسكر علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وبُلِيَ بقتال المسلمين أهل القبلة عن غزو الكفار.

المقصود أنه قد ذهب إلىٰ العراق من علماء الصحابة عتبة بن غزوان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وعلي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو من أعلم الصحابة بعد أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وكان معه أيضًا عمَّار بن ياسر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وأيضًا بقي في العراق فترةً سعدُ بن أبي وقَّاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ثم رجع إلىٰ المدينة، وكان فيها أيضًا عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وممن ذهب إليها من كبار علماء الصحابة عبد اللّٰه بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومن هنا أخذ أهل العراق علم الإسلام من الصحابة.

وأمَّا الشام فقد غزاها أبو عبيدة بأمر الصدّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ واستكمل الفاروق الجهاد، وصار في دمشق أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وكان في بيت المقدس من الصحابة عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وشدَّاد بن أوس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وعنهم أخذ المسلمون العلم.

وممن ذهب إلىٰ أذربيجان وأرمينيا من الصحابة حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومن كان معه من الصحابة المجاهدين، وفي عهد النبي ﷺ أرسل ﷺ إلىٰ اليمن معاذ بن

جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأبا موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعنهما تلقىٰ الناس الدين والعلم.

فالمقصود: أنَّ علماء الصحابة الذين ذهبوا إلىٰ الأمصار هم الذين أدَّوا الإسلام وعلم الإسلام إلىٰ هذه الأمصار.

قال العلامة أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «تفرقت الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في النواحي والأمصار والثغور، وفي فتوح البلدان، والمغازي، والإمارة، والقضاء والأحكام؛ فبثَّ كلُّ واحد منهم في ناحيته وبالبلد الذي هو به ما وعاه وحفظه عن رسول الله ﷺ، وحكموا بحكم الله عَزَّ وَجَلَّ، وأمضوا الأمور علىٰ ما سنَّ رسولُ الله ﷺ، وأفتوا فيما سئلوا عنه مما حضرهم من جواب رسول الله ﷺ عن نظائرها من المسائل، وجرَّدوا أنفسهم مع تقدمة حسن النية والقربة إلىٰ الله، تقدس اسمه؛ لتعليم الناس: الفرائض، والأحكام، والسنن، والحلال والحرام، حتىٰ قبضهم الله عَزَّ وَجَلَّ، رضوان الله ومغفرته ورحمته عليهم أجمعين».

ومن هنا نعرف أنَّ هذا العلم الذي أدركه التابعون ومن بعدهم إنَّما أخذوه من علم الصحابة الذين ذهبوا إلىٰ هذه الأمصار، فصارت هذه الأمصار تتفاضل في العلم بحسب من كان بها من علماء الصحابة، لكنّ المدينة جمعت كل العلوم؛ فهي معدن العلوم.

هذا الترجيح للأمصار بحسب من كان بها من الصَّحابة الذين جمعوا علم السنَّة، ولم يجتمع في مصر من الأمصار من الصحابة ما اجتمع بالمدينة. والصحابة

---

(١) الجرح والتعديل (١/ ٨).

أنفسهم في العلم طبقاتٌ، وكان الصحابة يعرفون للأكابر منهم وأولي السبق والحرص علىٰ علم السنَّة؛ فضلهم ورتبتهم، وكانوا بسبب ذلك يتخذونهم مرجعًا في تبيين السنَّة.

قال أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كان أكابر الصحابة إذا أذَّن المغرب، ابتدروا الأسطوانات يصلُّون ركعتين. رواه البخاريُّ.

وقال أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أمَرَنا كُبراؤنا من أصحاب محمَّد ﷺ أن لا نَسُبّ أمراءنا ولا نغشهم ولا نعصيهم، وأن نتقي الله ونصبر، فإنَّ الأمرَ إلىٰ قريب[(١)].

وقال سمرة بن جندب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لقد كنتُ علىٰ عهد رسول الله ﷺ غُلامًا، فكنت أحفظ عنه، فما يمنعني من القول إلَّا أنَّ هاهنا رجالًا هم أَسَنُّ مني»[(٢)].

وعن أبي حُميد الساعدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال وهو في عشرة من أصحاب النبي ﷺ منهم أبو قتادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنا أعْلَمُكم بصلاة رسول الله ﷺ.

قالوا له: ما كنت أقدمنا صحبةً، ولا أكثرنا له تبَاعةً. قال: بلىٰ، قالوا: فاعرض، فذكر صفة الصَّلاة، فقالوا له: صدقت. رواه أحمد والأربعة، وقولهم: «صدقت»، لفظ أبي داود.

ولم يظهر في أهل المدينة الكذب ولا البدع، فكانت المدينة طيِّبة، أما الكوفة

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٣٩)، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب أين يقوم الإمام من الميِّت للصلاة عليه (ص٣٨٨ – رقم ٢٢٣٧).

فلم تكن كذلك، والبصرة كانت أنقىٰ من الكوفة، ومع هذا فقد كان في الكوفة طلاب ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فالرواية التي رواها الثقات منهم عنه صحيحة، ومن أفضل تابعي الكوفة الذين انتهىٰ إليهم علم ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الشَّعبيُّ وإبراهيم النَّخعي، رحمهما الله.

وبهذا نعرف ضلال من يكفّر الصحابة؛ لأن حقيقة هذا القول هو هدم الدين، فإذا قلنا: الصحابة كفار؛ فهذا إبطال للدين كلِّه الذي أداه إلينا الصَّحابة.

فكيف نُكفّر من رضي الله عنهم ورضوا عنه، ومن عدّلهم الله في القرآن؟! فهذا معناه أنك مُكذِّبٌ للقرآن ولست مؤمنًا به، والذي يُكذِّب القرآن ويردُّ علىٰ الله حكمه؛ فهو كافر، فكيف يثبت الله لهم الإيمان والرافضي يكفرهم؟! قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ٨-١٠]، فواجب المسلمين الاستغفار للسابقين الأولين ومعرفة فضلهم؛ لذا قال أبو زرعة الرازي رَحِمَهُٱللَّهُ: «من كفَّر الصحابة فهو أحرىٰ بالتكفير»؛ لأنَّه يريد هدم الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ذكر العلماء: أَنَّ الرفض أساس الزندقة، وأن أول من ابتدع الرفض إنما كان منافقًا زنديقًا، وهو عبد الله بن سبأ؛ فإنه إذا قدح في السابقين الأولين فقد قدح في نقل الرسالة، أو في فهمها، أو في اتباعها؛ فالرافضة تقدح تارة في علمهم بها، وتارة في اتباعهم لها».

إذًا فشيخ الإسلام يقول: أعلم الناس بالمغازي هم أهل المدينة. ونقول: أهل المدينة أعلم بكل أنواع العلوم، وعلمهم بالمغازي أيضًا أتقن من غيرهم، فإن ألوية الجهاد عُقدت في المدينة ومنها خرجت، والخلافة كانت فيها.

وقول شيخ الإسلام: «ثُمَّ أَهْلُ الشَّامِ»؛ لأَنَّ الجهاد انتقلت رايته بعد ذلك من المدينة بالحجاز إلىٰ الشام؛ لأَنَّ الخلافة صارت في الشام بعد العراق بعد عام الجماعة، والعراق كانت مقرَّ الخلافة في ولاية عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ وهي خمس سنوات وبضعة أشهر فقط، ثم صارت الخلافة في بني أمية في الشام.

ومعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لم ينقل شيئًا إلىٰ الشام، بل كان واليًا عليها من أيام الفاروق عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكان أخوه يزيد بن أبي سفيان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قبله والي الشام، وكان يزيد بن أبي سفيان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ممَّن قاتل مع أبي عبيدة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في فتح الشام؛ فولَّاه أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ الشام واستبقاه عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حتىٰ توفي، فولىٰ بعده معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكان معاوية أميرًا للشام عشرين عامًا، وخليفة للمسلمين - الشام وبقية الأمصار ومن جملتها الحجاز - عشرين عامًا؛ فمدَّة حكمه أربعون

---

(١) نقض المنطق (ص٨٦، ٨٧).

عامًا، قال شيخ الإسلام: «ما نقموا في سيرته شيئًا»، إلَّا توليته لابنه يزيد وما جرىٰ من القتال بينه وبين علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في صِفِّين.

قال شيخ الإسلام في الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ[1]: «إنَّ القدر الذي يُنكر من فعل بعضهم قليل، نزْرٌ مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم؛ من الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة، والنُّصْرَةِ، والعلم النَّافع، والعمل الصَّالح».

وقتالُ صفّين تجاذَبَ فيه الطرفان الحقَّ؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**يقتل ذي الثُّدَيَّة أولىٰ الطائفتين بالحقِّ**»؛ يعني: أن عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ معه حق ومعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ معه حق، وعليٌّ كان أولىٰ الطائفتين بالحق. فعليٌّ لم يكن يستطيع القصاص من قتلة عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لأنهم كانوا في عسكره، وكانت لهم شوكة، وكان معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يطلب بدم عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لأنه ابن عمه ووليُّ دمه، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء: ٣٣].

وأما تولية معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لابنه يزيد فهذا مما قضاه الله كونًا في نسخ خلافة النبوَّة إلىٰ ولاية ملك.

فالشام صارت بعد عام الجماعة وصلح الحسن بن علي ومعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أرض الغزو والجهاد، وكانت قبل ذلك تغزو بأمرة الخلفاء في المدينة في عهد الصدِّيق والفاروق وذي النُّورين، وفتح قبرص الذي قام به معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان

(١) العقيدة الواسطية (ص٦٠).

في خلافة عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو الفتح الذي بشَّر به النبيُّ ﷺ، وبشّر بإمارة معاوية فيه، وأثنىٰ علىٰ إمرته وشهد له بعينه بالجنَّة، قال ﷺ: «**يركب أقوام من أمتي ثبج هذا البحر غزاة في سبيل الله، كالملوك علىٰ الأَسرة**»، رواه البخاري.

ومن مواقف الصحابة في هذه الغزوة: أن أبا الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان ممَّن شهد هذه المعركة، فلما انتصر المسلمون علىٰ كفار قبرص بكىٰ أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بكاءً شديدًا، فقالوا: كيف تبكي في يوم أعزَّ الله فيه الإسلام؟! قال: «ما أهون الخلق علىٰ الله إن عصوه»، خصوصًا إن عصوه بالكفر، فكيف كانوا في ديارهم، ثم نصر الله عليهم المسلمين بسبب كفرهم، وهذا أيضًا ممَّا وعظ الصحابة به أنفسهم.

وكان سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الحجاز مع الصحابة، والحياة في الشام مختلفة عن الحجاز؛ ففيها الفواكه والأنهار والبساتين، وأمَّا الحجاز فصحراء، ومع هذا فالشام وبيت المقدس خيرة أرض الله بعد مكَّة والمدينة، وكان النبي ﷺ قد آخىٰ بين أبي الدرداء وسلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فكان كل منهما حريصًا علىٰ هذه الأخوة، فلا يكيد أحدهما لأخيه من أجل منصب لا قيمة له، كما يفعل بعض الناس، فقال أبو الدرداء لسلمان: هلمّ إلىٰ الأرض المقدسة. فقال سلمان: إنّ الأرض لا تقدِّس أحدًا، وإنما يقدِّس الأرض عمل أهلها.

فمكة هي التي بنىٰ فيها إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ الكعبة، وهي أحبُّ الأرض إلىٰ الله، ومع ذلك أمر النبي ﷺ الصحابة بالهجرة منها لما كانت بلاد كفر، ثم صارت بعد ذلك بلاد إسلام.

هذه المعاني العظيمة التي يذكرها الصحابة ليست أخبارًا للمسامرة والمؤانسة، بل هذه قواعد في التجديد للدين، وفي معرفة أسباب تمكين الله لخير القرون؛ ليأخذ بها المسلمون فيُعزَّهم الله وينصرهم.

ثم ذكر شيخ الإسلام أن كتب المغازي تختلف أيضًا؛ فكما أن الأمصار تختلف في علمها بالمغازي، كذلك أيضًا كتب المغازي، فبعضها تروي الصحيح والضعيف، وبعضها يحكي المغازي حكايةً مجرَّدة عن الإسناد؛ فمن أسند وروىٰ بأسانيده الصحيح والضعيف فهذا إحالته علىٰ الإسناد تدلُّ علىٰ صحَّة الرواية أو ضعفها، لكن في هذا العصر ليس كل أحد يميِّز بين المرويَّات، فيحتاج إلىٰ من يحقِّق هذه الكتب، وهذه الكتب تتفاضل فبعضها أجود من بعض؛ فالواجب ذكر روايات المغازي من رواية الثقات، ومن أجود ذلك - كما قال شيخ الإسلام - كتاب «السّير» لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفزاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو عالم ثقة، وكتابه في السير من أهم الكتب، وهو مطبوع في مجلد غالب مادته في فقه الجهاد.

ذُكر أبو إسحاق الفزاري عند سفيان بن عيينة، فقال[1]: «ما ينبغي أن يكون رجل أبصر بالسير منه».

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ما أعلم أحدًا من أهل الإسلام أجدىٰ وأدفع عن أهل الإسلام من أبي إسحاق الفزاري».

---

(١) الجرح والتعديل (١/ ٢٨١).

(٢) الجرح والتعديل (١/ ٢٨٣).

والذي ننصح به طلبة العلم عمومًا الاعتناء بكتب السير التي دوّنها علماء الحديث، ففي المختصرات يعتني طالب العلم بـ«الدرر في اختصار المغازي والسير»، للحافظ ابن عبد البر، وهو من علماء الحديث، وقد انتخب في هذا المختصر أصح الروايات، وكذلك كتاب «الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ» للحافظ ابن كثير، وهو كتاب مختصر في سيرة النبي ﷺ في مجلد، وكتاب «البداية والنهاية» لا يوجد كتاب يوازيه في المحتوىٰ، لكنه يروي الأحاديث والأخبار بأسانيدها، ويحرِّر في بعض الأحيان، ويعلِّق علىٰ هذه الروايات تصحيحًا وتضعيفًا من جهة الإسناد ومن جهة المتن، لكن في بعض المواضع يروي الأخبار بأسانيدها، ولا يعلِّق، فالكتب يحتاج - في الحقيقة - إلىٰ نخبة من المحقِّقين يقومون بخدمته.

ولابن ناصر الدين الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب حافل في سيرة النبيِّ ﷺ: «جامع الآثار في السِّير ومولد المختار»، مطبوع في ثمانية مجلدات، ذكر فيها صفات النبيِّ ﷺ وشمائله وخصائصه ودلائل نبوته، ودعوته، وأيَّامه، وأمَّا غزواته فذكرها مجملة.

والمميَّز في هذا الكتاب كثرة نقوله عن مصنَّفات من سبقه في السيرة، واعتماده علىٰ المصنَّفات المسندة لهذه الأخبار؛ فهو كتاب غنيٌّ في دراسة أسانيد ما يروىٰ في السيرة، ويحكم ابن ناصر الدين أحيانًا علىٰ هذه الأخبار بما تقتضيه قواعد تمييز المرويَّات.

وشيخ الإسلام وابن القيم لهما عناية شديدة في نقد المغازي والسير وتمييز صحيحها من ضعيفها من جهة الإسناد ومن جهة المتن.

و«زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضمَّنه سيرة تحليلية للنبيِّ ﷺ وغزواته وهديه في أمور كلِّها، وهو من أفضل ما كُتب في ذلك، ليس له نظير في منهجه وجودة محتواه.

ومن الكتب المصنَّفة في السيرة كتاب «المغازي» للحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت: ٢٣٥هـ)، وهو كتاب مختصر في سيرة النبيِّ ﷺ وغزواته، والأخبار المروية فيه كلُّها مسندة، امتازت بعلوِّ أسانيدها.

وتضمَّن الكتاب مع ذلك سيرة أبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ سبيل الاختصار.

وهذا الكتاب ليس فيه شيء من التعليق ولا الشرح لمرويَّات حوادث وسير النبي ﷺ وخلفائه الأربعة، علىٰ عادة أكثر المحدِّثين في مصنَّفاتهم.

وبنحو هذا المنهج سار العلَّامة محمد بن سعد الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٢٣٠هـ) في كتابه «الطبقات الكبير» وزاد بتدوين أخبار الصَّحابة والتَّابعين مسندة.

وللتِّرمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب مسند في «شمائل النبي ﷺ»، ذكر فيه المرويَّات في صفات النبيِّ ﷺ الخَلْقِيَّة، وأحواله وأخلاقه، وهيئته وعباداته.

وسيرة محمد بن إسحاق ومغازي الواقدي وطبقات ابن سعد وسيرة الفزاري أشهر في الناس باعتبار المطبوع المتداول من طبقتهم، وإلا فليس في حُسن المعرفة وصحَّة النقل والحكاية للسير والمغازي للشعبي نظير؛ فقد كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين أدركوا مغازي النبي ﷺ وغزواته يعجبون من إتقان

حكايته وروايته للمغازي علىٰ نحو ما رآها الصحابة رأي عين.

قال عبد الملك بن عمير: مَرَّ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا علىٰ الشعبي، وهو يحدِّث بالمغازي، فقال: لقد شهدتُ القومَ، فلهو أحفظ لها، وأعلمُ بها[١].

ومن المصنَّفات النافعة في السيرة كتاب «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّير» للحافظ أبي الفتح محمَّد بن محمَّد بن سَيِّد الناس اليعمري (ت: ٧٣٤هـ)، فقد اشتمل علىٰ سيرة النبي ﷺ كاملةً؛ ابتدأ اليعمري كتابه بالحديث عن نسب النبيِّ ﷺ، ثم سرد أموره وأحواله، ودعوته، ومغازيه، ومعجزاته، وشمائله، وختمه بذكر وفاته ﷺ.

واعتنىٰ ابن سيِّد الناس في مصنَّفه هذا علىٰ المرويات المسندة في حوادث السيرة، مع تناولها بالنقد والتحرير، وقد تحدَّث أبو الفتح اليعمري رَحِمَهُ اللَّهُ عن منهجه في مصنَّفه فقال[٢]: «إنِّي عمدت إلىٰ ما يتكرَّر النقل منه من كتب الأحاديث والسنن والمصنَّفات علىٰ الأبواب والمسانيد وكتب المغازي والسير، وغير ذلك ممَّا يتكرَّر ذكره، فأذكر ما أذكره من ذلك بأسانيدهم إلىٰ منتهاه».

ومن أعظم فوائد هذا الكتاب خدمته لسيرة محمَّد بن إسحاق؛ وهو العمدة في هذا الباب عند عامَّة الدارسين للسيرة؛ حيث قام بإسناد ما نقله عنه من الأخبار المرسلة.

---

(١) تهذيب الكمال (٤/ ٢٩).

(٢) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّير (١/ ٥٣).

قال الحافظ ابن سيد الناس رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «عمدتنا فيما نورده من ذلك على محمد بن إسحاق؛ إذ هو العمدة في هذا الباب لنا ولغيرنا، غير أنِّي قد أجد الخبر عنده مرسلًا، وهو عند غيره مسندًا، فأذكره من حيث هو مسند؛ ترجيحًا لمحل الإسناد. وإن كانت في مرسل ابن إسحاق زيادة أتبعته بها.

ولم أتتبع إسناد مراسيله وإنما كتبت ذلك بحسب ما وقع لي».

وتناول ابن سيد الناس في مصنّفه نقد المرويَّات لبعض الحوادث التي ذكرها، وشرح غريب الألفاظ فيها، ونادرًا ما يذكر الفوائد المتعلِّقة بالأخبار التي سردها، والأخبار التي تعدَّدت طرقها وهي ضعيفة لا يطيل في ذكرها ونقدها، ويستغني بما في القرآن فيجعله العمدة في ذلك.

وفي مدارسة المرويات والأخبار في السِّير والمغازي تحرَّىٰ تصحيح المنقول في ذلك من جهة الإسناد والمتن، فبعض مرويَّات السيرة صحيحة الإسناد ضعيفة المتن، وبعض المرويَّات في السِّير تلقَّاها كافَّة علماء المغازي، بالقبول وهذا من طرق تصحيح الأخبار.

قال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «وجدنا أهل الفتيا ومن حفظنا عنه من أهل العلم بالمغازي من قريش وغيرهم، لا يختلفون في أنَّ النبيَّ ﷺ قال عام الفتح: «**لا وصية لوارث، ولا يقتل مؤمن بكافر**»، ويأثِرُونَه عمن حفظوا عنه ممَّن لقوا

---

(١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّير (١/ ٥٤).

(٢) الرِّسالة (ص١٣٩، ١٤٠).

من أهل العلم بالمغازي، فكان هذا نقل عامَّة عن عامَّة، وكان أقوىٰ في بعض الأمر من نقل واحد عن واحد، وكذلك وجدنا أهل العلم عليه مجمعين. قال وروىٰ بعض الشاميين حديثًا ليس ممَّا يثبته أهل الحديث، فيه أنَّ بعض رجاله مجهولون، فرويناه عن النبيِّ منقطعًا. وإنما قبلناه بما وصفت من نقل أهل المغازي وإجماع العامة عليه».

وقد روىٰ مسلم في «صحيحه» من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ أنَّ النبيَّ ﷺ تزوَّج أم حبيبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا بعد الفتح.

وهذه رواية خاطئة، يُقدَّم عليها مرسل ابن إسحاق؛ أنَّ النبيَّ ﷺ تزوَّجها وهي بأرض الحبشة.

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «فإن قيل: بل يتعين أن يكون نكاحها بعد الفتح؛ لأن الحديث الذي رواه مسلم صحيح، وإسناده ثقات حفاظ، وحديث نكاحها وهي بأرض الحبشة من رواية محمد بن إسحاق مرسلًا، والناس مختلفون في الاحتجاج بمسانيد ابن إسحاق فكيف بمراسيله؟! فكيف بها إذا خالفت المسانيد الثابتة؟! وهذه طريقة لبعض المتأخرين في تصحيح حديث ابن عباس هذا؛ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ ما ذكره هذا القائل إنما يمكن عند تساوي النقلين، فيرجح بما ذكره، وأما مع تحقيق بطلان أحد النقلين وتيقنه، فلا يلتفت إليه؛ فإنه لا يُعلم

---

(١) جلاء الأفهام (ص٣٦١، ٣٦٢).

نزاع بين اثنين من أهل العلم بالسير والمغازي وأحوال رسول الله ﷺ أن نكاح أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لم يتأخر إلىٰ ما بعد الفتح، ولم يقله أحدٌ منهم قط، ولو قاله قائل لعلموا بطلان قوله، ولم يشكوا فيه.

الثاني: أن قوله: «إنَّ مراسيل ابن إسحاق لا تقاوم الصحيح المسند ولا تعارضه»؛ فجوابه: أن الاعتماد في هذا ليس علىٰ رواية ابن إسحاق وحده، لا متصلة ولا مرسلة، بل علىٰ النقل المتواتر عند أهل المغازي والسير: أن أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هاجرت مع زوجها، وأنَّه هلك نصرانيًّا بأرض الحبشة، وأنَّ النجاشي زوَّجها النبيَّ ﷺ، وأمهرها من عنده».

وبهذا نعرف فائدة الاستفادة من سيرة ابن إسحاق، وسبب عناية العلماء بها.

وكذلك الشَّأن بالنِّسبة لمغازي الواقدي، يستفاد منه ما هو مسند من طريق غيره، أما ما يقع في مرويَّاته من خلط الرِّوايات؛ فتلك مجازفات لا يُعوَّل عليها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «الواقدي لا يحتجُّ به إذا انفرد، لكن لا ريب في علمه بالمغازي، واستعلام كثير من تفاصيلها من جهته، ولم نذكر عنه إلا ما أسندناه عن غيره».

وقال شيخ الإسلام في نقد الواقدي[2]: «خلط الروايات بعضها ببعض، حتىٰ يظهر أنه سمع مجموع القصة من شيوخه، وإنما سمع من كل واحد بعضها،

(١) الصَّارم المسلول (ص٧٥).
(٢) الصارم المسلول (ص٩٧، ٩٨).

ولم يميِّزه ويدخله أخذ ذلك من الحديث المرسل والمقطوع، وربما حدس الراوي بعض الأمور لقرائن استفادها من عدة جهات، ويُكثر من ذلك إكثارًا يُنسب لأجله إلىٰ المجازفة في الرواية وعدم الضبط، فلم يمكن الاحتجاج بما ينفرد به؛ فأما الاستشهاد بحديثه والاعتضاد به فمما لا يمكن المنازعة فيه».



ثم قال المصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

[وَأَمَّا التَّفْسِيرُ فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ؛ لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ كَمُجَاهِدٍ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَعِكْرِمَةَ مَوْلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ كَطَاوُسٍ، وَأَبِي الشَّعْثَاءِ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَأَمْثَالِهِمْ.

وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْكُوفَةِ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا تَمَيَّزُوا بِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ.

وَعُلَمَاءُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي التَّفْسِيرِ، مِثْلُ: زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ الَّذِي أَخَذَ عَنْهُ مَالِكٌ التَّفْسِيرَ، وَأَخَذَهُ عَنْهُ أَيْضًا ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَخَذَهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ].

الشَّرح:

أعلم الأمصار التي عُرفت بعلم التفسير مكة والكوفة؛ فمكة كان بها ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ومكة في البداية لم يكن فيها من الصحابة إلا المستضعفين الذين لم يستطيعوا الهجرة منها. لأن الصحابة هاجروا منها إلىٰ المدينة، وبعد ذلك صار ابن عباس في مكة، فقد كان هو وأمُّه من المستضعفين الذين عذرهم الله عن الهجرة، فلم يشمله النهي عن الرجوع إلىٰ مكة؛ فإنه قال: «**كنت أنا وأمي من المستضعفين ممَّن عذر الله**»، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ﴾ [النساء: ٩٨-١٠٠]،

فهؤلاء الذين لم يستطيعوا الهجرة من مكة إلىٰ المدينة عذرهم الله، فابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا كان صغير السن، والعباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تأخَّر إسلامه إلىٰ فتح مكة، فابن عباس بعد وفاة النبي ﷺ بقي في مكَّة وفي آخر سني عمره ذهب إلىٰ الطائف بسبب تهديد عبد الله بن الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا له؛ لأنه طلب بيعته، فأبىٰ ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن يبايع في فُرقة، فصار علم ابن عباس في الحجاز، وعلىٰ وجه الخصوص في مكَّة، ومن هنا صارت مكة من المدن والأمصار التي استقرَّ فيها العلم.

والذين أخذوا علم التفسير وعلم الفقه عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا من الصحابة كثيرون فضلًا عن التابعين، لكن شيخ الإسلام ذكر خاصة طلبة ابن عباس في علم التفسير؛ وهم: مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة وطاوس، وَسَعِيد بْن جُبَيْرٍ، وغيرهم. لكنْ من أعلمهم مجاهد، ولذلك فالبخاري في «صحيحه» يختار رواية مجاهد عن ابن عباس في التَّفسير، ويرجِّح بها جماعة من العلماء إذا وقع خلاف بين أصحاب ابن عباس، ومع هذا فالمروي عن ابن عباس في التفسير بعضه صحيح وبعضه ضعيف؛ فرواية مجاهد صحيحة، لكن رواية الكلبيِّ عن ابن عباس ضعيفة[1]؛ لذلك يروي أحاديث طوال في التفسير وفي فضائل السور كلها ضعيفة، بل موضوعة وكذب، وهناك أيضًا إسناد تروىٰ به جملة من تفسير ابن عباس: جويبر عن الضَّحَّاك عن ابن عباس، والضَّحَّاك لم يسمع من ابن عبَّاس، فهذا منقطع، وجويبر متروك الحديث؛ لذلك ذكر الحافظ الذَّهبيُّ أن هذا الإسناد من أوهىٰ الأسانيد.

(١) **قال سفيان الثَّوري**: «قال لنا الكلبي: ما حدثت عني عن أبي صالح عن ابن عباس، فهو كذب، فلا تروه». الجرح والتعديل (١/ ٧٣).

فالمقصود: أن التفسير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعض أسانيده صحيحة وبعض أسانيده ضعيفة، لكنّ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حوي علم الصحابة في تفسير القرآن؛ لأنَّه تلقَّاه عن علمائهم كعمر وعليٍّ وأبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأيضًا أدركته بركة دعاء النبيِّ ﷺ له بعلم التأويل، فأوتي فهمًا واستنباطًا لمعاني القرآن؛ لذلك جاء في «صحيح البخاري»: أنَّ سعيد بن جبير سأله يهودي من يهود الحيرة - واليهودي له عناية بالأشياء التي في القرآن عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ -؛ فسأله عن قصة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع شعيب صاحب مدين؛ قال: «كم وفَّىٰ موسىٰ لشعيب صاحب مدين ثماني سنوات أو عشر سنوات؟»، لأن شعيبًا اشترط عليه في تزويجه ابنته أن يرعىٰ غنمه ثماني سنوات أو عشرًا، وخيَّره بين الأجلين، قال: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧]، فقال سعيد بن جبير: «دعني أسأل حبر العرب». فسأل ابن عباس، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن النبيَّ إذا وعد وفَّىٰ بأكمل الوعد». وهذا ذكره استنباطًا من معاني أخلاق الأنبياء، فقد أدركتِ ابنَ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بركة النبي ﷺ في دعائه له في علم التفسير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حبر الأمَّة وترجمان القرآن، مقدار ما سمعه من النبيِّ ﷺ لا يبلغ نحو العشرين حديثًا الذي يقول فيه: «سمعت ورأيت»، وسمع الكثير من الصَّحابة، وبُورك له في فهمه والاستنباط منه حتىٰ ملأ الدنيا علمًا وفقهًا».

---

(١) نقض المنطق (ص٨٠).

وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذهب إلى الكوفة، وأخذ عنه علم التفسير جماعة من خيار التابعين، وكذلك علومه كلها - كالفقه - وليس فقط علم التفسير، ومن جملة أولئك: الشعبي، وعلقمة، والأسود النخعي، وإبراهيم النخعي، هؤلاء من خيار من حفظ علم ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الشّعبي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ما دخل الكوفة أحد من الصَّحابة أنفع علمًا ولا أفقه صاحبًا من عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».



(١) سير أعلام النُّبلاء (١/ ٤٩٤).

ثم قال المصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

[وَالْمَرَاسِيلُ إِذَا تَعَدَّدَتْ طُرُقُهَا، وَخَلَتْ عَنِ الْمُوَاطَأَةِ قَصْدًا، أَوِ الِاتِّفَاقِ بِغَيْرِ قَصْدٍ؛ كَانَتْ صَحِيحَةً قَطْعًا.

فَإِنَّ النَّقْلَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ صِدْقًا مُطَابِقًا لِلْخَبَرِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كَذِبًا؛ تَعَمَّدَ صَاحِبُهُ الْكَذِبَ، أَوْ أَخْطَأَ فِيهِ، فَمَتَىٰ سَلِمَ مِنَ الْكَذِبِ الْعَمْدِ وَالْخَطَأِ؛ كَانَ صِدْقًا بِلَا رَيْبٍ.

فَإِذَا كَانَ الْحَدِيثُ جَاءَ مِنْ جِهَتَيْنِ أَوْ جِهَاتٍ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الْمُخْبِرَيْنِ لَمْ يَتَوَاطَآ عَلَىٰ اخْتِلَاقِهِ، وَعُلِمَ أَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ لَا تَقَعُ الْمُوَافَقَةُ فِيهِ اتِّفَاقًا بِلَا قَصْدٍ؛ عُلِمَ أَنَّهُ صَحِيحٌ.

مِثْلُ شَخْصٍ يُحَدِّثُ عَنْ وَاقِعَةٍ جَرَتْ، وَيَذْكُرُ تَفَاصِيلَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَيَأْتِي شَخْصٌ آخَرُ قَدِ عُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوَاطِئِ الْأَوَّلَ، فَيَذْكُرُ مِثْلَ مَا ذَكَرَهُ الْأَوَّلُ مِنْ تَفَاصِيلِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ؛ فَيُعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ تِلْكَ الْوَاقِعَةَ حَقٌّ فِي الْجُمْلَةِ؛ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا كَذَبَهَا عَمْدًا أَوْ خَطَأً، لَمْ يَتَّفِقْ فِي الْعَادَةِ أَنْ يَأْتِيَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِتِلْكَ التَّفَاصِيلِ الَّتِي تَمْنَعُ الْعَادَةُ اتِّفَاقَ الِاثْنَيْنِ عَلَيْهَا بِلَا مُوَاطَأَةٍ مِنْ أَحَدِهِمَا لِصَاحِبِهِ.

فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَتَّفِقُ أَنْ يَنْظُمَ بَيْتًا، وَيَنْظُمَ الْآخَرُ مِثْلَهُ، أَوْ يَكْذِبَ كَذِبَةً، وَيَكْذِبَ الْآخَرُ مِثْلَهَا.

أَمَّا إِذَا أَنْشَأَ قَصِيدَةً طَوِيلَةً ذَاتَ فُنُونٍ عَلَىٰ قَافِيَةٍ وَرَوِيٍّ؛ فَلَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِأَنَّ

غَيْرَهُ يُنْشِئُ مِثْلَهَا لَفْظًا وَمَعْنًىٰ مَعَ الطُّولِ الْمُفْرِطِ، بَلْ يُعْلَمُ بِالْعَادَةِ أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنْهُ، وَكَذَلِكَ إِذَا حَدَّثَ حَدِيثًا طَوِيلًا فِيهِ فُنُونٌ، وَحَدَّثَ آخَرُ بِمِثْلِهِ، فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ وَاطَأَهُ عَلَيْهِ، أَوْ أَخَذَهُ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ الْحَدِيثُ صِدْقًا.

وَبِهَذِهِ الطَّرِيقِ يُعْلَمُ صِدْقُ عَامَّةِ مَا تَتَعَدَّدُ جِهَاتُهُ الْمُخْتَلِفَةُ عَلَىٰ هَذَا الْوَجْهِ مِنَ الْمَنْقُولَاتِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدُهَا كَافِيًا؛ إِمَّا لِإِرْسَالِهِ، وَإِمَّا لِضَعْفِ نَاقِلِهِ.

لَكِنْ مِثْلُ هَذَا لَا تُضْبَطُ بِهِ الْأَلْفَاظُ وَالدَّقَائِقُ الَّتِي لَا تُعْلَمُ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ، فَلَا يَحْتَاجُ ذَلِكَ إِلَىٰ طَرِيقٍ يَثْبُتُ بِهَا مِثْلُ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ وَالدَّقَائِقِ.

وَلِهَذَا ثَبَتَتْ بِالتَّوَاتُرِ غَزْوَةُ بَدْرٍ، وَأَنَّهَا قَبْلَ أُحُدٍ، بَلْ يُعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ حَمْزَةَ، وَعَلِيًّا، وَعُبَيْدَةَ، بَرَزُوا إِلَىٰ عُتْبَةَ، وَشَيْبَةَ، وَالْوَلِيدِ، وَأَنَّ عَلِيًّا قَتَلَ الْوَلِيدَ، وَأَنَّ حَمْزَةَ قَتَلَ قِرْنَهُ، ثُمَّ يُشَكُّ فِي قِرْنِهِ هَلْ هُوَ عُتْبَةُ، أَوْ شَيْبَةُ؟

وَهَذَا الْأَصْلُ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ؛ فَإِنَّهُ أَصْلٌ نَافِعٌ فِي الْجَزْمِ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَنْقُولَاتِ فِي الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْمَغَازِي، وَمَا يُنْقَلُ مِنْ أَقْوَالِ النَّاسِ وَأَفْعَالِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَلِهَذَا إِذَا رُوِيَ الْحَدِيثُ الَّذِي يَتَأَتَّىٰ فِيهِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَجْهَيْنِ - مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ أَحَدَهُمَا لَمْ يَأْخُذْهُ عَنِ الْآخَرِ -؛ جُزِمَ بِأَنَّهُ حَقٌّ، لَا سِيَّمَا إِذَا عُلِمَ أَنَّ نَقَلَتَهُ لَيْسُوا مِمَّنْ يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ؛ وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَىٰ أَحَدِهِمُ النِّسْيَانُ وَالْغَلَطُ.

فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ الصَّحَابَةَ؛ كَابْنِ مَسْعُودٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَابْنِ عُمَرَ، وَجَابِرٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ

يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَضْلًا عَمَّنْ هُوَ فَوْقَهُمْ، كَمَا يَعْلَمُ الرَّجُلُ مِنْ حَالِ مَنْ جَرَّبَهُ وَخَبَرَهُ خِبْرَةً بَاطِنَةً طَوِيلَةً؛ أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ يَسْرِقُ أَمْوَالَ النَّاسِ، وَيَقْطَعُ الطَّرِيقَ، وَيَشْهَدُ بِالزُّورِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ التَّابِعُونَ بِالْمَدِينَةِ، وَمَكَّةَ، وَالشَّامِ، وَالْبَصْرَةِ؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ مِثْلَ أَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ، وَالْأَعْرَجِ، وَسُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَأَمْثَالِهِمْ؛ عَلِمَ قَطْعًا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِمَّنْ يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ فِي الْحَدِيثِ، فَضْلًا عَمَّنْ هُوَ فَوْقَهُمْ؛ مِثْلَ: مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، وَالْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، أَوْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، أَوْ عَبِيدَةَ السَّلْمَانِيِّ، أَوْ عَلْقَمَةَ، أَوِ الْأَسْوَدِ، أَوْ نَحْوِهِمْ.

وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَىٰ الْوَاحِدِ مِنَ الْغَلَطِ؛ فَإِنَّ الْغَلَطَ وَالنِّسْيَانَ كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ، وَمِنَ الْحُفَّاظِ مَنْ قَدْ عَرَفَ النَّاسُ بُعْدَهُ عَنْ ذَلِكَ جِدًّا؛ كَمَا عَرَفُوا حَالَ الشَّعْبِيِّ، وَالزُّهْرِيِّ، وَعُرْوَةَ، وَقَتَادَةَ، وَالثَّوْرِيِّ، وَأَمْثَالِهِمْ، لَا سِيَّمَا الزُّهْرِيُّ فِي زَمَانِهِ، وَالثَّوْرِيُّ فِي زَمَانِهِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَقُولُ الْقَائِلُ: إِنَّ ابْنَ شِهَابٍ الزُّهْرِيَّ لَا يُعْرَفُ لَهُ غَلَطٌ مَعَ كَثْرَةِ حَدِيثِهِ وَسِعَةِ حِفْظِهِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْحَدِيثَ الطَّوِيلَ إِذَا رُوِيَ مَثَلًا مِنْ وَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ مِنْ غَيْرِ مُوَاطَأَةٍ؛ امْتَنَعَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ غَلَطًا، كَمَا امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ كَذِبًا؛ فَإِنَّ الْغَلَطَ لَا يَكُونُ فِي قِصَّةٍ طَوِيلَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ فِي بَعْضِهَا، فَإِذَا رَوَىٰ هَذَا قِصَّةً طَوِيلَةً مُتَنَوِّعَةً، وَرَوَاهَا الْآخَرُ مِثْلَمَا رَوَاهَا الْأَوَّلُ مِنْ غَيْرِ مُوَاطَأَةٍ؛ امْتَنَعَ الْغَلَطُ فِي جَمِيعِهَا، كَمَا امْتَنَعَ الْكَذِبُ فِي جَمِيعِهَا مِنْ غَيْرِ مُوَاطَأَةٍ.

وَلِهَذَا إِنَّمَا يَقَعُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ غَلَطٌ فِي بَعْضِ مَا جَرَىٰ فِي الْقِصَّةِ، مِثْلُ حَدِيثِ اشْتِرَاءِ النَّبِيِّ ﷺ الْبَعِيرَ مِنْ جَابِرٍ؛ فَإِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ طُرُقَهُ عَلِمَ قَطْعًا أَنَّ الْحَدِيثَ صَحِيحٌ، وَإِنْ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ الثَّمَنِ.

وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»؛ فَإِنَّ جُمْهُورَ مَا فِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ مِمَّا يُقْطَعُ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَهُ؛ لِأَنَّ غَالِبَهُ مِنْ هَذَا النَّحْوِ، وَلِأَنَّهُ قَدْ تَلَقَّاهُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ، وَالْأُمَّةُ لَا تَجْتَمِعُ عَلَىٰ خَطَأٍ؛ فَلَوْ كَانَ الْحَدِيثُ كَذِبًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَالْأُمَّةُ مُصَدِّقَةٌ لَهُ قَابِلَةٌ لَهُ، لَكَانُوا قَدْ أَجْمَعُوا عَلَىٰ تَصْدِيقِ مَا هُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَذِبٌ، وَهَذَا إِجْمَاعٌ عَلَى الْخَطَأِ، وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ، وَإِنْ كُنَّا نَحْنُ بِدُونِ الْإِجْمَاعِ نُجَوِّزُ الْخَطَأَ أَوِ الْكَذِبَ عَلَى الْخَبَرِ، فَهُوَ كَتَجْوِيزِنَا قَبْلَ أَنْ نَعْلَمَ الْإِجْمَاعَ عَلَى الْعِلْمِ الَّذِي ثَبَتَ بِظَاهِرٍ أَوْ قِيَاسٍ ظَنِّيٍّ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ مَا اعْتَقَدْنَاهُ، فَإِذَا أَجْمَعُوا عَلَى الْحُكْمِ جَزَمْنَا بِأَنَّ الْحُكْمَ ثَابِتٌ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

وَلِهَذَا كَانَ جُمْهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ عَلَىٰ أَنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ إِذَا تَلَقَّتْهُ الْأُمَّةُ بِالْقَبُولِ تَصْدِيقًا لَهُ، أَوْ عَمَلًا بِهِ؛ أَنَّهُ يُوجِبُ الْعِلْمَ.

وَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُونَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ مِنْ أَصْحَابِ: أَبِي حَنِيفَةَ، وَمَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ، إِلَّا فِرْقَةً قَلِيلَةً مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ - اتَّبَعُوا فِي ذَلِكَ طَائِفَةً مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ - أَنْكَرُوا ذَلِكَ؛ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَوْ أَكْثَرَهُمْ يُوَافِقُونَ الْفُقَهَاءَ وَأَهْلَ الْحَدِيثِ وَالسَّلَفَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْأَشْعَرِيَّةِ؛ كَأَبِي إِسْحَاقَ وَابْنِ فُورَكَ.

وَأَمَّا ابْنُ الْبَاقِلَّانِيِّ فَهُوَ الَّذِي أَنْكَرَ ذَلِكَ، وَتَبِعَهُ مِثْلُ أَبِي الْمَعَالِي، وَأَبِي حَامِدٍ، وَابْنِ عَقِيلٍ، وَابْنِ الْجَوْزِيِّ، وَابْنِ الْخَطِيبِ، وَالْآمِدِيِّ، وَنَحْوُ هَؤُلَاءِ.

وَالْأَوَّلُ هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ أَبُو حَامِدٍ، وَأَبُو الطَّيِّبِ، وَأَبُو إِسْحَاقَ، وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَئِمَّةِ الشَّافِعِيَّةِ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو يَعْلَىٰ، وَأَبُو الْخَطَّابِ، وَأَبُو الْحَسَنِ بْنِ الزَّاغُونِيِّ وَأَمْثَالُهُمْ مِنَ الْحَنْبَلِيَّةِ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ شَمْسُ الدِّينِ السَّرَخْسِيُّ وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ.

وَإِذَا كَانَ الْإِجْمَاعُ عَلَىٰ تَصْدِيقِ الْخَبَرِ مُوجِبًا لِلْقَطْعِ بِهِ، فَالِاعْتِبَارُ فِي ذَلِكَ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ، كَمَا أَنَّ الِاعْتِبَارَ فِي الْإِجْمَاعِ عَلَىٰ الْأَحْكَامِ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِبَاحَةِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ تَعَدُّدَ الطُّرُقِ مَعَ عَدَمِ التَّشَاعُرِ أَوِ الِاتِّفَاقِ فِي الْعَادَةِ، يُوجِبُ الْعِلْمَ بِمَضْمُونِ الْمَنْقُولِ، لَكِنْ هَذَا يُنْتَفَعُ بِهِ كَثِيرًا فِي عِلْمِ أَحْوَالِ النَّاقِلِينَ.

وَفِي مِثْلِ هَذَا يُنْتَفَعُ بِرِوَايَةِ الْمَجْهُولِ وَالسَّيِّئِ الْحِفْظِ، وَبِالْحَدِيثِ الْمُرْسَلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَكْتُبُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ يَصْلُحُ لِلشَّوَاهِدِ وَالِاعْتِبَارِ مَا لَا يَصْلُحُ لِغَيْرِهِ.

قَالَ أَحْمَدُ: قَدْ أَكْتُبُ حَدِيثَ الرَّجُلِ لِأَعْتَبِرَهُ.

وَمَثَّلَ هَذَا بِعَبْدِ اللهِ بْنِ لَهِيعَةَ قَاضِي مِصْرَ؛ فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ حَدِيثًا، وَمِنْ خِيَارِ النَّاسِ؛ لَكِنْ بِسَبَبِ احْتِرَاقِ كُتُبِهِ وَقَعَ فِي حَدِيثِهِ الْمُتَأَخِّرِ غَلَطٌ، فَصَارَ يُعْتَبَرُ بِذَلِكَ وَيُسْتَشْهَدَ بِهِ، وَكَثِيرًا مَا يَقْتَرِنُ هُوَ وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، وَاللَّيْثُ حُجَّةٌ ثَبْتٌ إِمَامٌ.

وَكَمَا أَنَّهُمْ يَسْتَشْهِدُونَ وَيَعْتَبِرُونَ بِحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ سُوءُ حِفْظٍ، فَإِنَّهُمْ أَيْضًا يُضَعِّفُونَ مِنْ حَدِيثِ الثِّقَةِ الصَّدُوقِ الضَّابِطِ أَشْيَاءَ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ غَلِطَ فِيهَا؛ بِأُمُورٍ يَسْتَدِلُّون بِهَا، وَيُسَمُّونَ هَذَا «عِلْمَ عِلَلِ الْحَدِيثِ»، وَهُوَ مِنْ أَشْرَفِ عُلُومِهِمْ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ الْحَدِيثُ قَدْ رَوَاهُ ثِقَةٌ ضَابِطٌ وَغَلِطَ فِيهِ، وَغَلَطُهُ فِيهِ عُرِفَ؛ إِمَّا بِسَبَبٍ ظَاهِرٍ، كَمَا عَرَفُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَ مَيْمُونَةَ وَهُوَ حَلَالٌ، وَأَنَّهُ صَلَّىٰ فِي الْبَيْتِ رَكْعَتَيْنِ، وَجَعَلُوا رِوَايَةَ ابْنِ عَبَّاسٍ لِتَزَوُّجِهَا حَرَامًا، وَلِكَوْنِهِ لَمْ يُصَلِّ، مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلَطُ.

وَكَذَلِكَ أَنَّهُ اعْتَمَرَ أَرْبَعَ عُمَرٍ، وَعَلِمُوا أَنَّ قَوْلَ ابْنِ عُمَرَ: «إِنَّهُ اعْتَمَرَ فِي رَجَبٍ»، مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلَطُ.

وَعَلِمُوا أَنَّهُ تَمَتَّعَ وَهُوَ آمِنٌ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَأَنَّ قَوْلَ عُثْمَانَ لِعَلِيٍّ: «كُنَّا يَوْمَئِذٍ خَائِفِينَ»؛ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلَطُ.

وَأَنَّ مَا وَقَعَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْبُخَارِيِّ: «أَنَّ النَّارَ لَا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ»، مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلَطُ. وَهَذَا كَثِيرٌ.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ طَرَفَانِ: طَرَفٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِهِ؛ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالضَّعِيفِ، فَيَشُكُّ فِي صِحَّةِ أَحَادِيثَ أَوْ فِي الْقَطْعِ بِهَا مَعَ كَوْنِهَا مَعْلُومَةً مَقْطُوعًا بِهَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهِ.

وَطَرَفٌ مِمَّنْ يَدَّعِي اتِّبَاعَ الْحَدِيثِ وَالْعَمَلَ بِهِ، كُلَّمَا وَجَدَ لَفْظًا فِي حَدِيثٍ قَدْ رَوَاهُ ثِقَةٌ، أَوْ رَأَىٰ حَدِيثًا بِإِسْنَادٍ ظَاهِرُهُ الصِّحَّةُ، يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ مِنْ جِنْسِ

مَا جَزَمَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِصِحَّتِهِ، حَتَّىٰ إِذَا عَارَضَ الصَّحِيحَ الْمَعْرُوفَ أَخَذَ يَتَكَلَّفُ لَهُ التَّأْوِيلَاتِ الْبَارِدَةَ، أَوْ يَجْعَلُهُ دَلِيلًا لَهُ فِي مَسَائِلِ الْعِلْمِ، مَعَ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ يَعْرِفُونَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا غَلَطٌ.

وَكَمَا أَنَّ عَلَىٰ الْحَدِيثِ أَدِلَّةٌ يُعْلَمُ بِهَا أَنَّهُ صِدْقٌ، وَقَدْ يُقْطَعُ بِذَلِكَ، فَعَلَيْهِ أَدِلَّةٌ يُعْلَمُ بِهَا أَنَّهُ كَذِبٌ، وَيُقْطَعُ بِذَلِكَ.

مِثْلَمَا يُقْطَعُ بِكَذِبِ مَا يَرْوِيهِ الْوَضَّاعُونَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْغُلُوِّ فِي الْفَضَائِلِ:

مِثْلَ حَدِيثِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ وَأَمْثَالِهِ؛ مِمَّا فِيهِ أَنَّ مَنْ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ كَذَا وَكَذَا نَبِيًّا.

وَفِي التَّفْسِيرِ مِنْ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ قِطْعَةٌ كَبِيرَةٌ؛ مِثْلَ الْحَدِيثِ الَّذِي يَرْوِيهِ الثَّعْلَبِيُّ، وَالْوَاحِدِيُّ، وَالزَّمَخْشَرِيُّ، فِي فَضَائِلِ سُوَرِ الْقُرْآنِ سُورَةً سُورَةً؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَالثَّعْلَبِيُّ هُوَ فِي نَفْسِهِ كَانَ فِيهِ خَيْرٌ وَدِينٌ، وَكَانَ حَاطِبَ لَيْلٍ يَنْقُلُ مَا وَجَدَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ مِنْ صَحِيحٍ وَضَعِيفٍ وَمَوْضُوعٍ.

وَالْوَاحِدِيُّ صَاحِبُهُ كَانَ أَبْصَرَ مِنْهُ بِالْعَرَبِيَّةِ؛ لَكِنْ هُوَ أَبْعَدُ عَنِ السَّلَامَةِ وَاتِّبَاعِ السَّلَفِ.

وَالْبَغَوِيُّ تَفْسِيرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنَ الثَّعْلَبِيِّ، لَكِنَّهُ صَانَ تَفْسِيرَهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ وَالْآرَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ.

وَالْمَوْضُوعَاتُ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ كَثِيرَةٌ، مِثْلُ الْأَحَادِيثِ الْكَثِيرَةِ الصَّرِيحَةِ فِي الْجَهْرِ بِالْبَسْمَلَةِ.

وَحَدِيثِ عَلِيٍّ الطَّوِيلِ فِي تَصَدُّقِهِ بِخَاتَمِهِ فِي الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَمِثْلُ مَا رُوِيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]: أَنَّهُ عَلِيٌّ، ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]: أُذُنُكَ يَا عَلِيُّ].

الشَّـرْح:

هذه القطعة من مصنَّف شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في أصول التفسير من أدقِّ ما كتبه شيخ الإسلام في هذا الكتاب، فتحدَّث عن الحكم علىٰ الحديث من جهة اتحاد المخرج، وتصحيح الحديث بمجموع طرقه، وحُجية المراسيل، وحكم خبر الآحاد، ومرتبة أحاديث الصحيحين، وتحدَّث كذلك عمَّا يُعرف به ضعف الحديث من جهة الإسناد ومن جهة المتن، ثم تكلَّم بعد ذلك في الاختلاف غير الضَّارِّ في بعض المتون؛ لأن بعض المتون فيها اختلاف في بعض ألفاظها وهي غير مضطربة الرواية، وذكر أيضًا ما يقع من الوهم من بعض الرواة الثقات في بعض الأحاديث، وذكر كذلك ضلال الرافضة في جعل نصوص القرآن التي معناها في كلِّ من اتصف بها خاصة حصريًّا في عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثم تكلم عن تفسير الثعلبي والزمخشري والواحدي والبغوي، وذكر تقييمًا لهذه التفاسير؛ بحيث ينتبه طالب العلم إلىٰ التفاسير التي تجمع الغثَّ والسمين

فيحذرها إلا من يُحسن التمييز بين الغثَّ والسمين، ويجتنب التفاسير البدعية، ويلتفت طالب العلم إلىٰ التفاسير النقية والتفاسير الصحيحة؛ صحيحة الاعتقاد، وصحيحة التلقي في معاني التفسير عن الصحابة والتابعين وأئمَّة السنَّة، فتكون هي مصادر تلقيه لمعاني القرآن، كتفسير الطَّبري وابن كثير والبغوي والسمعاني رحمهم الله

فقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «الْمَرَاسِيلُ إِذَا تَعَدَّدَتْ طُرُقُهَا، وَخَلَتْ عَنِ الْمُوَاطَأَةِ قَصْدًا، أَوِ الِاتِّفَاقِ بِغَيْرِ قَصْدٍ؛ كَانَتْ صَحِيحَةً قَطْعًا».

فأقول أولًا: المرسل يُطلق ويراد به مرسل الصحابي؛ وهو أن يروي الصحابي الحديث أو الرواية أو القصَّة ممَّا لم يسمعها أو يشاهدها عن النبي ﷺ، وإنما تلقاها عن صحابيٍّ آخر قد شهد تلك القصَّة أو الحادثة، أو سمع الرواية من النبيِّ ﷺ، فمرسل الصحابي حجة بالإجماع عند العلماء؛ لأنَّ الصحابة كلهم عدول، ومن أشهر من عُرف بأنَّ أكثر مروياته مراسيل عن الصَّحابة ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «تهذيب السنن»: «ما رواه ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ مشافهة عشرون حديثًا، والبقية كلها مراسيل عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ»، لأنَّه كان غلامًا وتوفِّي النبي ﷺ وقد ناهز الاحتلام.

والنبي ﷺ بُعث في مكَّة وجلس بها ثلاثة عشر عامًا، وجلس في المدينة عشرة أعوام؛ فمجموع ما أوحي إليه في هذه المدَّة في ثلاث وعشرين سنة إذا ما قورن بعمر ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عند وفاة النبيِّ ﷺ وقد ناهز الاحتلام، وإذا علمنا أنَّ الصبيَّ في أول سني عمره لا يميّز، فمقدار ما تلقاه عن النبي ﷺ في هذه الفترة لا

شكَّ أنه محدود جدًّا، وبقية الأحاديث ممَّا صحَّت أسانيدها عنه؛ فهي حجَّة عندنا أهل السنَّة والجماعة، ولا نطعن فيها كما يفعل الرافضة مع أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ يقولون: كيف أسلم أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعد غزوة خيبر ثم هو يروي هذه الأحاديث؟ فنقول: أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ دعا له النبيُّ ﷺ بالحفظ، فأدركته بركة دعاء النبيِّ ﷺ، وأبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أدرك حوادث ضخمة، وكان كبيرًا عاقلًا مميِّزًا حافظًا ولم يكن غلامًا، ولم يكن صبيًّا، وما أدركه من الحوادث من فتح خيبر وفتح مكة، وعام الوفود، وحجة الوداع، وغيرها، لا يُستبعد معها كثرة ما روىٰ، ثم له خصوصية؛ وهي أنَّه كان يلازم النبيَّ ﷺ بشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضر بقيَّة الصحابة ويحفظ ما لا يحفظون.

فلا نطعنُ في مرويَّات أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولا نطعن في مرويَّات ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ لأنَّ نفوسنا نقيَّةً مع الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، سواء كانوا من آل البيت أو لم يكونوا، فكلُّهم أصحاب النبي ﷺ، وكلُّهم تجب موالاتهم، والله عَزَّوَجَلَّ اختصَّهم بصحبة النبي ﷺ، وهم الذين أدوا إلينا الدين. هذا بالنسبة لمرسل الصحابي؛ فهو حجة بالإجماع.

أما بالنسبة للمرسل في اصطلاح المحدِّثين: فيُطلق علىٰ الانقطاع في الإسناد في أي موضع كان؛ فيقولون: هذا مرسلٌ، ويستخدمونه أيضًا في انقطاع خاصٍّ وهو ما يرويه التابعيُّ عن النبيِّ ﷺ، والتابعيُّ لم يدرك النبي ﷺ، ومن هنا تكلَّم العلماء في حكم الرواية المرسلة، والصحيح في هذه المسألة: أنه لا يُطلق القول بقبول مرسل التابعي أو ردِّه مطلقًا، وإنما يُعتبر في قبول مرسل التابعي أو رده أمران:

الأمر الأول: طبقة التابعي.

والأمر الآخر: عادة التابعي فيمن يروي عنه.

فإن كان التابعيُّ من طبقة كبار التابعين كسعيد بن المسيِّب، وكانت عادته أنه لا يرسل إلا عن ثقة، فمرسله حجَّة؛ كما قال الإمام أحمد ويحيىٰ بن معين وعلي بن المديني، وغيرهم من أئمَّة العلم؛ لأن سعيد بن المسيب من طبقة كبار التابعين؛ فقد أدرك عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأدرك جمًّا كثيرًا من الصحابة، ثم إن هذه الطبقة - طبقة كبار التابعين - لم تظهر فيها البدعة والكذب علىٰ النبيِّ ﷺ، ثم من عادة سعيد بن المسيب أنه لا يُرسل إلا عن ثقة.

أما مراسيل من دون كبار التابعين سواء من أوساط التابعين أو صغارهم فلا يُقبل حتىٰ يُعلم من أرسل عنه، فإن كان أرسل عن صحابيٍّ فهذا حُجَّةٌ؛ لأن الصحابة عدول، وإن كان أرسل عن تابعي ثقة عن صحابي فهذا حجة، وإن كان أرسل عن ضعيف أو مجهول فهذا لا يُقبل مرسله.

ومن هنا تكلَّم العلماء في تمييز أنواع المراسيل بحسب ما ذكرنا من هذه المرجِّحات؛ فيقولون: مراسيل سعيد بن المسيب أصحُّ المراسيل، ومراسيل الزهري وقتادة وعطاء ضعيفة؛ لأنهم يرسلون عن الثقات والضعفاء والمجهولين.

والمرسل أيضًا في تصحيحه يعتضد أحيانًا بمرجِّحات أخرىٰ توجب قبوله أو ردِّه، فالمرسل إذا اعتضد بالقرآن صار حجة بالاتفاق، وإذا اعتضد بقول الصحابي صار حجة بالاتفاق؛ كما ذكره شيخ الإسلام في «شرح العمدة».

بعد ذلك تكلَّم شيخ الإسلام في تعدُّد الطرق وحجِّيتها؛ سواء في المرسل أو الحديث المرفوع إلىٰ النبيِّ ﷺ، وهذا من أدق أنواع تخريج الأحاديث والحكم عليها بالتصحيح أو التضعيف؛ لأن الحديث المتفق علىٰ تصحيحه أو المتفق علىٰ تضعيفه؛ هذا لا يختلف فيه أحد، والحديث الصحيح لذاته أو الضعيف لذاته هذا لا يختلف فيه أحد في الغالب.

أما الحديث الصحيح لذاته فهو من رواية الثقات فهذا حجِّيته ثابتة، لكن الأحاديث المروية من طرق رواتها فيهم ضعف؛ فتصحيح الحديث بمجموع الطرق ذكر شيخ الإسلام في تصحيحه أمران:

الأمر الأول: اتحاد مخرج الحديث، واتحاد المخرج من جهة الإسناد ومن جهة المتن؛ فإن كان المتن مضطربًا فهذا مخرج أحاديثه يدلُّ علىٰ ضعفه، وإن كان إسناد الحديث مضطربًا وأسانيده متعارضة؛ فيروىٰ الحديث تارة مسندًا وتارة مرسلًا وتارة مقطوعًا، وليس من يسنده في وزن من يقبل تفرده؛ فهذا الاختلاف في الإسناد اضطرابٌ يوجب رده.

أما إذا اتحد مخرج الحديث من رواية من يعتبر بحديثه؛ يعني: من يقبل حفظه بالاعتضاد؛ فلا يُقبل حديث الكذَّاب والمتَّهم بالكذب والمتروك، وشديد الضعف، ولا المجهول الذي إذا روىٰ رواية خالف فيها الثقات؛ لأنَّ علماء الحديث يستدلُّون بمخالفته للثقات علىٰ ضعف روايته، وبهذا يتميّز حديث المجهول؛ كما قال أبو زرعة الرازي.

فالرواة الذين يُحتجُّ بحديثهم بالاعتضاد: الصدوق الذي فيه لين، أمثال هؤلاء إذا اعتضدت رواياتهم، فهذه الروايات إذا اتَّحد مخرجها إسنادًا واتحد لفظها من جهة المتن؛ يصحِّحها بعض أهل العلم، ويقولون: هذا حسن بمجموع طرقه. وعبارات أهل العلم في هذا -يعني: استعمال مخرج الحديث في الحكم على الأحاديث - واضحة جدًّا، وتدلُّ على أنه من أهم المعايير في تصحيح الحديث وتضعيفه بالنسبة للتصحيح بمجموع الطرق، يقول عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: «إذا أردت أن يصحَّ لك الحديث فاضرب بعضه ببعض»، يعني: لا تحكم على الحديث من ظاهر الإسناد ومن رواية واحدة، بل لابُدَّ أن تجمع الحديث من كل طرقه، وتنظر فيما ائتلفت فيه أسانيده أو اختلفت، وكذلك مخرج المتن؛ هل اتفق على ألفاظه أو اضطرب فيه. فاجمع الطرق وانظر في مخرج الحديث من جهة الإسناد والمتن.

وأيضًا إذا كان في هذه الطُّرق روايات صحيحة، وخالفها بعض من ليس في قوة حفظ هؤلاء الثقات الذي اتفقوا على رواية الحديث بإسناد واحد ومتن واحد؛ فهنا مخالفة الضُّعفاء تكون مردودةً من جهة الإسناد ومن جهة المتن، أمَّا إن كانوا في حفظ ووزن من روى الحديث بطريق مختلف عنهم؛ يكون هذا اضطراب؛ فهذا مما يُردُّ به الحديث.

ولهذا قال الإمام مسلمٌ في «مقدمة صحيحه»: «المنكر: هو أن يروي الراوي ما يخالف رواية الثقات»؛ هذا كله يدل على أن منهج المتقدمين في تصحيح الأحاديث جَمْع الطرق، فلا يحكمون على الحديث فقط من إسناد واحد

ويهملون النظر في بقية الطرق، وقد نبَّه علىٰ هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، وذكر فرق ما بين الحديث الذي ظاهره الصحة وهو معلٌّ، وبين الحديث الصحيح وإن كان فردًا. ومن الأحاديث الصحيحة من راوية الأفراد حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّما الأعمال بالنيَّات**»، وهو في الصحيحين.

إذًا لا يكون المخرج فقط هو المعيار الوحيد في التصحيح، بل مخرج الحديث مع حفظ الرواة؛ ولذلك قد يتحد المخرج من رواية الضعفاء؛ فلا يُقبل الحديث، كحديث «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»؛ هذا الحديث اتحد مخرجه علىٰ هذا المتن لكن من رواية الضعفاء والكذَّابين والمتروكين؛ فهو حديث ضعيف عند عامة علماء الحديث. كذلك حديث «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها»؛ فهو أيضًا حديث ضعيف وإن اتحد مخرجه علىٰ هذا اللفظ، وفي فضائل عليّ بن أبي طالب من الرِّوايات الصحيحة غنية عن رواية الضعفاء والمتروكين والكذَّابين، قال الله عَزَّوَجَلَّ في فضل الصحابة: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا** ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]، وقال النبيّ ﷺ في فضل خلافة عليٍّ بن أبي طالب: «**خلافة النبوَّة بعدي ثلاثون عامًا**»، ومنها خلافة علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعد أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

ثم ذكر شيخ الإسلام ما يقع في بعض الأحاديث من الاختلاف في الألفاظ غير الضار، واختلاف المتون إذا كان الحديث متحد المخرج، ثم وقعت ألفاظ فيها خلاف؛ فهذا الخلاف يكون المرجّح فيه رواية الثقات، ومن خالفهم رُدّت

روايته فيما خالفهم فيه، فقد يوافقهم المخالف في كل الحديث إلا في لفظة، فترد من مخالفته اللفظة، وبقية ما اتحد مخرجه من رواية الثقات هذا مقبول، وهذا منهج أهل السنة والجماعة، أمَّا أهل الزيغ والبدع فيتَّخذون ذلك ذريعة لرد الحديث؛ وهذا باطل.

قال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ أهل الزيغ والبدع لا يزالون يطعنون في الأخبار لاختلاف ألفاظها».

إذًا فالحديث إذا كان من رواية الثقات فما اتفقوا علىٰ ألفاظه فهو حجة، وما تفرد فيه بعض الرواة بمخالفة الثقات رُدَّت مخالفته فقط، والحديث الصحيح ثابت، **وذكر شيخ الإسلام نماذج لذلك:**

- حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن النبي ﷺ اشترىٰ بعيره وهو قافل من إحدىٰ الغزوات؛ كلُّ الأحاديث متفقة المخرج علىٰ هذا، لكن الاختلاف وقع فقط في مقدار الثمن، لكن الرواية الصحيحة وأرجح الروايات أن النبي ﷺ اشتراه بأوقية، وهي أربعة دنانير، فإذًا هذا مرجح لا يوجب ردَّ الحديث.

وأمَّا حديث «لا تمتلئ النَّار حتىٰ يُنشئ الله لها خلقًا آخر»، فهذه الرِّواية انقلبت علىٰ الرَّاوي، حيث قال: «النَّار» وصوابه الجنَّة؛ لأنَّ الله لا يظلم أحدًا، ولا ينشئ خلقًا فيعذِّبهم بالنَّار بغير كسب ولا عمل يوجب تلك العقوبة، وأمَّا الجنة

---

(١) التوحيد (٢/ ٥٦٩).

فهي دار إحسان وفضل وعدل وكرامة ينشئ الله لها خلقًا فينعِّمهم بالجنَّة[(١)].

- كذلك ما رواه ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ النبيَّ ﷺ تزوَّج من ميمونة وهو مُحرِمٌ. والنبي ﷺ تزوَّج ميمونة وهو حلال، كما ذكرت هذا ميمونة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا صاحبة القصة، وذكر ذلك أيضًا أبو رافع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ السفير بين النبي ﷺ وبين ميمونة، فإذًا يتضح من رواية ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه لم يعلم بزواج النبي ﷺ إلا بعدما رأىٰ النبيَّ ﷺ محرمًا، فتحدَّث بذلك وظنَّ أن النبي ﷺ تزوَّجها محرمًا، وهو في الحقيقة تزوَّجها وهو حلال.

فهذا نستفيد منه توجيه مختلف الأحاديث بما تأتلف عليه النصوص.

- وكذلك ذكر شيخ الإسلام الخلاف بين بلال وأسامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في صلاة النبي ﷺ داخل الكعبة، فبلال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أثبتها، وأسامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ نفاها. فالنبي ﷺ دخل الكعبة في عام فتح مكة وليس في حجَّة الوداع، ولم يدخلها أيضًا في عُمَرِهِ الأربع التي اعتمرها؛ ولذلك دخول الكعبة ليس نسكًا في حجٍّ ولا عُمرة، وهذا من رحمة الله بعباده؛ لأنه لو كان دخول الكعبة من مناسك الحجِّ أو العمرة ربَّما أصاب الناس حرج شديد، فالكعبة لا تستوعب الناس، خصوصًا في المواسم؛ في الحجِّ وفي رمضان وغيرها من الأوقات التي يزدحم فيها الناس.

فإذًا دخوله كان في عام فتح مكة، فدخل النبي ﷺ الكعبة ودخل معه بلال وأسامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وأمر بإغلاق الباب، فلم يدخل معهم غيرهم، وبلال أثبت أن

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٤٣٦، ٤٣٧).

النبي ﷺ صلىٰ داخل الكعبة ركعتين، وأسامة نفاها، فكيف تعامل العلماء مع هذا الاختلاف بين صحابيين دخلا مع النبي ﷺ الكعبة؟

بعض العلماء قال: من قال أن النبي ﷺ صلىٰ؛ أراد بذلك الصلاة بالمعنىٰ اللغوي؛ يعني الدعاء؛ أي: دعا داخل الكعبة، ومن نفىٰ أراد الصلاة بالمعنىٰ الشرعي، الصلاة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم ذات الركوع والسجود، فبهذا تأتلف رواية الصحابيين.

وهناك توجيه آخر للعلماء، قالوا: من قال: صلىٰ داخل الكعبة أراد بها النافلة، ومن نفىٰ أراد بها الفريضة.

ومن هنا استدلَّ العلماء بجواز الصلاة بين السواري في النافلة، أما الفريضة ففيها نهي عن ذلك.

ومن العلماء من قال: إن بلالًا كان أقرب الصَّحابة إلىٰ النبي ﷺ عندما صلىٰ الركعتين، وأسامة كان في الطرف الآخر من داخل الكعبة فلم يرَ النبي ﷺ، وقد صلىٰ ركعتين خفيفتين؛ قالوا: وهذا يرجّح أن المراد بالصلاةِ الصلاةُ الشرعية لأنّ ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا لما خرج بلال سأله: كم صلىٰ النبي ﷺ؟ يعني: هي صلاة ذات عدد، وركوع وسجود، فلا يُراد بالصلاة في هذا الحديث المعنىٰ اللغوي.

وقال بعض شراح الحديث كأبي العباس القرطبي: لعل أسامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في هذا الوقت خرج ليأتي بدلو ماء؛ لأنَّ النبي ﷺ رأىٰ إبراهيم وإسماعيل مصوَّرين في جدران الكعبة يستقسمان بالأزلام، فقال: «**كذبوا، والله ما استقسما بالأزلام**»،

قال: فلعله في الوقت الذي خرج فيه ليأتي بالماء صلَّىٰ النبي ﷺ ركعتين خفيفتين لم يدركه أسامة.

فهذا كله يدل علىٰ أن العلماء يحسنون الجمع بين مختلف الروايات، سواء روايات الحديث الواحد، أو رواية الأحاديث ذات الموضوع الواحد؛ لأنّ بعض من لا يحسن هذا وقع منه بسبب ذلك الإلحاد، يقول الخطابي: «ألحد بعض من لم يحسن الجمع بين الروايات في نوع نسك النبي ﷺ»؛ فإن في بعض الروايات أن النبي ﷺ حج مُفْرِدًا، وفي بعضها أنه حجَّ قارنًا، وفي بعض روايات الصَّحابة عن النبيِّ ﷺ أنه تمتع بالحجِّ؛ فقالوا: كيف حجَّ النبي ﷺ حجَّةً واحدة فقط واختلفت فيها روايات الصحابة في نوع نسكه؟! فبعضهم لجهله ألحد، والنبي ﷺ أفرد الحج في أول أمره، فأحرم بالحج في ميقات ذي الحليفة فقال: لبيك اللهم حجًّا، ثم أتاه جبريل في وادي العقيق، في ذي الحليفة وقال له: «**اجعلها حجة في عمرة**». يعني: أدخل العمرة علىٰ الحجِّ؛ فصار قارنًا وجمع بين نسكي الحج والعمرة.

ومن قال من الصَّحابة: أنَّ النبي ﷺ تمتع بالحج أراد بالتمتع المعنىٰ اللغوي، لأنّ النبي ﷺ جمع بين نسكين في سفر واحد؛ يعني: لم يأتِ بحجٍّ ثم بعمرة في سفر آخر، فقد تمتَّع بنُسكين في حجَّة الوادع، وبهذا تأتلف الروايات من الأحاديث في الموضوع الواحد.

ولابُدَّ لطالب العلم وللعالم أن يُحسن الجمع بين معاني الروايات المختلفة في الحديث الواحد وفي الأحاديث ذات الموضوع الواحد.

وذكر شيخ الإسلام أيضًا: أنَّ بعض الصحابة قد يقع منه الوهم في بعض ما يقوله، والعمدة علىٰ مجموع روايات الصحابة، فالعصمة لمجموع الصحابة، والواحد من الصحابة قد يخطئ، ويقع له الوهم؛ لأنه بشرٌ، وذكر شيخ الإسلام مثالًا من هذا، وهو أن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ذكر أن النبيَّ ﷺ اعتمر في رجب، والصحيح أن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا تراجع عن قوله هذا بعد ذلك؛ لأن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا خطَّأته، وقِبَلَ ما صحَّحَتْهُ له فابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا كان في المسجد النبوي، وكان مجاهدٌ وعروة بن الزبير جالسين عند حجرة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا – لأنَّ حُجُرات النبي ﷺ بجوار المسجد النبوي –، فقال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن النبي ﷺ اعتمر في رجب. فقال عروة بن الزبير لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وقد سمع استنانها – يعني: سمعها تتسوك –: ألا تسمعين إلىٰ ما يقوله عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؟ فقالت رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: يرحم الله أبا عبد الرحمن – يعني: عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا –، ما اعتمر النبي ﷺ إلا في ذي القعدة. فابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وافق عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا في قولها: أن النبي ﷺ اعتمر في ذي القعدة، وفي فقه الصحابي أنَّ القول الذي يُنسب إليه هو الآخِر من أقواله.

واستفاد العلماء من أنَّ كلَّ عُمَرِ النبيِّ ﷺ كانت في ذي القعدة فضيلة العمرة في ذي القعدة، فابن القيِّم استنبط من هذا في «زاد المعاد» أن العمرة في ذي القعدة توازي فضل العمرة في رمضان، وربَّما تكون أفضل منها، والعمرة في رمضان تعدل حجة مع النبي ﷺ.

وفي الصَّحيحين عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال:** اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمر

كُلُّهُنَّ في ذي القعدة، إلَّا التي كانت مع حجَّته. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لأنَّ مبدأ عُمرة القِران، كان في ذي القعدة، ونهايتها كان في ذي الحجَّة مع انقضاء الحج».

ثم تكلّم شيخ الإسلام في خبر الآحاد، وذكر كلام المحدثين والفقهاء وكلام بعض المتكلمين في المستفاد من خبر الآحاد.

فخبر الآحاد الصَّحيح يفيد العلم والعمل والعقيدة، سواء كان الحديث في العقيدة أو في الأحكام؛ لأنّك لابدَّ أن تعتقد في أحكام الله عَزَّوَجَلَّ ما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ من حلٍّ أو حرمة، مع انشراح صدر وإذعان وقبول لأحكام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ونريد أن ننبِّه إلىٰ مسألة مهمَّة في أصول الفقه: أن من أخطر ما يهدم به الإسلام بعض الضلال فيمن لم يؤسِّس فقهه علىٰ أصول فقه صحيحة؛ وهي التي عليها عمل الصحابة والقرون الفاضلة وأئمَّة الإسلام، فلو قلنا ببعض أصول الفقه التي عند هؤلاء الذين ضلُّوا عن أصول فقه الصحابة، من الذين يقولون خبر الآحاد ليس بحجَّة، ودلالة المفهوم ليست بحجة، والعموم ليس بحجة... لتعطَّل بذلك الشرع كله؛ فهذا التأصيل هدمٌ للإسلام، وليس كلهم يقول كل هذه العبارات، لكن بعضهم يرد خبر الآحاد، وبعضهم دلالة المفهوم، وهكذا، فمن أخذ بمجموع هذا الخطأ صار معطِّلًا أو هادمًا للشرع.

ذكر شيخ الإسلام في خبر الآحاد ثلاث مقدمات تُقرِّر ما يعتقده في ذلك، ممَّا هو من دين المسلمين وإجماعهم؛ فقال في أحاديث البخاري ومسلم: «تلقتها

---

(١) زاد المعاد (ص٢٠٥).

الأمة بالقبول»؛ يعني أجمعت الأمة علىٰ صحَّة ما فيها إلا أحرفًا يسيرة، كما قال ابن الصلاح، وهي الأحاديث التي انتقدها المتقدِّمون، وفي بعضها الصواب في جهة البخاري ومسلم.

قال شيخ الإسلام: «جُمْهُور مَا فِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ مِمَّا يُقْطَعُ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَهُ»، ومعلوم أنَّ أكثر أحاديث الصحيحين آحاد.

ثم قال شيخ الإسلام: «وَإِذَا كَانَ الْإِجْمَاعُ عَلَىٰ تَصْدِيقِ الْخَبَرِ مُوجِبًا لِلْقَطْعِ بِهِ»؛ يعني أنَّ خبر الآحاد من رواية الثقات يفيد القطع، وهذا خلاف ما يتوهَّمه مَن انتحل مذهب المتكلِّمين، فقد ذكر شيخ الإسلام أيضًا في «رفع الملام عن الأئمَّة الأعلام» أن الذين لا يقطعون بحجية خبر الآحاد هم المتكلّمون.

وهناك صفات في الراوي وفي المروي يُقطع معها العلم والاعتقاد والعمل بالحديث، فالبخاري ومسلم انتخبا الرواة، فرواتهم في أعلىٰ درجات الثقة والصواب والصحّة، وقد تروىٰ أحاديث من طريق آلاف، لكن يأتي البخاري ويروي من رواية واحد يساوي قبيلة حفظًا، كما قال يحيىٰ بن معين في زهير بن حرب وهو من كبار حفَّاظ الأحاديث: زهير بن حرب يعدل قبيلة؛ يعني: في الحفظ. وقال يحيىٰ بن سعيد القطان: سفيان الثوري أحب إلي من أربعة آلاف مثل أبي الأحوص وغيره. فصفة الراوي والمروي يُقطع معها بالعلم والاعتقاد والعمل بالحديث وإن كان آحادًا، فالذي يعرف معاني الشريعة وألفاظها لا يرتاب في ضعف بعض الأحاديث من جهة المتون، بل تعديل الرواة فرع عن روايتهم للأحاديث، فإذا رووا ما يخالف معاني الشريعة استدلَّ علماء الحديث به علىٰ

خطأ هؤلاء الرواة وضعفهم، ومن روىٰ معاني الشريعة واختبروا حفظه؛ استدلوا بذلك علىٰ أنه من الرواة الثقات.

والأمر الثالث: إجماع الأمة، فالأمة لا تجتمع علىٰ ضلالة، وقد أجمعت الأمة علىٰ تلقي أحاديث الصحيحين بالقبول، وأكثر أحاديث الصحيحين آحاد، بل أكثر الأحاديث عن النبي ﷺ آحاد، فالأحاديث المتواترة محدودة؛ ولذلك قال ابن حبان: القول بعدم حجية خبر الآحاد يفضي إلىٰ إبطال أكثر أحاديث الشريعة.

والمقصود بإجماع الأمّة علىٰ تلقي أحاديث الصحيحين بالقبول؛ أي إجماع علماء الحديث، فهم المعتبرون في هذا؛ كما قال شيخ الإسلام، ومن هنا قال ابن دقيق العيد في «الاقتراح»: «تصحيح البخاري ومسلم هو تصحيح وزيادة، والزيادة هي إجماع الأمَّة علىٰ تلقي أحاديث الصحيحين بالقبول».

ثم ذكر شيخ الإسلام بعض الرواة الذين يُعتبر بأحاديثهم كنموذج، بحيث أن يعرف الإنسان رتبة الرواة الذين يُعتبر بأحاديثهم؛ كعبد الله بن لَهِيعة، يقول عنه شيخ الإسلام: «قَاضِي مِصْرَ»، وهو من كبار علماء مصر، وكذلك الليث بن سعد من كبار علماء مصر، لكنه أتقن حفظًا وأفقه من ابن لهيعة، حتىٰ قال الشافعي: «الليث بن سعد أفقه من مالك».

وعلماء أهل السنة كالإمام أحمد وسفيان الثَّوري رحمهما الله مدحا ابن لهيعة؛ لأنَّه تلقَّىٰ علومه عن التَّابعين.

قال رَوح بن صلاح: لقيَ ابن لهيعة اثنين وسبعين تابعيًّا[١].

وقال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لقي جماعةً من أصحاب أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وعقبة بن عامر».

ولا ريب أنَّ ابن لهيعة عالم، لكنَّ حفظه ليس في جودة الحفَّاظ الثِّقات، قال الحافظ الذَّهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ ابن لهيعة كان عالِمَ الدِّيار المصريَّة، هو واللَّيث معًا، كما كان الإمام مالك في ذلك العصر عالمَ المدينة، والأوزاعي عالم الشَّام، ومعمر عالم اليمن، وشعبة والثَّوري عالما العراق، وإبراهيم بن طهمان عالم خراسان، ولكنَّ ابن لهيعة تهاون بالإتقان، وروىٰ مناكير، فانحطَّ عن رُتبة الاحتجاج به عندهم».

وعبد الله بن لهيعة من كبار علماء مصر وكان قاضيًا، وبعض العلماء يقول: ما رواه ابن لهيعة قبل احتراق كتبه فهو صحيح؛ لأنه يروي من كتبه، وما رواه بعد احتراق كتبه فروايته ضعيفة؛ لأن حفظه ليس بالقويِّ. وممَّن روىٰ عنه قبل احتراق كتبه العبادلة الثلاثة: عبد الله بن المبارك، وعبد الله بن وهب، وعبد الله بن يزيد المُقْرِي، لكن الصحيح الذي ذكره الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «ميزان الاعتدال»: أنَّ رواية العبادلة عن ابن لهيعة صحيحة؛ لأنهم قابلوا أحاديثه التي يحدِّث بها علىٰ أصول مروياته. ورواية العبادلة عنه يصحِّحها بعض العلماء

(١، ٢) سير أعلام النُّبلاء (٨/ ١٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ١٤).

لذاتها، وبعضهم يعتبر بها، لكن في رواية الآثار –عمن دون النبي ﷺ – فهذا شأنه يختلف عن رواية الأحاديث عن النبي ﷺ، فرواية العبادلة عنه صحيحة، والرواية عن الصحابي والتابعي لا يشترط لها أن تكون في أعلىٰ درجات الحفظ، كزهير بن حرب وحماد بن زيد وسفيان الثوري، والزهري وغيرهم، وهذا نبَّه عليه الخطيب البغدادي في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع».

ثم ذكر شيخ الإسلام أنَّ العلماء لا يستريبون في صحَّة رواية الثقات الكبار قال: «مثل أَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ» ذكوان المدني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، «وَالْأَعْرَجِ» وهو عبد الرحمن بن هرمز، «وَسُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ»، هؤلاء الأربعة حُفَّاظ وفقهاء أيضًا؛ فلو عُورِضت روايتهم فإن روايتهم أرجح، لأنهم حفَّاظ وفقهاء، فلا يُغيّرون معاني الألفاظ، وأيضًا هناك كبار العلماء من طبقة التابعين مثل سعيد بن المسيب وهو سيد التابعين فقهًا وعلمًا ونسكًا، قال مالك: كان عمر بن عبد العزيز لا يقضي بقضاء حتىٰ يسأل سعيد بن المسيب[1]، ومحمد بن سيرين، وعبيدة السلماني، وعلقمة، والأسود، والقاسم بن محمد؛ فهؤلاء فقهاء أيضًا، ولا يستريب أحدٌ في صحَّة مروياتهم وحفظهم للأحاديث.

ثم ذكر شيخ الإسلام أيضًا من الحفَّاظ الكبار: الشعبي والزهري وعروة وقتادة والثوري وأمثالهم، ثم قال: «لا سيما الزهري في زمانه»؛ فالزهري كان إمامًا حفظًا وعلمًا، وكان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ – وهو من الولاة العلماء،

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٢٨).

وقد أدركه وأدرك غيره من العلماء - يقول: «عليكم بالزهري؛ فما بقي أحد أعلم بسنَّة النبيِّ ﷺ منه». وقال الحافظ ابن حجر في ترجمته في «تقريب التهذيب»: «الإمام المتَّفق على جلالته وإتقانه».

وقول شيخ الإسلام: «قَدْ يَقُولُ الْقَائِلُ: إِنَّ ابْنَ شِهَابٍ الزُّهْرِيّ لَا يُعْرَفُ لَهُ غَلَطٌ مَعَ كَثْرَةِ حَدِيثِهِ وَسِعَةِ حِفْظِهِ»؛ أقول: بل يعرف له غلط، وهذا من لوازم بشريته، وكل علماء الحديث الثقات - في الغالب - يقع منهم الخطأ في رواية الأحاديث، لكن أغلب مروياتهم صحيحة، فيقع منهم الخطأ في بعض الأحاديث القليلة إذا ما قورنت بنسبة ما رووه، وقد ذكر العلماء أنَّ الزهري أخطأ في حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أن النبي ﷺ كان يلبس خاتمًا من فضَّة، فنزعه وألقاه»، فالثقات رروه خلاف رواية الزهري، فرووا «أن النبي ﷺ ألقىٰ خاتمًا من ذهب»؛ فهو الذي لا يجوز لبسه للرجال، والزهري روىٰ عن أنس برواية «فضة»، وخالف فيها ثلاثة من الحفَّاظ: عبد العزيز بن صهيب، وقتادة، وثابت البناني؛ كلهم رووا أن النبي ﷺ ألقىٰ خاتمًا من ذهب، وبمجموع الروايات يُعرف خطأ الراوي، والزهري هنا لم يخطئ إلا في نوع الخاتم فقط.

ومثل ما يخطئ الرواي الثقة في الأحاديث، أيضًا الراوي الصدوق يخطئ في حديث، ويصيب في حديث، وقد يروي حديثًا فيجوِّده، ويكون أصحَّ رواية له ممن هو أحفظ منه؛ لأنه قد تنصرف عنايته لحديث أو عدة أحاديث أكثر من الراوي الثقة الذي يعتني برواية أحاديث كثيرة جدًّا، ومن هنا يظهر حذق علماء الحديث في التمييز بين ما أخطأ فيه الراوي الثقة، وبين ما صحَّ من رواية الصدوق.

علىٰ كل حال: قواعد تمييز المرويات، وتفصيل ذلك في كتب علل الحديث.

أما قول عثمان لعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «كنا يومئذ خائفين»؛ يعني في حجَّة الوادع، فالصواب ما قاله عليٌّ وعامَّة الصحابة؛ أن النبي ﷺ والصحابة لم يكونوا خائفين في حجة الوادع، يعني لا يخافون عدوًّا أو يخشون قتالًا. لكن عبارة عثمان ربَّما فسَّرها بعض العلماء أنهم كانوا خائفين من فسخ الحج إلىٰ تمتع؛ لأن النبي ﷺ أمر من أهلَّ بحجٍّ أن يجعلها عمرةً، فكيف أنشئوا نسكًا وابتدؤوا به وأحرموا به، ثم يُفسخ؟ فالمعنىٰ: يخافون من فسخه؛ لأنهم أنشئوا العبادة وشرعوا فيها.

ثم ذكر شيخ الإسلام ما يكون في رواية الكذابين والوضاعين لبعض الأحاديث في الفضائل؛ مثل حديث يوم عاشوراء، فالفضائل لابدَّ أن تكون من رواية الثقات، ويوم عاشوراء صيامه يكفر السنَّة الماضية، وهو يوم نصومه شكرًا لله عَزَّوَجَلَّ لأنه عَزَّوَجَلَّ نجىٰ فيه موسىٰ من فرعون وقومه، هذا سبب استحباب صيامه، وجرت مقادير الله أن الحسين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قُتل في يوم عاشوراء، فلا نفرح بظلم الحسين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فهو حفيد النبيِّ ﷺ، وصحابي فنترضَّىٰ عليه، وقد قُتل مظلومًا، والصحابة كانوا من أحرص الناس علىٰ حفظه، حتىٰ وعظه ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وأبو سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وجابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ قالوا: «لا تذهب إلىٰ العراق؛ فإنهم قوم غُدُرٌ، وقد سمعنا أباك يقول فيهم: والله لقد مللتهم وملوني، لا وفاء لهم بعهد ولا صبر لهم علىٰ سيف»، حتىٰ إذا رأوه مصرًّا علىٰ الذهاب إلىٰ العراق قالوا له: إذا أردت أن تذهب فلا تذهب بأهلك، فتُقتل أمام أهلك كما قُتل عثمان أمام أهله. فلما رأوا إصراره علىٰ الذهاب قام له ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا واعتنقه

وسلَّم عليه وقال: «أستودعك الله من قتيل». فكان أحرص الناس علىٰ حفظ الحسين هم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وعبيد الله بن زياد قاتل الحسين كان يستطيل علىٰ الصحابة، كما جاء في «صحيح مسلم»: أن بعض الصحابة كان يزجره عن العسف والظلم الذي كان فيه، فكان يقول لهم: أنتم نخالة الصحابة، فقالوا له: «ليس في الصحابة نخالة». فكان في عبيد الله بن زياد جور وظلم وعدوان علىٰ الصحابة فضلًا عن ظلم آل البيت.

أما اعتقاد أهل السنَّة في الحسين فهو الذي أفصح عنه عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عندما سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض في الحرم فقال له: «عجبًا لكم يا أهل العراق! تقتلون الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتسألون عن دم البعوض» رواه البخاري، هذه عقيدة أهل السنَّة والجماعة في الحسين؛ فهم يتولون آل البيت والصحابة، وليسوا كالرافضة يكفِّرون الصحابة ويتولون آل البيت، ومن اعتقادهم الباطل أنّهم يعتقدون في آل البيت العصمة، والعصمة ليست لأحد إلا للنبيِّ ﷺ فيما يُبلِّغه عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ومن غلوِّ الرافضة أن بعضهم يقول عن عليّ أنّه يُحيي ويميت، ولو كان عليٌّ يحيي ويميت لكان دفع الموت عن نفسه، فالحيُّ الذي لا يموت هو الله عَزَّ وَجَلَّ وهو الذي يحيي ويميت، فالله رزق أهل السنة الوسطية في تفسير ما وقع وما جرىٰ من خصومات في الحوادث التي وقعت، وتوريث الأمة ضغائنها هذا من أسباب فرقتها ومن أسباب ميلها في اعتقادها، والواجب أن نقول كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، نتولىٰ الصحابة وآل

البيت - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا -.

لكن لا نطلق العبارة ونقول: يوم عاشوراء يوم فرح؛ لأنه ما دام هناك أناس لا يعرفون الصواب فيما وقع للحسين، لابدَّ أن تذكر الكلام مفصَّلًا؛ لأن الإجمال في مثل هذه الألفاظ يوقع في الضلال.

ثم ذكر شيخ الإسلام «تفسير الثعلبي» وقال: أن الثعلبي فيه دين وخير، لكنه حاطب ليل؛ يروي الصحيح والضعيف والموضوع، فمثل هذا من التفاسير لا ننصح أحدًا بقراءته، فالعالم المتقن لتمييز صحيح الروايات من ضعيفها، وتمييز الأقوال الخاطئة من الأقوال الصحيحة، والبدع من الاعتقاد الصحيح؛ هو الذي يمكنه أن يقرأ هذا التفسير، والله أغناكم عن هذا الكتاب؛ لأن العلامة البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قد قام بتهذيبه، وهو صاحب حديث وصاحب عقيدة سلفية صحيحة، وله «شرح السنة» في ستة عشر مجلدًا، المجلد الأول ذكر فيه اعتقاده السلفي، وهو من أبدع الكُتِب في فقه الأحكام. وتفسيره مختصر لتفسير الثعلبي؛ فجرَّده من الأقوال المبتدعة والأقوال الخاطئة وجرَّده من روايات الكذابين، والموضوعات، والأحاديث الضعيفة، فـ«تفسير البغوي» و«تفسير ابن كثير» و«تفسير الطبري»، هذه من التفاسير النقيَّة التي يعوِّل عليها أهل السنَّة والجماعة، وأيضًا يضاف إلىٰ ذلك من التفاسير النقية لعلمائنا المعاصرين، تفسير «أضواء البيان» للعلامة محمد الأمين الشنقيطي، وتفسير العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وتفسير شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

ثم ذكر شيخ الإسلام الموضوعات والضعيف من المرويات في كتب التفسير للتحذير منها؛ منها الأحاديث الكثيرة الصَّريحة في الجهر بالبسملة، ولم يصح في الجهر بالبسملة في الصلاة عن النبي ﷺ حديث صريح، أمَّا عن الصحابة فصحَّ الكثير عن الصحابة، لكن يقول شيخ الإسلام في القواعد النورانية: «جهر الصحابة بالبسملة في القراءة في الصلاة من باب التعليم»؛ أي تعليم من يتلقىٰ عنهم أنها مما يُقرأ في الصلاة.

ثم ذكر شيخ الإسلام أمثلةً أيضًا مما وقع من الروايات المكذوبة في تفسير بعض الآيات، من ذلك الروايات في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥]، حيث روي أنّ: الذين يؤتون الزكاة وهم راكعون؛ عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقط. وهذه الرواية كذبٌ، ثم إن النبي ﷺ نهىٰ عن الكلام وعن العمل في الصلاة، وهذا لا يفعله عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو من أفقه الصحابة، لأنّ الزكاة فيها بذل وأخذ فلا يكون في الصلاة، فكيف يزكي وهو يصلي، فهذا ليس مما يُمدح به، فلم يكن الصحابة ليفعلوه، ولكنّ الرافضة لا عقل لهم، يروون ما يكون سببًا في الطعن في عليٍّ، وعليٌّ بريء من ذلك، والمراد بالركوع هنا هو المعنىٰ اللغوي وهو الخضوع لله، وليس المعنىٰ الشرعي الذي هو ركوع الصلاة، وهذا ما بيَّنه العلامة عبد الرحمن السعدي في «تفسيره»، وهو من المتقنين للتفريق بين المعاني الشرعية واللغوية.

وممَّا انتقده شيخ الإسلام علىٰ الرافضة تخصيص قوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]؛ في عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والصواب أنها عامة لكل نبي؛ لأن النبي يبعث

هاديًا لقومه، وكذلك ورثة الأنبياء من العلماء، فهذه الآية لا تختصُّ فقط بعليٍّ، فيدخل في عموم لفظها الصحابة، فقد أدوا إلينا الدين، وعليٌّ من جملتهم، وكل من دعا إلىٰ الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، أي: داعٍ يدعوهم إلىٰ الخير».

وكذلك خصَّصوا قوله تعالىٰ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢] في عليٍّ؛ فقالوا: أذنك يا عليّ، وتخصيص هذا في عليٍّ فقط من الكذب؛ لأنَّ الآية جاءت بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الوعيد الذي أصاب قوم عاد وثمود وقوم فرعون، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]، فكل من يتَّعظ بقصص هؤلاء النبيين أذنه واعية، سواء كان النبي ﷺ - وهو الذي أُوحي إليه ذلك -، وكذلك من تدبَّر هذه المعاني من الصَّحابة جميعًا، فالآية ليست خاصَّة فقط بعليٍّ، وذكر تعالىٰ «الأذن» هنا؛ لأنَّ الأذن هي المدخل إلىٰ القلب، والقلب فيه الفقه والتدبُّر، والله أعلم.

قال الشّعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إذا قرأت القرآن فاقرأ قراءةً تُسْمِعُ أذنيك، وتُفَقِّه قلبك؛ فإنَّ الأُذُنَ عَدْلٌ بين اللسان والقلب».

فالمقصود التحذير من إبطال دلالة النصوص علىٰ معانيها بالمغالطة في

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٥٨١).

(٢) شرح السُّنَّة (٣/ ٨٧).

تخصيصها، والواجب علىٰ العلماء إعمال النصوص في معانيها حيث كانت عامة، وإعمالها في واقع المسلمين بعلم دون تعالم.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «تدبُّر الألفاظ العامَّة والخاصَّة، والتأمُّل في سياق الكلام، والاهتمام بمعرفة مراد الله بكلامه، وتنزيله علىٰ الأمور كلِّها؛ هو الأمر الأهمُّ، وهو المقصود، وهو الذي تعبَّد الله العباد به، وهو الذي يحصل به العلم والإيمان».

والرافضة من جهلهم وغلوِّهم في أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضلالهم في وضع آيات القرآن في غير مواضعها؛ عمدوا إلىٰ ما هو شرٌّ من تخصيص نصوص فضائل المخلوقين في عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، إلىٰ جعل نصوص خصائص الله وحده إلىٰ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، تعالىٰ الله عمَّا يشركون.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣٥]، فهذه الآية جعلها ابن مطهر الحلي الرافضي في عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الذي يهدي إلىٰ الحقِّ مطلقًا هو الله تعالىٰ، والذي لا يهدي صفة كلِّ مخلوق، وهذا المقصود بالآية؛ فإنَّه افتتح الآيات بقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١]».

---

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص٦٩).

(٢) تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٤٨٢).

فالمقصود أنَّ غلوَّ الرافضة في أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في فضائله عمومًا، وفي استحقاقه الخلافة خصوصًا؛ جعلهم يحرِّفون الكلم عن مواضعه، ويكذبون ويقولون ما لا يعقل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «الرافضي... لا عقل ولا قرآن.

وكذلك كون عليٍّ أميرًا علىٰ ذرية آدم كلهم، وإنَّما وُلد بعد موت آدم بألوف من السنين، وأن يكون أميرًا علىٰ الأنبياء الذين هم متقدِّمون عليه في الزَّمان والمرتبة، وهذا من جنس قول ابن عربي الطَّائي وأمثاله من ملاحدة المتصوِّفة الذين يقولون: إنَّ الأنبياء كانوا يستفيدون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء، الذي وُجد بعد محمد بنحو ستِّمائة سنة؛ فدعوىٰ هؤلاء في الإمامة من جنس دعوىٰ هؤلاء في الولاية، وكلاهما يبني أمره علىٰ الكذب والغلوِّ والشِّرك والدّعاوىٰ الباطلة، ومناقضة الكتاب والسُّنَّة وإجماع سلف الأمَّة».

هذه جناية الرافضة علىٰ تفسير القرآن الذي أجمع المسلمون عليه، كما كان عليه إجماع الصَّحابة وآل البيت في عهد النبيِّ ﷺ وبعده.

وقد أفكت الرافضة وزعمت كذبًا علىٰ آل البيت اختصاصهم بمصحف خلاف مصحف المسلمين، يسمونه «مصحف فاطمة».

وقد كان سادات آل البيت ينفون اختصاصهم بالوحي دون النَّاس؛ فعن أبي الطّفيل عامر بن واثلة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كنتُ عند عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فأتاه

(١) تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٢٢٦).

رجل فقال: ما كان النبيُّ ﷺ يُسِرُّ إليك؟ قال: فغضب، وقال: ما كان النبيُّ يُسِرُّ إليَّ شيئًا يكتمه النَّاس، غير أنَّه قد حدثني بكلمات أربع. فقال: ما هنَّ يا أمير المؤمنين؟

قال: «لعن الله من لعن والديه، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوىٰ مُحْدثًا، ولعن الله من غيَّر منار الأرض»، رواه مسلم(١).

قال العلَّامة أبو العبَّاس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): « قول عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للسائل: «ما كانَ رسولُ الله ﷺ يُسِرُّ إليَّ شيئًا يكتمُه النَّاسَ»، وفي لفظ آخر: «ما خصَّنا رسول الله ﷺ بشيءٍ لم يَعُمَّ به النَّاسَ»، ردٌّ وتكذيب للفِرَقِ الغالية فيه - وهم: الشِّيعةُ، والإماميَّةُ، والرافضةُ - الزاعمين أنَّ النبيَّ ﷺ وصَّىٰ لعليٍّ، وولَّاه بالنَّصِّ، وأسرَّ إليه دونَ الناس كلِّهم بعلومٍ عظيمةٍ، وأمورٍ كثيرةٍ. وهذه كلُّها منهم أكاذيبُ، وتُرَّهات، وتمويهات، يشهد بفسادها نصوصُ متبوعهم، وما تقتضيه العاداتُ من انتشار ما تدعو إليه الحاجةُ العامَّةُ.

وغضبُ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ ذلك دليلٌ علىٰ أنَّه لا يرتضي شيئًا مما قيل هنالك».

وقال أبو جحيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **لعليٍّ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلَّا كتاب الله، أو فَهْمٌ أُعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصَّحيفة. قلت: وما في هذه

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأضاحي، باب من ذبح لغير الله (ص٨٨٣ – رقم ٥١٢٤).
(٢) المفهم (٥/ ٢٤٤).

الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يُقتل مسلم بكافر[(١)].

قال الحافظ ابن الملقن رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فيه إبطال ما يخترعه الرافضة والشيعة من قولهم: إنَّ عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أوصىٰ إليه النبيُّ ﷺ بأسرار العلم، وقواعده، وعلم الغيب ما لم يطلع عليه غيره، وإنَّه ﷺ خصَّ أهل البيت بما لم يطّلع عليه غيرهم، وهي دعاوىٰ باطلة واختراعات فاسدة لا أصل لها».

وعليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وافق إجماع الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ المصحف العثماني، ولم يخالف في حرفٍ منه بزيادة ولا نقصان، حيث قال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «لا تقولوا في عثمان إلَّا خيرًا، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلَّا عن ملأ منَّا».

وعندما ولي الخلافة أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، سار بسيرة الخلفاء من قبله، ولم يُغيِّر شيئًا ممَّا كانوا عليه، ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ دينهم واحد ومصحفهم واحد.

قال العلامة أبو محمد ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «ومما يُبيِّن كذب الروافض في ذلك أن عليَّ بن أبي طالب - الذي هو عند أكثرهم إله خالق، وعند بعضهم نبيٌّ

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم (ص٢٤ - رقم ١١١)، ومسلم.

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصَّحيح (٣/ ٥٦١).

(٣) رواه ابن أبي داود في «المصاحف» (١/ ٢٠٦)، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ «إسناد صحيح»، فتح الباري (٩/ ١٨).

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٢١٦، ٢١٧).

ناطق، وعند سائرهم إمام معصوم مفروضة طاعته - ولي الأمر وملك؛ فبقي خمسة أعوام وتسعة أشهر خليفة مطاعًا ظاهر الأمر، ساكنًا بالكوفة، مالكًا للدنيا، حاشا الشام ومصر، والقرآن يقرأ في المساجد وفي كل مكان، وهو يؤم الناس به، والمصاحف معه وبين يديه، فلو رأىٰ فيه تبديلًا كما تقول الرافضة، أكان يقرهم علىٰ ذلك؟!».



قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

[فَصْلٌ: وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ مُسْتَنَدَي الِاخْتِلَافِ، وَهُوَ مَا يُعْلَمُ بِالِاسْتِدْلَالِ لَا بِالنَّقْلِ، فَهَذَا أَكْثَرُ مَا فِيهِ الْخَطَأُ مِنْ جِهَتَيْنِ حَدَثَتَا بَعْدَ تَفْسِيرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ؛ فَإِنَّ التَّفَاسِيرَ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَلَامُ هَؤُلَاءِ صِرْفًا لَا يَكَادُ يُوجَدُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ، مِثْلَ تَفْسِيرِ: عَبْدِ الرَّزَّاقِ، وَوَكِيعٍ، وَعَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ؛ دُحَيْمٍ، وَمِثْلَ تَفْسِيرِ: الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهُويَهْ، وَبَقِيِّ بْنِ مَخْلَدٍ، وَأَبِي بَكْرِ بْنِ الْمُنْذِرِ، وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، وَسُنَيْدٍ، وَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ الْأَشَجِّ، وَأَبِي عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَاجَهْ، وَابْنِ مَرْدُويَهْ:

إِحْدَاهُمَا: قَوْمٌ اعْتَقَدُوا مَعَانِي، ثُمَّ أَرَادُوا حَمْلَ أَلْفَاظَ الْقُرْآنِ عَلَيْهَا.

وَالثَّانِيَةُ: قَوْمٌ فَسَّرُوا الْقُرْآنَ بِمُجَرَّدِ مَا يَسُوغُ أَنْ يُرِيدَهُ بِكَلَامِهِ مَنْ كَانَ مِنَ النَّاطِقِينَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَىٰ الْمُتَكَلِّمِ بِالْقُرْآنِ وَالْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ وَالْمُخَاطَبِ بِهِ.

فَالْأَوَّلُونَ رَاعَوُا الْمَعْنَىٰ الَّذِي رَأَوْهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَىٰ مَا تَسْتَحِقُّهُ أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ مِنَ الدَّلَالَةِ وَالْبَيَانِ.

وَالْآخَرُونَ رَاعَوْا مُجَرَّدَ اللَّفْظِ، وَمَا يَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْعَرَبِيُّ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَىٰ مَا يَصْلُحُ لِلْمُتَكَلِّمِ بِهِ وَلِسِيَاقِ الْكَلَامِ.

ثُمَّ هَؤُلَاءِ كَثِيرًا مَا يَغْلَطُونَ فِي احْتِمَالِ اللَّفْظِ لِذَلِكَ الْمَعْنَىٰ فِي اللُّغَةِ، كَمَا

يَغْلِطُ فِي ذَلِكَ الَّذِينَ قَبْلَهُمْ، كَمَا أَنَّ الْأَوَّلِينَ كَثِيرًا مَا يَغْلِطُونَ فِي صِحَّةِ الْمَعْنَىٰ الَّذِي فَسَّرُوا بِهِ الْقُرْآنَ كَمَا يَغْلِطُ فِي ذَلِكَ الْآخَرُونَ، وَإِنْ كَانَ نَظَرُ الْأَوَّلِينَ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ أَسْبَقَ، وَنَظَرُ الْآخِرِينَ إِلَىٰ اللَّفْظِ أَسْبَقَ.

وَالْأَوَّلُونَ صِنْفَانِ: تَارَةً يَسْلُبُونَ لَفْظَ الْقُرْآنِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ وَأُرِيدَ بِهِ.

وَتَارَةً يَحْمِلُونَهُ عَلَىٰ مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ وَلَمْ يُرَدْ بِهِ.

وَفِي كِلَا الْأَمْرَيْنِ قَدْ يَكُونُ مَا قَصَدُوا نَفْيَهُ، أَوْ إِثْبَاتَهُ مِنَ الْمَعْنَىٰ بَاطِلًا؛ فَيَكُونُ خَطَؤُهُمْ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ.

وَقَدْ يَكُونُ حَقًّا، فَيَكُونُ خَطَؤُهُمْ فِي الدَّلِيلِ لَا فِي الْمَدْلُولِ.

وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ وَقَعَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ وَقَعَ أَيْضًا فِي تَفْسِيرِ الْحَدِيثِ.

فَالَّذِينَ أَخْطَئُوا فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ - مِثْلُ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ - اعْتَقَدُوا مَذْهَبًا يُخَالِفُ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْوَسَطُ الَّذِينَ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ ضَلَالَةٍ، كَسَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا، وَعَمَدُوا إِلَىٰ الْقُرْآنِ فَتَأَوَّلُوهُ عَلَىٰ آرَائِهِمْ؛ تَارَةً يَسْتَدِلُّونَ بِآيَاتٍ عَلَىٰ مَذْهَبِهِمْ، وَلَا دَلَالَةَ فِيهَا.

وَتَارَةً يَتَأَوَّلُونَ مَا يُخَالِفُ مَذْهَبَهُمْ بِمَا يُحَرِّفُونَ بِهِ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ فِرَقُ الْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَالْمُرْجِئَةِ وَغَيْرِهِمْ.

وَهَذَا كَالْمُعْتَزِلَةِ مَثَلًا؛ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ كَلَامًا وَجِدَالًا، وَقَدْ صَنَّفُوا

تَفَاسِيرَ عَلَىٰ أُصُولِ مَذْهَبِهِمْ؛ مِثْلَ تَفْسِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَيْسَانَ الْأَصَمِّ شَيْخِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ ابْنِ عُلَيَّةَ، الَّذِي كَانَ يُنَاظِرُ الشَّافِعِيَّ.

وَمِثْلَ كِتَابِ أَبِي عَلِيٍّ الْجُبَّائِيِّ، وَ«التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ» لِلْقَاضِي عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ أَحْمَدَ الْهَمْدَانِيِّ، وَ[«الْجَامِعِ لِعِلْمِ الْقُرْآنِ»] لِعَلِيِّ بْنِ عِيسَىٰ الرُّمَّانِيِّ.

وَ«الْكَشَّافِ» لِأَبِي الْقَاسِمِ الزَّمَخْشَرِيِّ؛ فَهَؤُلَاءِ وَأَمْثَالُهُمُ اعْتَقَدُوا مَذَاهِبَ الْمُعْتَزِلَةِ.

وَأُصُولُ الْمُعْتَزِلَةِ خَمْسَةٌ، يُسَمُّونَهَا هُمْ: الْتَّوْحِيدَ، وَالْعَدْلَ، وَالْمَنْزِلَةَ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَإِنْفَاذَ الْوَعِيدِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَتَوْحِيدُهُمْ هُوَ تَوْحِيدُ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِي مَضْمُونُهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ وَغَيْرُ ذَلِكَ؛ قَالُوا: إِنَّ اللهَ لَا يُرَىٰ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ، وَإِنَّهُ لَا يَقُومُ بِهِ عِلْمٌ، وَلَا قُدْرَةٌ، وَلَا حَيَاةٌ، وَلَا سَمْعٌ، وَلَا بَصَرٌ، وَلَا كَلَامٌ، وَلَا مَشِيئَةٌ، وَلَا صِفَةٌ مِنَ الصِّفَاتِ.

وَأَمَّا عَدْلُهُمْ فَمِنْ مَضْمُونِهِ أَنَّ اللهَ لَمْ يَشَأْ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ، وَلَا خَلَقَهَا كُلَّهَا، وَلَا هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا؛ بَلْ عِنْدَهُمْ أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ لَمْ يَخْلُقْهَا اللهُ، لَا خَيْرَهَا، وَلَا شَرَّهَا، وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا مَا أَمَرَ بِهِ شَرْعًا، وَمَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكُونُ بِغَيْرِ مَشِيئَتِهِ.

وَقَدْ وَافَقَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ مُتَأَخِّرُو الشِّيعَةِ؛ كَالْمُفِيدِ، وَأَبِي جَعْفَرٍ الطُّوسِيِّ، وَأَمْثَالِهِمَا، وَلِأَبِي جَعْفَرٍ هَذَا تَفْسِيرٌ عَلَىٰ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، لَكِنْ يَضُمُّ إِلَىٰ ذَلِكَ قَوْلَ الْإِمَامِيَّةِ الِاثْنَيْ عَشَرِيَّةِ؛ فَإِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ بِذَلِكَ، وَلَا مَنْ يُنْكِرُ

خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ.

وَمِنْ أُصُولِ الْمُعْتَزِلَةِ مَعَ الْخَوَارِجِ إِنْفَاذُ الْوَعِيدِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ شَفَاعَةً، وَلَا يُخْرِجُ مِنْهُمْ أَحَدًا مِنَ النَّارِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ طَوَائِفُ مِنَ الْمُرْجِئَةِ، وَالْكَرَّامِيَّةِ، وَالْكُلَّابِيَّةِ، وَأَتْبَاعِهِمْ، فَأَحْسَنُوا تَارَةً وَأَسَاءُوا أُخْرَىٰ، حَتَّىٰ صَارُوا فِي طَرَفَيْ نَقِيضٍ، كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ اعْتَقَدُوا رَأْيًا، ثُمَّ حَمَلُوا أَلْفَاظَ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ لَهُمْ سَلَفٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ؛ لَا فِي رَأْيِهِمْ، وَلَا فِي تَفْسِيرِهِمْ.

وَمَا مِنْ تَفْسِيرٍ مِنْ تَفَاسِيرِهِمُ الْبَاطِلَةِ إِلَّا وَبُطْلَانُهُ يَظْهَرُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، وَذَلِكَ مِنْ جِهَتَيْنِ:

تَارَةً مِنَ الْعِلْمِ بِفَسَادِ قَوْلِهِمْ.

وَتَارَةً مِنَ الْعِلْمِ بِفَسَادِ مَا فَسَّرُوا بِهِ الْقُرْآنَ؛ إِمَّا دَلِيلًا عَلَىٰ قَوْلِهِمْ، أَوْ جَوَابًا عَلَىٰ الْمُعَارِضِ لَهُمْ].

الشَّرح:

هذا الفصل من أهمِّ الفصول في مصنَّف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ «مقدمة في أصول التفسير»؛ فإنه ذكر أنَّ كتب التفسير نوعان؛ كتب أثريَّة مسندة،

وكتب في معاني القرآن، وذكر أنَّ كتب التفسير المسندة المحضة لا يوجد فيها شيءٌ ممَّا انتقده العلماء من جهة المعنىٰ علىٰ كتب تفسير معاني القرآن؛ الذي يسمِّيه بعض العلماء «التفسير بالدراية»، ويسمُّون كتب التفسير المصنفة في رواية ما نقل عن الصحابة والتابعين بالأسانيد بـ«التفسير بالمأثور» أو «التفسير بالرواية»، فالخطأ وقع بعد طبقة الصحابة والتابعين من جهة التفسير - كما قال شيخ الإسلام -؛ يعني بعد القرون الفاضلة؛ لأنَّ الصحابة تلقوا معاني القرآن من النبي ﷺ، وأدَّوا معاني القرآن إلىٰ التابعين، ومن أراد الحقَّ فإنَّه يأخذه من معدنه الأول، فإنهم خير الناس، كما قال النبيُّ ﷺ: «**خير الناس قرني، ثمَّ الذين يلونهم**»، متفق عليه من حديث عمران بن حصين وابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

والأمر الثالث: أنَّهم لو وقع منهم سوء فهم لبعض آياته أو توهُّم معانٍ غير مقصودة من ألفاظ القرآن؛ رجعوا إلىٰ النبيِّ ﷺ وصوَّب لهم ما توهَّموه من الخطأ في فهمهم لمعاني القرآن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾**﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ فقد قال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للنبيِّ ﷺ: وأيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «**إن الظلم هو الشرك كما قال لقمان الحكيم:** ﴿**إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان: ١٣]».

فنبَّه شيخ الإسلام إلىٰ أن كتب التفسير المسندة لا يوجد فيها الخطأ في معاني القرآن الموجود من بعد القرون الفاضلة ممَّن تكلَّم في معاني القرآن برأيه وأخطأ فيه.

ثم بيّن جهة الخطأ التي دخلت على من فسَّر القرآن بالمعاني الباطلة:

الصنف الأول: قوم عقائدهم مبتدعة، ولهم آراء مخترعة وأهواء مضلَّة، فجعلوا اعتقادهم الباطل هو الأساس في الحكم علىٰ معاني القرآن؛ يعني اعتقدوا ثم استدَلُّوا، ومعلومٌ أن الباطل لا يمكن أن يقوم عليه دليل صحيح؛ ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ في «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح»: «الباطل لا يمكن أن يقوم عليه دليل صحيح من القرآن والسنَّة»، فهؤلاء الذين اعتقدوا ثم استدلوا حرَّفوا معاني القرآن، لم يحرِّفوا ألفاظه؛ لأنهم لو حرَّفوا ألفاظه لردَّ الناس عليهم وكذَّبوهم، لكن حرَّفوا معانيه، وهذا الذي حرَّفوه من معانيه قد رَدَّ عليهم فيه من اصطفاهم الله عَزَّوَجَلَّ لحفظ شريعته، فكما أن الله عَزَّوَجَلَّ تكفَّل بحفظ ألفاظ القرآن فإنّ الله قد تكفل بحفظ معانيه أيضًا، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩]، وهذا الحفظ حفظٌ لألفاظه وحفظ لمعانيه. وهؤلاء الذين اصطفاهم الله عَزَّوَجَلَّ لنصرة دينه وحفظ شريعته من التحريف؛ هم الطائفة المنصورة والفرقة الناجية أهل السنَّة والجماعة وعلماؤهم، قد اصطفاهم الله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ طبقة، فلا تخلو منهم طبقة إلىٰ قيام الساعة؛ قال النبيُّ ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحقِّ حتىٰ تقوم الساعة**»، وقال النبي ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين**»، فكل من اعتقد ثم استدل من أهل البدع فحرّف نصوص القرآن والسنة؛ قد تكفل الله بإقامة علماء أهل السنة الذين يردون عليه بدعه وضلاله وتحريفاته للنُّصوص.

وأول من ابتدع هذا المنهج - أي: اعتقد ثم استدل - هم الخوارج، وهم أول من أظهر هذا المنهج الباطل في الاعتقاد ثم الاستدلال، ثم تبعتهم المعتزلة وهم أكثر الفرق المبتدعة غلوًّا في ذلك؛ لأنهم جعلوا دينهم كلَّه مرده إلىٰ المعقول، وعقولهم فاسدة، فصاروا يحرفون الكلم عن مواضعه، وتبعهم في ذلك كل الفرق المبتدعة كالمرجئة والأشاعرة وغيرهم؛ وقد حذَّر الفاروق عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من هذا الأمر فقال: «**ضعوا القرآن مواضعه، ولا تتبعوا فيه أهواءكم**»، وقال عبد الله بن الفاروق عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في وصف الخوارج - لأن هؤلاء أول من انتحل هذا المنهج وسلكه وركب مركبه -: «**عمدوا إلىٰ نصوص في الكافرين فجعلوها في المسلمين**»، رواه مسلم.

وهذا مركب ركبه كل مبطل، ولا يزال هذا المركب يركبه مبتدعة الأحزاب والفرق إلىٰ اليوم، فأحزاب الإسلام السياسي جاءوا إلىٰ نصوص الإمارة في السفر وجعلوها في الإمارة في الحضر في الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ويسمُّونها الإمارة الدعوية، وهي عند الإخوان المسلمين إمارة حقيقية وخلافة، وعلىٰ هذا كان حسن البنا يأخذ البيعة، وعندهم في اعتقادهم وفي كتبهم وتنظيمهم - كما في كتابهم «الطريق إلىٰ جماعة الإخوان المسلمين» - أنه لا توجد جماعة إلَّا حزبهم، وجاء التراثيون وبُلِينا بدعوتهم للسلفية، فإذا أخطر ما يقومون به هو أخونة الدعوة السلفية، ومن ذلك أخذ العهد بالسمع والطاعة علىٰ اتباعهم لأنفسهم، فزادوا شرًّا علىٰ شر الإخوان المسلمين، وصاروا يستدلون بالعهد الذي أخذه الخضر علىٰ موسىٰ - عليهما السلام - في اتباعه، فالخضر وموسىٰ -

عليهما السلام - لم يفعلا ذلك إلَّا عن أمر الله، قال الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ [الكهف: ٨٢]، يعني هو عن توقيف من الله عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ هذا في شريعة من قبلنا، والخضر كان عنده بعض العلم ممَّا ليس هو عند موسىٰ الذي هو من أُولي العزم من الرسل، وليس في التراثيين أحد بهذه الصفة، لا عبد الرحمن عبد الخالق ولا غيره، فليس عنده علم لا يعرفه أولو العزم من الرسل، ثم في شريعتنا لا يجوز أخذ البيعة والعهد لأحد، ونحن في جماعة نسمع ونطيع بالمعروف لولي أمرنا، وقد سألت بنفسي شيخنا العلَّامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عمَّن يستدلُّ من الحزبيين علىٰ أخذ البيعة بالعهد الذي أخذه الخضر علىٰ موسىٰ؛ فقال: هذا جاهل.

والاستدلال بإمارة السفر علىٰ إمارة الحضر هذا وضع للنصوص في غير مواضعها؛ فهذا خاصٌّ بشئون السفر فقط، وفيما يتعلق بأمور المسافرين الذين في صحبة واحدة؛ كالصلاة في مكان معيَّن، وفي اختيار جمع التقديم أو التأخير... وهم من حين ينشئون السفر من البلد الذي يخرجون منه فهم تحت إمارة ولي أمر البلد الذي هم فيه، وإذا وصل المسافر منهم إلىٰ بلد سفره صار في أمارة ولي أمر ذلك البلد، فليس في هذا إمارة إلا في شئون السفر فقط، لا يجوز أن تجعلها إمارة دعوة وسمع وطاعة علىٰ عموم المسلمين، وتقوم بتحزيب الناس علىٰ أساس ذلك، وأخطر من ذلك اعتقاد عدم وجود جماعة للمسلمين إلَّا حزب الإخوان المسلمين.

علىٰ كل حال تحريف معاني النُّصوص الصَّحيحة، أو وضعها في غير مواضعها؛ هو من تحريف الكلم عن مواضعه، وهو من أخلاق اليهود، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ

مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ [آل عمران: ٧٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أما ليُّ الألسنة بما يظنُّ أنَّه من عند الله، فكوضع الوضَّاعين الأحاديثَ علىٰ رسول الله ﷺ، أو إقامة ما يظنُّ أنَّه حجَّة في الدِّين، وليس بحجَّة، وهذا الضرب من أنواع أخلاق اليهود».

والمقصود أنَّ كل مبتدع يضع النصوص في غير مواضعها؛ تضليلًا للخلق، وتلبيسًا للحقِّ، وترويجًا للبدعة، وتقوية لأمرها؛ لأنَّ الناس لا يقبلون البدع المتمحِّضة في الباطل، التي لا يلتبس فيها الحقُّ بالباطل، والمبتدع يعتقد ثم يستدلُّ، أمَّا السني فاعتقاده ومنهجه تبع لقول الله ورسوله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «لا تقولوا حتىٰ يقول الله ورسوله».

ومن تأمَّل تحريفات المبتدعين بأصنافهم، سواء ما كان من أغلوطات الخوارج بأفهامهم مما توهموه ظاهر نصوص الوحي، أو ما كان من تأويلات المعتزلة والأشاعرة، أو ما كان من افتراءات القرامطة فيما زعموه من المعاني الباطنة المخالفة لمعاني ألفاظ القرآن والسنَّة؛ تبيَّن له بطلان ما تأوَّلوه وحرَّفوه، وأنَّ الحق من معاني الوحي ما أدَّاه إلينا التَّابعون عن الصَّحابة عن النبي ﷺ.

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٨٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أنواع جناية المحرِّفين للوحي[١]: «تارة يجعلون المعنىٰ الفاسد ظاهر اللفظ، حتىٰ يجعلوه محتاجًا إلىٰ تأويل يخالف الظَّاهر، ولا يكون كذلك. وتارة يردُّون المعنىٰ الحقَّ الذي هو ظاهر اللَّفظ لاعتقادهم أنَّه باطل».

وسبيل المبطلين والمحرِّفين لمعاني الوحي تكذيبُ نصوصه إن استطاعوا، فإن لم يستطيعوا سعوا في إبطال معانيه التي تقتضيها ألفاظه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كل زنديق ومنافق يبطل العلم بما بعث الله به رسوله ﷺ، تارة يقول: لا نعلم أنَّهم قالوا ذلك، وتارة يقول: لا نعلم ما أرادوا بهذا القول. ومتىٰ انتفىٰ العلم بقولهم أو بمعناه؛ لم يُستفد من جهتهم علم، فيتمكن بعد ذلك أن يقول ما يقول من المقالات».

وتحريفات المبتدعين لألفاظ القرآن بدع أسسها الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والصوفية والرافضة، ليس لهم فيها سلف عن التَّابعين والصَّحابة، ولا عن تبيين النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أمَّا مُعارضة القرآن بمعقول أو قياس؛ فهذا لم يكن يستحلُّه أحد من السَّلف، وإنَّما ابْتُدع ذلك لَمَّا ظهرت

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٤٣).
(٢) نقض المنطق (ص٧٥).
(٣) الاستقامة (ص٤٧).

الجهمية والمعتزلة ونحوهم، ممَّن بنوا أصول دينهم علىٰ ما سمَّوْهُ معقولًا وردُّوا القرآن إليه، وقالوا: إذا تعارض العقل والشَّرع، إمَّا أن يُفَوَّض أو يُتَأَوَّل. فهؤلاء من أعظم المجادلين في آيات الله بغير سلطان أتاهم».

وعقليات المعتزلة وفروعهم التي ردُّوا بها نصوص الوحي من كلام الله عَزَّوَجَلَّ وكلام رسوله ﷺ ضلالات وأوهام جعلوها بحسب تسميتهم لها «قطعيات»، يردون علىٰ الله كلامه ووحيه، وهي بضرورة النقل والعقل أباطيل من القول في كتاب الله بلا علم ولا هدًىٰ ولا سلطان مبين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ظنّهم أنَّ ما عارضوا به السمع معلوم بالعقل، ويكونون غالطين في ذلك، فإنَّه إذا وُزن بالميزان الصَّحيح وجد ما يعارض الكتاب والسُنَّة من المجهولات لا من المعقولات».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن عقليَّات المتكلِّمين**[٢]: «هم مع ذلك من أبعد النَّاس عمَّا أوجبوه؛ فإنَّهم كثيرًا ما يحتجُّون فيها بالأدلَّة التي يزعمونها قطعيَّات، وتكون في الحقيقة من الأغلوطات فضلًا عن أن تكون من الظنيَّات، حتىٰ إنَّ الشَّخص الواحد منهم كثيرًا ما يقطع بصحَّة حُجَّة في موضع، ويقطع ببطلانها في موضع آخر».

وغلاة المبتدعة سعوا في إضلال الخلق بتعطيل الوحي عن أن يهتدي به

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣١٣).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٨٨ج).

المسلمون، فأبىٰ المعتزلة علىٰ المسلمين الاستدلال بالوحي من القرآن والسنَّة إذا كان يخالف معقولاتهم الضالة، وجعل القرامطة لنصوص القرآن بواطن تخالف معاني ألفاظ القرآن؛ لإبطال الوحي عن حقيقته، ولإفساد أديان المسلمين وعقائدهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تأويلات القرامطة، فإنَّهم أئمة هذا الباب الذي كانوا به أضل الناس عن سواء السبيل، وهو في الأصل إنما صدر عن زنادقة منافقين أرادوا التلبيس به علىٰ جهال المسلمين في الظاهر، وخالفوهم في الباطن: ﴿**وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾**﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]، ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾**﴾ [البقرة: ١٣]».

ومن أمثلة التحريف المعنوي لنصوص القرآن؛ تحريفُ الصوفيَّة لقول الله تعالىٰ: ﴿**وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ**﴾ [الحجر: ٩٩]، حيث فسَّروا اليقين ببلوغ مراتب أوليائهم الصوفية المبتدعين.

وخير أولياء الله المتقين رسلُه - عليهم الصلاة والسلام أجمعين -؛ عبدوا الله حتىٰ فارقوا الدنيا، ولم يتركوا شيئًا مما أمرهم الله، مع أنَّهم أدركوا من كل فضيلة في علم واعتقاد وعمل أعلاها وخيرها وأزكاها، قال عيسىٰ ابن مريم عليه

(١) السبعينية (ص٣٢٥، ٣٢٦).

الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣٠، ٣١]. والسلف المنقول عنهم في تفسير ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ في الآية: الموت، قولًا واحدًا، لم يُنقل عنهم غير ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هو الموت، بإجماع أهل العلم كلهم، قال الحسن: لم يجعل الله لعباده المؤمنين أجلًا دون الموت».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «من ذهب من الملاحدة إلىٰ أن المراد باليقين المعرفة، فمتىٰ وصل أحدهم إلىٰ المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل؛ فإن الأنبياء - عليهم السلام - كانوا هم وأصحابهم أعلَم الناس بالله، وأعرفَهم بحقوقه وصفاته، وما يستحقُّ من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبدَ الناس، وأكثر الناس عبادةً ومواظبةً علىٰ فعل الخيرات إلىٰ حين الوفاة. وإنما المرادُ باليقين هاهنا الموت».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إنَّه قد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام أنَّ الأمر والنَّهي لازم لكل عبد ما دام عقله حاضرًا إلىٰ أن يموت، لا يسقط عنه الأمر والنَّهي لا بشهوده القدر، ولا بغير ذلك، فمن لم يعرف ذلك عُرِّفه وبُيِّنَ له، فإن أصر علىٰ اعتقاد سقوط الأمر والنَّهي؛ فإنَّه يُقتل»[(٤)].

---

(١) بدائع التَّفسير (٣/ ٣٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٢١).

(٣) تفسير شيخ الإسلام (٤/ ١٤٤).

(٤) الحدود والتعزيرات يقيمها ولي الأمر.

السبب الثاني في وقوع الخطأ بعد طبقة الصحابة والتابعين من جهة تفسير القرآن بالمعنىٰ: أن البعض فسَّر آيات القرآن بالمعنىٰ اللغوي المحض، ولم يفسرها بالمعهود من معاني الشرع، وهذا مبحث دائمًا يحرِّره العلماء في كتب أصول الفقه، يقولون: الحقائق تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: شرعية، ولغوية، وعرفية، والأصل هو الحقيقة الشرعية؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ بُعث ببيان الشرع، وما انفرد فيه الحد اللغوي فهذا يصار إليه؛ كالسماء، والأرض، والجبال، والشمس، هذه ألفاظ لغويَّة انفرد فيها الحدُّ اللغوي.

وهناك ألفاظ عرفيَّة؛ وهو الخطاب الذي نتخاطب به؛ فهذا بعضه يوافق اللغة، وبعضه يوافق الشرع واللغة، وبعضه مُحْدَثٌ، والأصل في خطاب الناس الحقيقة العرفية لمعانيهم التي يستعملونها في خطابهم، لكن الأصل في خطاب الشرع معنىٰ الشرع، فوقع الخطأ من الجهة الثانية؛ أن البعض فسَّر الألفاظ الشرعية بالمعاني اللغوية، وهذا خطأ، وأخطر من ذلك من فسَّر المعاني الشرعية بالخطاب العرفي، **ولنبيِّن ذلك بأمثلة:**

الأول: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]، فـ«السياحة» في خطاب الشرع: هي الرحلة في طلب العلم، والجهاد في سبيل الله، والصيام. لكن السياحة في المصطلح العرفي عندنا في جزيرة العرب: هي إجمام النفس بالسفر، فلا نفسر قوله تعالىٰ: «السائحون» في هذه الآية بالسفر للنزهة، بل نفسِّره بمعناه الشرعي؛ أي: باستعمال الشرع له، وفي خطاب الشرع

لنا؛ وهو الرحلة في طلب العلم، والجهاد في سبيل الله، والصيام.

الثاني: قوله ﷺ: «**ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن**» رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ معناه: ليس منَّا من لم يجوِّد الصوت ويُحسِّنه بتلاوة القرآن، وليس معنىٰ «التغني»: الغناء في اصطلاح فرق الموسيقىٰ والألحان والتطريب، فلا يجوز تفسير معاني القرآن ومعاني السنَّة بهذه الاصطلاحات الباطلة المحرّمة.

الثالث: لفظة «التأويل» معناها في لغة القرآن والسنة:

المعنىٰ الأول: حقيقة ما يؤول إليه الشيء؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ**﴾ [الأعراف: ٥٣]؛ يعني ما ينتظرُ هؤلاء المكذِّبون لحقائق ما أخبرت به الرسل عن الحساب في اليوم الآخر؛ إلا معاينة الحساب في اليوم الآخر، فحينئذ لا ينفعهم إيمانهم.

والمعنىٰ الثاني للتأويل في استعمال الشرع: هو التفسير، فقد دعا النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وقال: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»؛ رواه البخاري، يعني التفسير.

فلا يجوز حمل «التأويل» في لغة القرآن والسنَّة علىٰ المعنىٰ البدعي الذي أحدثه المعتزلة والأشاعرة؛ وهو صرف اللفظ عن ظاهره، الذي هو في حقيقته تحريف لمعاني نصوص القرآن والسنَّة؛ كما قال العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مقاصد المبتدعة في ذلك من تضليل الناس، فهذا يسمَّىٰ تحريفًا، وإنَّما سمَّوه تأويلًا ليقبله الناس.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هم يقولون: تأويل، ونحن نقول: تحريف.

لكنَّهم يقولون: تأويل ليخفَّ الأمر؛ إذ لو قالوا: إنَّه تحريف؛ لنفر الناس منهم، وما قبلوا منهم صرفًا ولا عدلًا، ولكن يقولون: تأويل؛ من باب التلطيف.

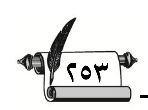
ونحن نقول: ليس هذا بتأويل؛ لأنَّ التأويل هو أن يُفسَّر كلام الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ بما أراد الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، هذا هو التأويل الحقيقي الصحيح، أما أن يُحرَّف فهذا التحريف، فهم يفهمون من قول الرسول عليه الصلاة والسلام خلاف ما أراد».

المثال الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فـ«الذرة» في لغة القرآن المراد بها: صغار النمل، ويضرب بها المثل في القِلَّة؛ كما قال شيخنا ابن عثيمين، فلا يجوز أن نفسره بالمعنىٰ الحادث في اصطلاح علماء الفيزياء؛ أنه أقل وحدة من مكونات المادة، والقرآن الذي خُوطب به الصحابة بلسان عربي مبين، ولم يكن الصحابة يفهمون من معنىٰ «الذرَّة» إلا صغار النمل.

فمن هنا إذا جاءنا لفظ في القرآن والسنة فلابُدَّ **أولًا**: أن نفسره بمعانيه الشرعية؛ لأن النبي ﷺ بُعث ببيان المعاني الشرعية، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: ٤٤].

---

(١) التعليق علىٰ ميمية ابن القيم (ص٤٤).



قال العلامة الفقيه ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الألفاظ التي لها عرف شرعي وحقيقة لغوية، كالوضوء والطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج؛ إنَّما ظاهرها العرف الشرعي، دون الحقيقة اللغوية».

الأمر الثاني: أن ظاهر الخطاب هو الحقيقة الشرعية، فهذا خطاب الله عَزَّوَجَلَّ لخلقه، وليس الخطاب اللغوي، فمثلًا قوله ﷺ: «**لا صام من صام الأبد**»، بعض العلماء فسّر الذي لا يجوز من صيام الأبد بالأيام المنهي عن صيامها كيومي العيدين وأيام التشريق؛ وهذا تفسير خاطئ؛ لأن صيام اليوم المنهي عن صيامه لا يقال عنه صيام، فالحائض لو صامت وهي حائض فلا يقبل منها، ولا يسمَّىٰ فعلها صيامًا في الشرع، وظاهر الخطاب الشرعي في قوله ﷺ: «**لا صام من صام الأبد**»؛ يتناول من يسرد الأيام كلها بالصيام غير الأيام المنهي عنها، فهذا منهيٌّ عنه.

الأمر الثالث الذي يعيِّن استعمال اللفظ بمعناه الشرعي: سياق النصِّ من الآية والحديث، كقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فالمراد بالخيط الأبيض: بياض الفجر، والمراد بالخيط الأسود: سواد الليل، وبهذا تبيَّن أن عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أخطأ في تفسير الخيط باللغة العرفية، فظن أنه العقال، وسياق الآية في قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ يدلُّ علىٰ أنَّ المراد بالبياض في الآية بياض الفجر.

الأمر الرابع: ألفاظ الشريعة تُفهم من استعمال الشرع لها، فهذه هي معانيها

---

(١) ذم التأويل (ص٤٥).

المعهودة المقصودة، فلا يصحُّ مخالفة ذلك وإن كان المعنىٰ اللغوي يحتمله، فالقرء في اللغة يطلق علىٰ الطهر وعلىٰ الحيض، لكنه في استعمال الشرع - كما يقول ابن قدامة - لم يرد إلا في الحيض؛ كقوله ﷺ: «**تدع المرأة صلاتها في أقرائها**»؛ يعني في الحيض، فهذه مرجحات تعيِّن معنىٰ الحقيقة الشرعية في نصوص القرآن والسنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من تدبَّر القرآن، وتدبر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن؛ تبين له المراد وعرف الهدىٰ والضلالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج.

وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه، فهذا منشأ الغلط من الغالطين، لا سيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية».

خامسًا: فهم الصحابة، فإنَّه من الأسباب المعينة علىٰ فهم خطاب الشَّرع، وتمييز معانيه الشَّرعيَّة من اللغوية؛ لأنَّهم تلقَّوا معاني ذلك من رسول الله ﷺ مباشرة.

فتلقي معاني نصوص القرآن والسنَّة عن الصَّحابة من أسباب إدراك الحقِّ والصَّواب.

مثال: قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، فليس المراد بالسَّعي في الآية سرعة المشي؛ لأنَّ السعي في كتاب الله وفهم الصَّحابة هو العمل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم

مَشۡكُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٩]، ونحن منهيُّون عن سرعة المشي في الذهاب إلىٰ الصلاة، ففي الصحيح عن النبيِّ ﷺ قال: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتمُّوا**».

وقرأ الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: [فامضوا إلىٰ ذكر الله]، فتفسير الفاروق مبيِّن لمعنىٰ «السعي» في الآية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ(١): «السَّعي المأمور به إلىٰ الجمعة هو المضي إليها، والذهاب إليها».

وهناك بعض النصوص أحيانًا ينفرد فيها الحد الشرعي، فليس لها معنًىٰ لغويٌّ، فهذه لا ريب أن المعنىٰ الشرعي هو المتعيِّن، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ ﴾ [الحج: ٢٩]؛ و«التفث» لا يعرف في كلام العرب؛ كما قال أبو عبيدة والزجاج؛ لا في أشعارهم ولا في منثور كلامهم؛ فهذه الكلمة ليس لها استعمال عند العرب، لكنّها لفظة شرعية قرآنية، والتفث هو قصُّ الشارب للمحرم، وتقليم الأظافر والخروج من الإحرام إلىٰ الإحلال.

ومن الألفاظ ما ينفرد فيه الحدُّ اللغوي، كما ذُكِرَ في «السماء والأرض والجبال»، وغالب الألفاظ فيها حدٌّ شرعي وحد لغوي، لكن بينهما عموم وخصوص، كالصلاة؛ فالصلاة في اللغة: الدعاء، لكن في اصطلاح الشرع: هي العبادة المعروفة المخصوصة المبتدأة بالتكبير والمختتمة بالتسليم، لكن هي

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٢/ ٢٥٩، ٢٦٠).

مضمَّنَة للمعنىٰ اللغوي، فالصلاة فيها دعاء، وهذه العبادة أيضًا أداؤها دعاء بلسان الحال، فالإنسان يتألَّه لله عَزَّوَجَلَّ بالصلاة؛ خوفًا من ناره وطمعًا في جنَّته.

والزكاة كذلك معناها الشرعي هو التعبُّد لله بإخراج النصاب الزكوي في الأموال الزكوية، لكن فيها المعنىٰ اللغوي؛ وهو التطهير والتزكية؛ لأنها تزكي المتصدِّق، وتطهِّر قلبه من الشُّحِّ، ومن البخل، وتزكيه أيضًا بعبوديته لله بأداء هذا الركن، وتزكيه في الإحسان إلىٰ المخلوقين، وتزكي ماله أيضًا بحفظه ونمائه ودفع الآفات عنه.

وهناك نصوصٌ فيها خلاف بين الفقهاء أو علماء التفسير في ترجيح المعنىٰ الشرعي أو اللغوي، وينبني علىٰ ذلك أحكام كثيرة، وتفصيل ذلك يحتاج إلىٰ مصنَّفات خاصَّة، من ذلك قوله ﷺ في حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «الطواف بالبيت صلاة»، وهذا الأثر صحَّحه مرفوعًا من قول النبي ﷺ بعض العلماء، وبعضهم صحَّحه موقوفًا علىٰ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا من قوله، فالصلاة معناها المقصود هنا هو اللغوي وليس الشرعي؛ فالمقصود بالصلاة هنا: الدعاء، أي: ادعُ وأنت تطوف؛ لأن الصلاة بالمعنىٰ الشرعي لابد فيها من استقبال القبلة، وأما في الطواف فأنت تجعل الكعبة عن يسارك وتطوف، وأيضًا يجوز أن تتكلَّم في الطواف، وهذا لا يجوز في الصلاة الشرعية، ولك أن تشرب وتأكل وأنت تطوف، ولا يجوز ذلك في الصلاة الشَّرعيَّة، لكن الأخشع لك أن تنشغل بذكر الله ودعائه وأنت تطوف؛ فهذه الأمور كلها تعيّن أن المراد بالصلاة في الحديث المعنىٰ اللغوي، وإذا قلنا: أن المراد به هو المعنىٰ اللغوي، فلا يحتاج الطواف لنيَّة تخصّه

من بداية الطواف؛ لأنّه ليس صلاةً بالمعنىٰ الشرعي، ونيَّة العمرة أو الحج من حين الإحرام تستوعب الطَّواف.

وبعض أئمة اللغة يفسِّر القرآن تفسيرًا لغويًّا محضًا، ولا يرجع إلىٰ المعهود من استعمال الشرع للفظ، وهذا خطأٌ، وقد ذكرنا نماذج وأمثلة لذلك في كتاب «الجامع في علوم القرآن».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «للقرآن عُرفٌ خاصٌّ، ومعانٍ معهودة لا يناسبه تفسيرها بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه والمعهود من معانيه».

فالحاصل أنَّ تفسير معاني نصوص القرآن والسنَّة لابُدَّ أن يكون بما يقتضيه اللفظ، وما يُعيِّنه السِّياق، ويدلُّ عليه استعمال الشَّرع، ويؤكِّده فهم الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

وباستقراء نصوص القرآن والسنَّة التي تتجاذبها المعاني الشَّرعيَّة واللُّغويَّة، سيجد طالب العلم أن بين المعاني الشَّرعيَّة واللُّغويَّة عمومًا وخصوصًا، وتعيينها يكون بالمرجّحات التي تمَّ بيانها.

فلفظ «القرء» لغة يعمُّ الطُّهر والحيض، وفي استعمال الشَّرع خُصّ بالحيض - كما سبق -، وورد في خطاب الشَّرع استعمال اللَّفظ اللُّغويِّ الخاصِّ في معنًىٰ أعمَّ، من ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لو يعلم النَّاس ما في التَّهجير لاستبقوا إليه**»، رواه البخاري.

---

(١) بدائع التَّفسير (٢/ ٢٤٨).

فالتهجير لا يختصُّ بصلاة الظهر في استعمال الشَّرع، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أراد به التَّبكير إلىٰ جميع الصَّلوات؛ وهو المضيُّ إليها في أوَّل أوقاتها».

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «من غدا إلىٰ المسجد وراح، أعدَّ اللهُ له نزله من الجنة كلَّما غدا أو راح»، متَّفق عليه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «المراد بالغدوِّ الذَّهاب، وبالرَّواح الرجوع، والأصل في الغدوِّ المضيُّ من بكرة النَّهار، وللرَّواح بعد الزَّوال، ثم قد يستعملان في كلِّ ذهاب ورجوع».

علىٰ كل حال الواجب علىٰ المسلم أن يتلقَّىٰ معاني القرآن عن الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين تلقَّوه عن النبيِّ ﷺ، وأن يُفسِّر القرآن علىٰ مراد الله عَزَّ وَجَلَّ، ومن شرِّ ما وقع في الأمَّة من الضَّلال في العقيدة خصوصًا: تفسيرُ كلام الله بعرف المتكلِّمين؛ كما حصل من الجهمية والمعتزلة في «القرآن».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «قوله: ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ**﴾ [الأنبياء: ٢]؛ فإنَّهم ظنُّوا أنَّ المحدَث والقديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن؛ هو المحدث والقديم في اصطلاح المتكلِّمين».

والقرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، ومعنىٰ محدث هو أنَّه آخر ما تكلَّم الله به من كلماته

---

(١) زاد المعاد (١/ ٤٠٥).

(٢) فتح الباري (٢/ ١٤٨). **والنُّزل**: بضم النون والزاي: المكان الذي يُهيَّأ للنزول فيه.

(٣) الصفدية (٢/ ٨٤).

الشَّرعية من وحيه إلىٰ عباده.

ثم حذَّر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك من تفاسير المعتزلة التي سلكت البدع في تفسيرها، ثم ذكر أصول المعتزلة، وهي خمسة، فهم ضاهوا فيها أصول الشريعة التي جاءت في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»، فجعلوا أصولهم: «الْتَّوْحِيدَ، وَالْعَدْلَ، وَالْمَنْزِلَةَ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَإِنْفَاذَ الْوَعِيدِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ»، وَتَوْحِيدُهُمْ هُوَ تَوْحِيدُ الْجَهْمِيَّةِ - كما قال شيخ الإسلام -.

والفرق بين الجهمية والمعتزلة: أنَّ الجهمية ينكرون الأسماء والصفات، ويقولون: الله عَزَّوَجَلَّ ليس له أسماء ولا صفات، ولا شكَّ أنهم في هذا من أضلِّ الفرق، وهم مكذِّبون للقرآن؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]؛ يعني الصفات العُلَىٰ.

ولذلك فابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يرىٰ أن الجهمية ليسوا من فرق القبلة، أي: الجهمية ليسوا من فرق الأمة الثلاثة وسبعين التي جاء ذكرها في حديث اختلاف الأمة، فالجهمية ليست من فرق الإسلام، فالذي يكذِّب بالقرآن ولا يثبت لله عَزَّوَجَلَّ أسماءً ولا صفات ليس من فرق القبلة.

والمعتزلة يثبتون لله الأسماء لكن لا يثبتون الصفات، فيقولون: سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

والأشاعرة من فروع المعتزلة - كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة والعلامة المجدد محمَّد بن إبراهيم آل الشيخ -؛ لأنَّ المعتزلة هم شيوخ الأشاعرة، فأبو الحسن الأشعري شيخه الجبائي، تلقىٰ عنه العلم أربعين سنة!

ثانيًا: تأويلات الأشاعرة هي بعينها تأويلات المعتزلة، قال شيخ الإسلام: «تأويلات أبي بكر بن فورك هي بعينها تأويلات بشر المريسي الذي ردَّ عليه الدارمي».

ورجوع أبي الحسن الأشعري عن مذهب الكُلَّابية والمعتزلة كان رجوعًا وافق فيه أهل السنَّة في جمل من مسائل الاعتقاد، وبقيت عند مخالفات لأهل السنَّة في مسائل من أهمِّها وأعظمها صفة الكلام لله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب البصريُّ، وأبو الحسن الأشعري كانا يخالفان المعتزلة، ويوافقان أهل السنَّة في جمل أصول السنة، ولكن لتقصيرهما في علم السنة وتسليمهما للمعتزلة أصولًا فاسدة؛ صار في مواضع من قوليهما مواضع فيها من قول المعتزلة ما خالفا به السنَّة، وإن كانا لم يوافقا المعتزلة مطلقًا».

ومن شرِّ ما وافقا فيه المعتزلة قولُهم عن القرآن الذي هو كلام الله: إنَّه معنًىٰ قائم بنفس الله، الذي خلق أصواتًا سمعها جبريل عبارة عمَّا في نفسه.

قال العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الأشاعرة فرع من

---

(١) الاستقامة (ص١٦٥).

(٢) شرح الواسطية (ص١٤٠).

الكلابية في هذه المسألة».

وقال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي الحسن الأشعري في هذه المسألة[١]: «بقي على مذهب ابن كلاب».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «القرآن على مذهب الأشاعرة مخلوق، لكن قالوا: إنَّه عبارة عن كلام الله».

ومن العقائد الضالَّة التي نُقمت على أبي الحسن الأشعري؛ قوله: إنَّ الرب لم يكن في الأزل قادرًا على الفعل[٣].

وفهوم الأشاعرة التي ضلُّوا فيها لنصوص القرآن والسُّنَّة خصوصًا لنصوص أسماء الله وصفاته الحسنى مخالفةٌ تمامًا لفهوم أهل السُّنَّة والجماعة، فكيف يقال: الفريقان سواء؟! هذا من المحال والضَّلال والإضلال. فعقائد الأشاعرة بتراء مقطوعة عن التلقي عن خير القرون من الصَّحابة والتَّابعين، وعقائد أهل السنَّة موروثة عن الصَّحابة الذين تلقَّوا العلم والدِّين عن النبيِّ ﷺ، والتَّابعين الذين تلقَّوا عن الصَّحابة عن النبيِّ ﷺ.

والتوحيد عند المعتزلة: أن الله عَزَّوَجَلَّ - كما يقولون - له أسماء وليس له صفات، ولا يُرى في الآخرة، وهم بذلك أيضًا مُكذِّبون للقرآن، قال الله عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) توضيح الكافية الشافية (ص١٦٠).

(٢) شرح الأربعين النووية (ص٢٥١).

(٣) الصفدية (٢/ ١٦٢).

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، هذه دلالة منطوق في إثبات الرؤية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ويؤيده مفهوم المخالفة في قوله تعالىٰ عن الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾ [المطففين: ١٥]، فمفهوم المخالفة: أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة.

وقال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ الحسنىٰ دخول الجنة، والزيادة هي النظر إلىٰ وجه الله، هذا تفسير النبي ﷺ رواه عنه صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في صحيح مسلم. وقال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة المطففين في حال أهل الجنَّة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)﴾ [المطففين: ٢٣، ٢٤]؛ من رؤية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وقرة العين بذلك، وبرؤية النبي ﷺ.

وفي «الصحيحين» قوله ﷺ: **«سترون ربكم»**؛ يعني في الدار الآخرة، والحديث متواتر عن النبي ﷺ في إثبات الرؤية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وفي لفظ للبخاري **«عيانًا»**، وقد أفرد العلماء مسألة «الرؤية» بمصنَّفات خاصَّة؛ كالحافظ أبي بكر الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، والدارقطني رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

ويقول المعتزلة أيضًا: القرآن مخلوق، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، وهذه البدعة هي التي أضرَّت الإسلام وأفسدت علىٰ الأمَّة دينها، فهذه البدعة انتحلها بطانة الولاة العباسيين من ضُلال المعتزلة - هم ضُلال وليسوا بعلماء - كابن أبي دؤاد ومن معه، وأول من تولَّىٰ كبر هذه البدعة من ولاة العباسيين هو المأمون، ثم المعتصم، ثم الواثق، ثم دفع الله عَزَّ وَجَلَّ عن أهل السنَّة والجماعة والمسلمين

بدعة خلق القرآن بالمتوكِّل الذي نصر الله به السنَّة.

وفي هذا دليل على شؤم بطانة المبتدعة على الولاة وعلى الإسلام، ونال علماء أهل السنَّة بسبب بدعة «خلق القرآن» النكال والعذاب والأذى والسجن والجلد والقتل بسبب إكراههم على القول بخلق القرآن.

وصبر على أذى الولاة العباسيين ووشاة المعتزلة الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالله عَزَّوَجَلَّ ثبَّته ونصر به الإسلام، وحفظ به الدين، ولولا أن الله عَزَّوَجَلَّ اصطفى الإمام أحمد لاستحكمت بدعة خلق القرآن في الناس، وهناك أيضًا فئة قليلة من العلماء الذي ثبتوا على الحق في ذلك، وما تأولوا بالإكراه على كلمة الكفر، ومنهم من مات في السجن مقيدًا بالقيود، ومنهم من مات بالتعذيب في السجن بسبب إكراه الولاة العباسيين للعلماء على القول بكلمة الكفر.

والقرآن ليس بمخلوق؛ لأنه كلام الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فالقرآن كلام الله ليس بمخلوق، والكلام صفة من صفات الله، وصفاته سبحانه قائمة بذاته سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فلا يقال: إن كلام الله مخلوق، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ولا تزال هذه البدعة في الأمَّة بسبب فروع المعتزلة من الأشاعرة الذين لا

يزالون ينتحلون قول أبي الحسن الأشعري في صفة الكلام، وأبو الحسن الأشعري كان معتزليًّا أربعين عامًا، ثم تتلمذ لمحمَّد بن سعيد بن كُلَّاب، وصار كُلَّابيًّا؛ يعني علىٰ منهجه، وهو أخف من المعتزلة لكنه ليس سنِّيًّا متمحضًا في السنَّة علىٰ عقيدة أهل السنَّة والجماعة، وكان من قوله في القرآن: أن كلام الله معنًىٰ قائم بالنفس، وهذا حقيقته معنىٰ قول المعتزلة والجهمية: أن الله لم يتكلَّم بالقرآن، وهذا نبَّه عليه شيخ الإسلام في «التسعينيَّة» وكذلك العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ في «شرح الواسطية» - وهو من أنفع المصنفات في شرح الواسطية، فشرحه قوي في تقرير هذه المعاني والتحذير من ضلال الأشاعرة، فأنصحكم بقراءته -.

ويقول المعتزلة في وصف الله عَزَّوَجَلَّ: ليس فوق العالم ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، وليس في جهة، ولا يقوم به علم، ولا قدرة، ولا حياة، ولا سمع، ولا بصر، ولا كلام.

والله عَزَّوَجَلَّ في جهة العلوِّ، قال تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [المُلك: ١٦]، لكن - كما قال شيخ الإسلام - لو قيل: صِفِ العدم؛ لن تجد أفضل وصفًا للعدم من هذا الكلام الذي قاله المعتزلة، فهذا هذيانهم الباطل الذي أفسدوا به عقيدة المسلمين، ولا يزال هذا الشرُّ في هذه الأمة وإن كان اندرس كثير من اعتقاد المعتزلة.

وشرٌّ وأخطر ما بقي من دين المعتزلة أصلُهم في الاستدلال وتقرير العقيدة والدين؛ الذي عليه في هذا العصر كثير من المتعالمين والمبتدعين؛ وهو تقديم

العقل علىٰ النقل، وهذه قاعدة المعتزلة والأشاعرة الكبرىٰ، قال الرازي: «الاستدلال بالسمع - يعني الكتاب والسنَّة - مشروط بألا يعارضه قاطع عقلي، فإذا عارضه قاطع عقلي وجب ردُّه»، وهذا إبطال للوحي - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - باعتراضات المخلوقين العقلية، ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ١٤٠]. والمسلمون المتحقِّقون بكمال علم الله يقولون في وحي الله: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]، ليس بعقل الرازي ولا عقول الأشاعرة ولا المعتزلة نردُّ علىٰ الله كلامه وأحكامه، عقول المخلوقين خلقها الله عَزَّوَجَلَّ وهي قاصرة ومحدودة، لا تحيط علمًا بكلِّ شيء، والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يعلم كلَّ شيء، وهو الحكيم العليم.

وبعض المضللين أو الجاهلين يقول: لماذا تتكلَّمون عن المعتزلة، فقد انقرض المعتزلة؟ فبعض من يقول هذا الكلام هو في الحقيقة منهم؛ في كلامه وكتبه واعتقاده تقديم العقل علىٰ النقل.

والعقل الصريح يفهم كلام الشرع ولا يعارضه، قال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]؛ هذه هي عقيدة العلماء والموحِّدين والمؤمنين.

أمَّا العدل عند المعتزلة فهو: ان الله لم يشأ جميع الكائنات ولا خلقها كلَّها، ولا هو قادر عليها، وهذا تكذيبٌ لعلم الله ولخلقه، وهو كلام لا يقبله مؤمن.

ويقول المعتزلة: أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يخلق أفعال العباد؛ وهذا كذب، قال

إبراهيم عليه السلام في مناظرة عبَّاد الأصنام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي خلق في المخلوق قدرة تامة وإرادة جازمة يفعل بها الأعمال، فخالق السبب التام خالقٌ لمسببه، فالله هو الذي خلق في المخلوق أسباب أفعاله، فالله خالق للمخلوق وأفعاله، وفي حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي رواه البخاري في «الأدب المفرد»، قال النبي ﷺ: «**الله خلق كل صانع وصنعته**».

والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر عند المعتزلة؛ إلزامُ الغير بعقيدتهم في الأسماء والأحكام التي هي المنزلة بين المنزلتين، ومسألة إنفاذ الوعيد، وجواز الخروج علىٰ الأئمَّة بالقتال[(١)].

ثم ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة أن متأخري الشيعة اتبعوا المعتزلة في عقائدهم في الأسماء والصفات؛ فالمتقدِّمون من الشيعة كانوا مجسِّمة، وهذا يدلُّ علىٰ أن بعض الفرق تتطور وتتغير عقائدها.

ثم ذكر شيخ الإسلام ما في هذه التفاسير من الضلال؛ كتفسير أبي جعفر الطوسي وتفسير المفيد.

ثم ذكر ما توافق فيه المعتزلة مع الخوارج من أصول الاعتقاد؛ مثل «إنفاذ الوعيد في الآخرة»، وأن الله لا يقبل في أهل الكبائر شفاعة ولا يخرج منهم أحدًا من النار، فالخوارج والمعتزلة اتفقوا علىٰ تكفير المسلمين بالذنوب والمعاصي،

---

(١) شرح العقيدة الطَّحاوية (٢/ ٤٠٣).

يكفِّرون المسلمين بالكبائر، ومن غلاة الخوارج من يكفِّر المسلمين بالصَّغائر، فهل يبقىٰ في الأرض مسلم إذا كفرت بالكبائر والصغائر؟! والنبي ﷺ قد قال: «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**» رواه الترمذي، والخوارج بدؤوا بالتكفير قبل المعتزلة، وهي أول بدعة ظهرت في الإسلام(١)، وكانت في عهد عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ثم ظهرت المعتزلة بعد ذلك في عهد الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ، فكان في مجلسه واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد فتناظر معهما الحسن في حكم المسلم الذي فعل الكبيرة، فالمعتزلة اتفقوا مع الخوارج في حكم فاعل الكبيرة أنَّه مخلَّد في النار ولا تنفعه شفاعة الشافعين، لكن الخوارج قالوا: هو كافر، وقال المعتزلة: هو في منزلة بين المنزلتين، لا هو مسلم، ولا هو كافر. وردُّ كلِّ شبهاتهم له موضع آخر، وحسبنا هنا أن نذكر مثالًا لفهوم الخوارج والمعتزلة الضَّالة لنصوص القرآن والسنَّة بالتكفير بالكبائر:

من ذلك التكفير بكبيرة القتل: فالخوارج والمعتزلة يستدلُّون بقوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء: ٩٣].

وهنا نتبيَّن من أين أُتي الخوارج والمعتزلة في ضلال فهومهم؛ أُتوا من اجتزاء النصوص، فعندما تريد أن تحكم في مسألة في موضوع واحد، لابد أن تجمع كل أدلَّتها لكي تحكم في هذه المسألة وتستنبط الحكم الشرعي.

---

(١) **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُٱللَّهُ: «أول البدع ظهورًا في الإسلام، وأظهرها ذمًّا في السنة والآثار بدعة الحرورية المارقة»، مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٧١).

فأتوا إلىٰ هذا النصِّ، وصاروا وعيديَّة - كما سمّاهم العلماء -؛ أي: يُقنِّطون الناس من رحمة الله فيما يأتونه من الذنوب.

والمسلم إذا جمع نصوص القرآن والسُّنَّة في كبيرة القتل أدرك أنَّها لا تُخرج من الملَّة ولا توجب خلودًا في النَّار.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، فأثبت لهم الإيمان مع وقوع الاقتتال منهم، وقد وقع القتال من أعظم طائفتين من المسلمين؛ طائفة عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وطائفة معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال النبي - صلوات الله وسلامه عليه - في الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**إن ابني هذا سيِّد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»، قال سفيان بن عيينة: «ما أعظم هذه الرواية: «من المسلمين»؛ فطائفة عليٍّ مسلمة وطائفة معاوية مسلمة، فوقع بينهم اقتتال وأثبت الله لهم الإسلام والإيمان، فكيف نفهم قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣]؟ نقول: لا يلزم من وجود مقتضىٰ الحكم وجوده؛ إذ لوجود الحكم لابد من استيفاء شروطه وانتفاء موانعه، والتوحيد مانع من موانع الخلود في نار جهنم، فالنبي ﷺ قال في حديث أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الشفاعة: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول يوم القيامة: انظروا إلىٰ من في قلبه مثقال ذرَّة من إيمان فأخرجوه من النار وأدخلوه الجنَّة**» رواه البخاري، والنبيُّ ﷺ يقول: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»، رغم أنف الخوارج والمعتزلة، فصلوات الله وسلامه عليه فهو بالمؤمنين رءوف رحيم. وبهذا نعرف أنَّ فساد وسوء الفهم للنصوص شرُّه عظيم علىٰ الأمَّة

الإسلامية؛ فقد صار الخوارج والمعتزلة يكفِّرون المسلمين.

والمعتزلة قد ردَّ عليهم الكُلَّابيَّة، والخوارج ردَّ عليهم المرجئة، لكن هؤلاء أحسنوا في بعض ردودهم وأساءوا في بعض، ومن هنا ظهرت بدعٌ أخرىٰ؛ لأنهم ردوا البدعة ببدعة، فبدعة المرجئة - كما يقول العلماء الذين أدركوها - ظهرت بسبب فتنة عبد الرحمن بن الأشعث في الخروج علىٰ بني أمية؛ أما الوسطية فهي أن تردَّ البدع بالسنَّة؛ لذلك قال الفاروق عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - وهو أعلم الأمة بعد نبيها محمد ﷺ وصديقها أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -: «ردُّوا الجهالات إلىٰ السنَّة».

قال شيخ الإسلام: «وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ اعْتَقَدُوا رَأْيًا، ثُمَّ حَمَلُوا أَلْفَاظَ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ لَهُمْ سَلَفٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ»؛ فهذا هو الذي أفسد تفاسير هؤلاء المبتدعة من الخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم، وصارت أقوالُهم مغلوطة، ليس لها سلفٌ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

وقول شيخ الإسلام: «وَمَا مِنْ تَفْسِيرٍ مِنْ تَفَاسِيرِهِمُ الْبَاطِلَةِ إِلَّا وَبُطْلَانُهُ يَظْهَرُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ»؛ من هذه الوجوه مخالفة دلالة اللَّفظ، والمعهود من معاني الشرع، ومخالفة سياق الآية، ومخالفة فهم الصحابة، إلىٰ غير ذلك من الأمور التي يتبيَّن بها بطلان الأقوال الضعيفة والمرجوحة فضلًا عن الأقوال المبتدعة.

❁ ❁ ❁

قال المصنِّف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

[وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَكُونُ حَسَنَ الْعِبَارَةِ فَصِيحًا، وَيَدُسُّ الْبِدَعَ فِي كَلَامِهِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ؛ كَصَاحِبِ «الْكَشَّافِ» وَنَحْوِهِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ يُرُوجُ عَلَىٰ خَلْقٍ كَثِيرٍ مِمَّنْ لَا يَعْتَقِدُ الْبَاطِلَ مِنْ تَفَاسِيرِهِمُ الْبَاطِلَةِ مَا شَاءَ اللهُ.

وَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ مَنْ يَذْكُرُ فِي كِتَابِهِ وَكَلَامِهِ مِنْ تَفْسِيرِهِمْ، مَا يُوَافِقُ أُصُولَهُمُ الَّتِي يَعْلَمُ أَوْ يَعْتَقِدُ فَسَادَهَا، وَلَا يَهْتَدِي لِذَلِكَ].

الشَّرْح:

حذَّر شيخ الإسلام في البداية من تفاسير المعتزلة كلها، وبيَّن أن المعتزلة فرقة ضالَّة، وبدعهم مكفِّرة، ثم جاء إلىٰ تفسير الزمخشري علىٰ وجه الخصوص وحذَّر منه؛ لأن بعض الناس من غير المعتزلة قد يعتني به من جهة المعاني البلاغيَّة[1]، لكن - والحمد لله - في مفسري أهل السنَّة من له عناية بالبلاغة التي يقتضيها مدلول اللفظ القرآني والمعنىٰ المعهود من معاني الشرع، فإنَّ بعض المحرفة يأتي إلىٰ ما يسمِّيه بلاغة - وهو في الحقيقة تحريف للفظ عن معانيه - ويؤوِّل معاني أسماء الله وصفاته وغيرها من الألفاظ الشرعية، والزمخشري من أخطر المعتزلة؛ لأنه يدسُّ السمَّ في العسل! أتىٰ مثلًا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فقال: هذا النعيم الذي ليس

(١) البلاغة التي هي من دلالة اللفظ لا من تحريفه العناية بها حسن، وفي كلام أهل السنَّة غنية عن بلاغة المعتزلة التي لا تخلو من ضلال.

فوقه نعيم، وهو دخول الجنَّة والنجاة من النار، قال علماء أهل السنَّة: هو بذلك يُعرِّض بنفي الرؤية؛ لأنه معتزلي، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، والله عَزَّوَجَلَّ يخاطب عباده المؤمنين يوم القيامة، ويقول لهم: «ماذا تريدون؟ قالوا: يا ربَّنا بيَّضتَ وجوهنا، وأدخلتنا الجنة، فأي نعيم أعظم من هذا؟! فيكشف لهم الحجاب، فما رأوا نعيمًا أعظم من النظر إلىٰ وجه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»، فإذًا الجنَّة نعيم عظيم، وأعظم نعيم في الجنة هو رؤية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وكلام المعتزلة وعلومهم أكثره حشو لا فائدة فيه، وعامته من هذيان معقولاتهم الذي عارضوا به الوحي، وأبطلوا به دلالته وحرَّفوه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن كلام المبتدعة والمتكلِّفين**(١): «يحشون الأوراق من التكلفات والشطحات؛ ما هو من أعظم الفضول المبتدعة، والآراء المخترعة، لم يكن لهم في ذلك سلف إلا رعونات النفوس المتلقاة ممن ساء قصده في الدين».

وخير القرون سلف الأمَّة، كلماتهم جمل في الهداية والحكمة، متلقَّاة مما فهموه من معاني القرآن والسُّنَّة، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أصحاب محمد ﷺ أبر هذه الأمَّة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلَّها تكلُّفًا».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أصحاب محمد ﷺ، مع أنهم

---

(١) نقض المنطق (ص١١٤).

(٢) نقض المنطق (ص١١٤).

أكمل الناس علمًا نافعًا وعملًا صالحًا؛ أقل الناس تكلفًا يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة أو من المعارف ما يهدي الله بها أمَّة، وهذا من منن الله علىٰ هذه الأمَّة».



قال المصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[ثُمَّ إِنَّهُ بِسَبَبِ تَطَرُّفِ هَؤُلَاءِ وَضَلَالِهِمْ دَخَلَتِ الرَّافِضَةُ الْإِمَامِيَّةُ، ثُمَّ الْفَلَاسِفَةُ، ثُمَّ الْقَرَامِطَةُ، وَغَيْرُهُمْ؛ فِيمَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ، وَتَفَاقَمَ الْأَمْرُ فِي الْفَلَاسِفَةِ وَالْقَرَامِطَةِ وَالرَّافِضَةِ؛ فَإِنَّهُمْ فَسَّرُوا الْقُرْآنَ بِأَنْوَاعٍ لَا يَقْضِي الْعَالِمُ مِنْهَا عَجَبَهُ.

فَتَفْسِيرُ الرَّافِضَةِ كَقَوْلِهِمْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]؛ هُمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

وَ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ أَيْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعَلِيٍّ فِي الْخِلَافَةِ.

وَ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]؛ هِيَ عَائِشَةُ.

وَ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢]؛ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ.

وَ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٩]؛ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ.

وَ﴿ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]؛ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ.

وَ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]؛ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ: ١، ٢]؛ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

وَ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]؛ هُوَ عَلِيٌّ، وَيَذْكُرُونَ الْحَدِيثَ الْمَوْضُوعَ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَهُوَ تَصَدُّقُهُ بِخَاتَمِهِ فِي الصَّلَاةِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]؛ نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ لَمَّا أُصِيبَ بِحَمْزَةَ.

وَمِمَّا يُقَارِبُ هَذَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ: مَا يَذْكُرُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]؛ أَنَّ الصَّابِرِينَ رَسُولُ اللهِ، وَالصَّادِقِينَ أَبُو بَكْرٍ، وَالْقَانِتِينَ عُمَرُ، وَالْمُنْفِقِينَ عُثْمَانُ، وَالْمُسْتَغْفِرِينَ عَلِيٌّ.

وَفِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أَبُو بَكْرٍ، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ عُمَرُ، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ عُثْمَانُ، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ عَلِيٌّ.

وَأَعْجَبُ مِنْ ذلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: ﴿وَٱلتِّينِ﴾ أَبُو بَكْرٍ، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ عُمَرُ، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ عُثْمَانُ، ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ عَلِيٌّ. وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ تَارَةً تَفْسِيرَ اللَّفْظِ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِحَالٍ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ لَا تَدُلُّ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]؛ كُلُّ ذَلِكَ نَعْتٌ لِلَّذِينَ مَعَهُ، وَهِيَ الَّتِي يُسَمِّيهَا النُّحَاةُ خَبَرًا بَعْدَ خَبَرٍ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهَا كُلَّهَا صِفَاتٌ لِمَوْصُوفٍ وَاحِدٍ، وَهُمُ الَّذِينَ مَعَهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنْهَا مُرَادًا بِهِ شَخْصٌ وَاحِدٌ.

وَتَتَضَمَّنُ تَارَةً جَعْلَ اللَّفْظِ الْمُطْلَقِ الْعَامِّ مُنْحَصِرًا فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ؛ كَقَوْلِهِ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: ٥٥]؛ أُرِيدَ بِهَا عَلِيٌّ وَحْدَهُ.

وَقَوْلِ بَعْضِهِمْ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣]؛ أُرِيدَ بِهَا أَبُو بَكْرٍ وَحْدَهُ، وَقَوْلَهُ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾؛ أُرِيدَ بِهَا أَبُو بَكْرٍ وَحْدَهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ].

الشَّرْح:

بعد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى سبب الضلال الذي وقع في تفسيرات المبتدعة من الاعتقاد ثم الاستدلال، وأيضًا من وضع نصوص القرآن في غير مواضعها؛ ذكر أنَّ هذا من أسباب الخطأ في تفسير القرآن ومن أسباب الضلال، بل هو تحريفٌ لمعاني القرآن، وذكر أنَّ أكثر من وقع منه ذلك المعتزلة والقرامطة والرافضة، وغيرهم من الفرق المبتدعة بدعة كبرىٰ مغلظة، ثم أخذ يذكر أنواعًا من الأمثلة لوضع الأدلَّة في غير مواضعها، أو تعطيلها عن مدلولها، قال: كتفْسِير الرافضة قوله تعالىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]؛ هُمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فسبحان الله! إذا أراد أحد أن يبيِّن ضلال الرافضة وضلال مذهبهم ما عليه إلَّا أن يذكر ترهات مقالاتهم واعتقاداتهم، وهي كافية في محاذرة عقيدتهم وبدعهم وضلالهم، وأيضًا هذه الأمثلة التي ذكرها شيخ الإسلام تبيِّن أن معتقد الرافضة في حقيقته تكذيبٌ للقرآن وتحريفٌ له، وفيه أيضًا هدم للإسلام، فالأعلام المنصوبة للدلالة علىٰ الأعيان المسمَّاة بها، هذه التي لا يمكن لأحد أن يحرِّفها، فعمد الرافضة إلىٰ تلك الأعلام وحرَّفوها، وقالوا: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]؛ هُمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا! وهذا كذب وتلاعب بالقرآن وتحريف له، فأبو

لهب علمٌ علىٰ شخص أبي لهب، وليس علمًا علىٰ أبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، والنبي ﷺ كان يبرأ إلىٰ الله من أبي لهب، ويقول: «**ليس من أوليائي**»، ولم يكتم هذه الآية في وعيد أبي لهب، مع أنه من قرابته، وهذا يدلُّ علىٰ أنه أدىٰ القرآن كما أوحي إليه.

فما أخذته الحميَّة لتحريف القرآن ولا تحريف معاني التوحيد، بخلاف الرافضة الذين يحرِّفون القرآن بسبب ما انطوت عليه قلوبهم من الضغائن لصحابة رسول الله ﷺ ولخيار خلق الله، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ في «منهاج السنَّة»: «من أعظم خبث القلوب البغض والكراهية والضغينة لخيار خلق الله صحابة رسول الله ﷺ»، والعجيب في مذهب الرافضة وتحريفاتهم تعظيمهم لأبي طالب، مع أنه مات علىٰ الكفر، وتكفيرهم لمن هم أعلام علىٰ الإيمان والإسلام والتوحيد من خيار الصَّحابة؛ كأبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فأبو لهب علم علىٰ أبي لهب وليس علىٰ أبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وسياق الآية يبيِّن أنها في أبي لهب وليست في أبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ [المَسَد: ٢-٥]، والنبيُّ ﷺ شهد لأبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بأعيانهما بأنهما في الجنَّة؛ عن سعيد بن زيد العدوي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ علىٰ حراء، فذكر عشرة في الجنة: «**أبو بكر، وعمر وعثمان، عليّ، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن مالك - بن أبي وقاص -، وسعيد بن**

زيد، وعبد الله بن مسعود» رواه أحمد وأبو داود والترمذي[(١)]. والله عَزَّوَجَلَّ نعت أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بأنَّه الأتقىٰ من الأمَّة كلِّها، وأنَّ نفقته في سبيل الله مقبولةٌ، وأنَّ هذا من جملة ما تزكَّىٰ به وصار من أتقىٰ خلق الله بعد النبيِّ ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ [الليل: ١٧] أي النار ﴿ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٧-٢١]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ في تفسيره: «أجمع المفسِّرون علىٰ أنها في أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ».

وأبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أعظم الناس تحقيقًا لأركان الإسلام، واجتمعت فيه خصال الخير كلِّها التي توجب له أن يدخل من أبواب الجنَّة كلِّها، فقال ﷺ: «**من أصبح منكم اليوم صائمًا؟ من أطعم منكم اليوم مسكينًا؟ من عاد منكم مريضًا؟ من تبع منكم جنازةً؟**» فقال أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في كل هذا: أنا يا رسول الله، فقال ﷺ: «**ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة**»، فأبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ممَّن أقام شعب الإيمان كلِّها، وكان في أعلىٰ درجات السَّبق والتحقيق لها، حتىٰ تصدَّق عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بنصف ماله، وقال: ظننتُ أني اليوم سأسبق أبا بكر، فإذا أبو بكر قد سبقه وتصدَّق بماله كلِّه، فلم يسبقه أحد في فضيلة أو سابقة، بل سبق الناس كلَّهم حتىٰ في الإسلام والإيمان بنبينا محمد ﷺ، فهو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أول من آمن به من الرجال.

ثم هؤلاء الرافضة يزعمون أنهم ينتسبون لآل البيت، وكان الواجب عليهم أيضًا أخذ معاني القرآن من آل البيت بالأسانيد الصَّحيحة، وعليُّ بن أبي طالب

(١) **قال الحافظ ابن عبد البر** رَحِمَهُٱللَّهُ: «إسناد حسن جيد»، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ص٤٨٤)، ط ـ دار المعرفة، ط ـ الثانية.

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من سادات آل البيت، ولم يكن يقول: إن يدا أبي لهب هما أبو بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، بل تواتر عنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من رواية ست وثمانين راوٍ أنه قال وهو علىٰ منبر الكوفة: «خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر ثمَّ عمر»، وأيضًا قال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لابنه محمَّد ابن الحنفيَّة - فأخواله من بني حنيفة - لمَّا سأله: من خير الناس بعد النبيِّ ﷺ، فقال: «أبو بكر، ثم عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا»، رواه البخاري، هذه هي عقيدة آل البيت في الصَّحابة وفي خيارهم وأفضلهم، وكذلك قال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «حدَّثني أناسٌ مرضيُّون، **وأرضاهم عندي عمر بن الخطَّاب** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ نهىٰ عن الصلاة بعد الفجر حتىٰ تطلع الشمس، ونهىٰ عن الصلاة بعد العصر حتىٰ تغرب الشمس» رواه البخاري ومسلم، فهذه هي عقيدة سادات آل البيت عليِّ بن أبي طالب وعبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في أبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فالرافضة ليسوا علىٰ مذهب آل البيت، فعقيدة عليِّ بن أبي طالب والعبَّاس وعبد الله بن العباس والحسن والحسين؛ هي عقيدة الصحابة وعقيدة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت وسائر الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؛ لأنَّ المشكاة واحدة؛ فقد تلقوا الدين عن النبي ﷺ، وكان سادات آل البيت يأخذون العلم من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ومن الصحابة أيضًا من أخذ العلم عن عليِّ بن أبي طالب وابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

ولا شكَّ أنَّ من كفَّر الشيخين أبا بكر وعمر والصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فهو الكافر؛ فهؤلاء زكَّاهم الله في القرآن ورضي عنهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]،

ومن لم يؤمن بهذا فهو كافر؛ لأنه مكذِّب بالقرآن، فكلُّ الفضائل التي في الصحابة في القرآن يدخل فيها دخولًا أوليًّا أبو بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ لأن هذه الفضائل في سبقهم في الإسلام ونصرته، وصحبتهم للنبيِّ ﷺ، وفي وجوه الخيرات التي سبقوا إليها، وأعظم الناس تحقيقًا لهذه الفضائل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فتحريف ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] إلىٰ أبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا غاية في الضلال.

وقال الرافضة في قوله تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ قالوا: يعني بين أبي بكر وعمر وعلي في الخلافة، وهذا من أعظم الضَّلال والتحريف والتلاعب بمعاني القرآن، فالشِّرك الذي يُحبط الأعمال هو الشِّرك بالله في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته.

والنبيُّ ﷺ - وهو أعظم الخلق تحقيقًا للتوحيد ومجانبة للشرك - عيَّن الخلافة في أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقال: «**يأبىٰ الله ورسوله والمؤمنون إلَّا أبا بكر**»، وقال: «**ليصلِّ بالناس أبو بكر**»، فقال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - وهذا من فقهه وفهمه لمعنىٰ النصِّ -: رضيه رسول الله ﷺ لديننا فكيف لا نرضاه لدنيانا؟! وأمَّر النبي ﷺ أبا بكر علىٰ عليٍّ في حجَّة السنة التاسعة، قبل أن يحجَّ النبيُّ ﷺ بعام.

ودلالة ألفاظ الآية وسياقها ومنطوقها لا يدلُّ علىٰ هذا الذي ذهب إليه الرافضة؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٦]؛

فهذا ممَّا اتفقت عليه الشرائع كلُّها وبُعث به الرسل جميعًا؛ وهو تحقيق التوحيد والنهي عن الشرك، والذي يحبطُ العملَ هو الشِّرك؛ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ولذلك أمر الله في تمام الآية بتحقيق التوحيد فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ [الزمر: ٦٦]، حقَّق التوحيد ولا تشرك بالله شيئًا.

وقالت الرافضة أيضًا في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]؛ قالوا: هي عائشة، وهذا سفهٌ وتحريف للقرآن، فهذه الآية سياقها في قوم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: ٦٧، ٦٨]، ثم قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩]، ثم قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]، فهذه الآيات في بني إسرائيل، وبين موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومحمَّد ﷺ قرون كثيرة.

فقول الرافضة هذا كذبٌ وتحريفٌ للقرآن، فبلغ بهم الإسراف والانحطاط إلىٰ هذه الدرجة في تحريف معاني القرآن؛ لذلك يقول العلَّامة محمَّد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا ليس بتأويلٍ، بل هذا لعب بالقرآن. وهذه التحريفات الرافضية لمعاني القرآن تدلُّ علىٰ أنه ليس للقرآن حرمةٌ في قلوبهم، وليس عندهم تعظيم لكلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فالذي يحرِّف كلام الله عَزَّ وَجَلَّ هذا لم يؤمن به، وإنما اتخذه هزوًا.

وقالت الرافضة في قوله تعالىٰ: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢]؛ طلحة

والزبير، فلا حول ولا قوَّة إلا بالله! هذه الآيات سياقُها كلُّها في الكفَّار، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٦-٩]، والرافضة هم أيضًا ممن ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا في وعظ هؤلاء الكافرين والمشركين وأن لهم سبيلًا إلىٰ التوبة وإلىٰ الإسلام: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾ [التوبة: ١١].

فسياق الآيات كلِّها في أئمَّة الكفر المشركين، فكيف يجعلها الرافضة في طلحة والزبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؟! هذا لا يجوز، وعليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعد الاقتتال مع طلحة والزبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في معركة الجمل، قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إنصافًا وعدلًا وديانةً وتقوىٰ وإيمانًا وتصديقًا لحديث رسول الله ﷺ الذي شهد فيه لطلحة والزبير بأعيانهما أنَّهما في الجنَّة: «إنِّي لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير في الجنَّة، وممَّن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]».

فمهما كانت الخصومة بينك وبين خصمك فقد أمرك الله عَزَّوَجَلَّ بالإنصاف في الأحكام فضلًا عن المعاملة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن

صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢]، فانظر ماذا صنع المشركون بالنبيِّ ﷺ والصحابة! أخرجوهم من ديارهم، وأخذوا أموالهم وآذوهم وعذَّبوهم وأكرهوهم علىٰ الكفر، ثمَّ بعد ذلك عندما جاء النبيُّ ﷺ والصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلىٰ مكَّة معتمرين صدُّوهم عن المسجد الحرام، ثم جاء الصحابة في فتح مكة مجاهدين في سبيل الله لإدخال مكة في الإسلام، فنهاهم الله عَزَّ وَجَلَّ عن مجاوزة الحد في معاملة هؤلاء الذين حصل منهم كل ذلك الأذىٰ والظلم والعدوان، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

فقد قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **مقالته**: أولًا: إنصافًا لطلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنه يعلم أن النبي ﷺ شهد لهما بأعيانهما أنهما من أهل الجنَّة، وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معهما، ففي غزوة أحد قال النبي ﷺ: «**أوجب طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**»؛ أي: في دفاعه عن الإسلام وعن النبي ﷺ، فوجبت له الجنة بجهاده، ثم إنَّ الله قضىٰ كونًا ما جرىٰ بينه وبين طلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لحكمة عظيمة؛ ليعلم الناس جميعًا كيف يتعاملون في قتال أهل القبلة، فكان من إنصافه أن ذكر منزلة المؤمنين ولو وقع بينهم اقتتال، ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ﴾ [الحجرات: ٩].

وذكر منزلة هؤلاء الصَّحابة - أيضًا - حتىٰ لا يجور أحد في الحكم عليهم بسبب الاقتتال الذي وقع بينهم؛ لأن بعض الناس قد لا يفقه النصوص ويكفِّر بالقتال، لأن النبي ﷺ قال: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»، لكنَّه كفر لا يُخرج من الملَّة؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟

بَيْنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: ٩]، فأثبت لهم الإيمان مع وجود الاقتتال، وكان - أيضًا - من السنَّة التي بيَّنها عليُّ بن أبي طالبٍ في الاقتتال بين المسملين من أهل القبلة أنه لا يُجهَز علىٰ جريحهم ولا يُتبع مدبرهم.

وأما قول الرافضة: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٩]؛ علي وفاطمة، و﴿ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]؛ الحسن والحسين؛ هذا كذبٌ وتحريفٌ للقرآن، فقوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، المراد بالبحرين: البحار المالحة والمحيطات والخلجان، والأنهار العذبة؛ هذه سمِّيت مع البحار بالبحرين تغليبًا؛ كما يقال للشمس والقمر: القمران، ولأبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: العُمَران، و﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أجرىٰ الأنهار في الأرض وجعل للمحيطات والبحار مسلكها ومكانها، ويحجز بين مياه الأنهار العذبة ومياة البحار المالحة يبس الأرض، فلا تفيض المحيطات والخلجان علىٰ يابسة الأرض فتهلك الناس بطوفانها، ولا تفيض علىٰ الأنهار في يابس الأرض فتذهب عذوبتها وفائدتها في الشرب وفي الزراعة، والحكمة والفائدة من مياه المحيطات والبحار المالحة التي خلقها الله عَزَّوَجَلَّ لها: حتىٰ لا ينتن الجو ولا تفسد الأرض، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾ [الفرقان: ٥٣]، فيبس الأرض يحجز ماء المحيط إلىٰ حيث منتهاه حيث أذن الله عَزَّوَجَلَّ له، فلا يفسد مياه الأنهار بملوحته، فلا يتجاوز هذا الحدَّ.

فقوله: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ يعني: أرسلهما في سبيلهما ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ الأنهار ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ البحار ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾. لكن إذا

أذن الله عَزَّوَجَلَّ في فيضان المحيطات والبحار لحكمةٍ أو عقوبةٍ أو تذكير أو غير ذلك، كما حصل في طوفان قوم نوح، أو ما حصل في هذه الأيَّام التي وقع فيها فيضان تسونامي، ولا يزال يقع مثل هذا، لكن عامَّة مياة المحيطات قد حجزها الله عَزَّوَجَلَّ عن أن تفيض علىٰ مياة الأنهار وتفسدها، وهذا كلُّه من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ وسنَّته الكونية في خلق السموات والأرض والأنهار والبحار.

أما اللؤلؤ والمرجان فيخرجان من مياه البحار والمحيطات ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ [الرحمن: ٢٢]؛ يعني: من أحدهما؛ وهو مياه المحيطات والبحار، وليس اللؤلؤ والمرجان هما الحسن والحسين، فالحسن والحسين هما ذرية علي وفاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وحفيدا النبي ﷺ، ورَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ولم يخرجا من مياه البحار، بل هما بشر خلقهما الله من ذرية عليٍّ وفاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]؛ قال الرافضة: في علي بن أبي طالب. وهذا كذبٌ، وما أحصاه الله عَزَّوَجَلَّ في اللوح المحفوظ، هو أعمال العباد محصاة عليهم في صحائف أعمالهم، وتوزن يوم القيامة، وليس المراد بالإمام المبين عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وإنَّما ذكر ذلك الرافضة ليقولوا: إنَّ علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يعلم الغيب، وحاشاه أن يدعي ذلك، وإنما هذا من غلوِّ الرافضة فيه.

ومن أعظم من دسَّ هذا الغلوَّ في عقيدة الرافضة - وهو ليس من عقيدة آل البيت - اليهودي عبد الله بن سبأ؛ لأنَّه زعم في عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

الألوهية وأنه ربُّ العالمين، وطلبه عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ليقتله فهرب منه، وحرَّق عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من اعتقد ذلك فيه من الغالية منهم في العراق، وهم من كان علىٰ عقيدة عبد الله بن سبأ، فقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهو من سادات آل البيت: «**لو كنت مكان عليٍّ ما حرقتهم بالنار**»، يعني: كنت قتلتهم لردَّتهم بغير التحريق بالنار؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لا يعذِّب بالنار إلا ربُّ النار**»، وهذا يدلُّ علىٰ كراهية آل البيت - خاصة ساداتهم وعلماءهم، وأفضلهم بعد النبي ﷺ علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا - لغلوِّ الرافضة فيهم، وهذه ليست عقيدة آل البيت، وإلا فكيف تكون هذه هي عقيدة آل البيت ويقتل علي بن طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من يعتقد هذا الاعتقاد؟! بل قتلهم ردةً؛ لردتهم وكفرهم.

والغيب لا يعلمه إلَّا الله، لا ملك مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل، قال تعالىٰ: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ**﴾ [النمل: ٦٥].

أتىٰ جبريل إلىٰ النبيِّ ﷺ وسأله عن الساعة، فأجابه بقوله: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**»، فقال جبريل: «**صدقت**»، فلا جبريل الذي هو الرسول الملكي، ولا محمد ﷺ الذي هو الرسول البشري يعلم متىٰ الساعة، ولا أحد منهما يعلم الغيب، فكيف ندعي ذلك في عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بل قال ﷺ كما أمره الله أن يقول: ﴿**قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ**﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وذكر في فرق ما بينه وبين سائر البشر أنَّه هو الوحيَ الذي يوحيه الله إليه: ﴿**قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ**﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال الرافضة في قوله تعالىٰ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ: ١، ٢]؛ النَّبأ العظيم هو عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهذا كلُّه كذبٌ، ففي هذه الآية تساؤل الكفار عن يوم القيامة ويوم الحساب والمعاد، وكل السورة من أولها إلىٰ آخرها في بيان يوم المعاد وأحوال الخلق في هذه الدنيا، وبيان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ التي خلق بها الخلق والسموات والأرضين وما فيهما، وقدرته علىٰ المعاد، قال تعالىٰ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ [النبأ: ١-١٨]، كل هذا في يوم القيامة وبيان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ إعادة الخلق للبعث والحساب والجزاء.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝٥٥﴾ [المائدة: ٥٥]؛ قال الرافضة: هو عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي انفرد بأداء الزَّكاة وهو راكع في صلاته، وحاشاه، والخبر المروي في ذلك موضوع بالاتِّفاق؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة، ثم ليس معنىٰ الآية أداء الزكاة حال الركوع، فالمسلم صفته وهيئته في الصلاة في الركوع أن يضع كفيه علىٰ ركبتيه، ويركع لله خضوعًا له، ولا يلتفت ولا يشتغل ببذل الزكاة في الصلاة، وبذل الزكاة حال الركوع لم يفعله النبيُّ ﷺ ولا أمر به أصحابه، ولا فعله أحد منهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وحاشا عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يفعل ذلك، فالصلاة خشوع، وتؤدىٰ علىٰ صفاتها وهيئاتها، وإنَّما

المراد بالركوع في قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] المعنىٰ اللغوي؛ يعني: يؤتون الزكاة وهم خاضعون لله، متألهون له، يتعبدون لله بأداء الزكاة، فكذب الرافضة وقالوا: تصدق عليٌّ بخاتمه في الصلاة!

وقوله ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، صيغة جمع، لا يفيد الحصر في شخص واحد، وحقيقة هذا التفسير بهذا التحريف من الرافضة هو ذمٌّ لعليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فحاشاه أن يشتغل بغير الصلاة وهو يصلي.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]؛ قالوا: نزلت في علي لما أُصيب بحمزة، ولا يجوز لأحد أن يجعل النصَّ العامَّ خاصًّا في شخص واحد، خاصة إذا كان هذا النص العام في فضائل لموصوفين، فهي تعمُّ كل من تحقق فيه تلك الصفات، فحصرها في شخص واحد يُفرِّغُ مقصود القرآن ومعانيه من الحثِّ علىٰ الفضائل والصفات المحمودة التي حثَّ الله عليها وأمر بتحقيقها لما يترتب عليها من الثواب الذي ذكره الله عَزَّوَجَلَّ، ولما يحصل بتحقيقها من الإيمان وتزكية الأفراد والمجتمعات، والآية يقول فيها الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، فهذه لكل من أصيب في مصاب، ومنها إصابة عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في حمزة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكذلك النبي ﷺ أصيب في حمزة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فإنّه ابن عمه، وليس علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقط هو الذي أصيب في حمزة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولفظ الآية عام لكل من أصيب من الصحابة في

قرابتهم الذين قُتلوا بأيدي الكفار والمشركين، سواء قبل الهجرة أو بعد الهجرة، وهو مصاب لكل المؤمنين؛ لأن المؤمنين إخوة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وهي لا تنحصر فقط في طبقة الصحابة، بل هي عامَّة لكل المسلمين إلىٰ يوم القيامة، فكل من تحققت فيه هذه الصفات فهو ممن أدرك فضل عموم هذه الأوصاف التي أمر الله بتحقيقها وحثَّ علىٰ الاتصاف بها.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]؛ هذه الآية لا تختصُّ بالنبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وهم أول من يدخل في معاني هذه الآية دخولًا أوليًّا لا ريب في ذلك، لكن فضائل هذه الآية عامَّة لكلِّ من تحقَّقت فيهم هذه الصفات، وهذه الصفات كلها لموصوف واحد متحقق فيه كل هذه الصفات؛ أنّهم من الصابرين الصادقين القانتين المنفقين المستغفرين بالأسحار؛ لذلك قال شيخ الإسلام بعد ذلك: المقصود أنها كلها صفات لموصوف واحد، فلا يجوز أن تجزئها فتقول: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: رَسُولُ اللهِ ﷺ، ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾: أَبُو بَكْرٍ، ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾: عُمَرُ، ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾: عُثْمَانُ، ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾: عَلِيٌّ، بل هذه كلها صفات في رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وصالح المؤمنين.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩]، فـ(الذين) اسم موصول للعاقل يفيد العموم، فالمقصود: الذين معه من الصحابة جميعًا ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فلا يصح حصر ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، في عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كلهم هكذا، فقد جاهدوا الكفار وعاملوهم

بما يستحقونه، ووالوا المؤمنين وعادوا الكافرين، وكلهم أيضًا ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]؛ فهذا من صفاتهم جميعًا، ولذلك نُعتوا بهذا في التوراة والإنجيل.

قال شيخ الإسلام: «وَأَعْجَبُ مِنْ ذلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: ﴿وَٱلتِّينِ﴾ أَبُو بَكْرٍ، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ عُمَرُ، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ عُثْمَانُ، ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ عَلِيٌّ»؛ فهذا تحريف للقرآن، والمنقول عن الصحابة والتابعين الذين أخذوا التفسير عن الصحابة - كما قال مجاهد -: (**التِّينُ**) تينكم، و(**الزَّيْتُونُ**) هذا الزيت الذي تعصرونه من الزيتون، و(**طُورِ سِينِينَ**) هو الجبل الذي كلَّم الله عَزَّوَجَلَّ موسىٰ عليه، ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾: مكة، فأقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالأرض المقدَّسة المباركة في فلسطين؛ لأنَّ أكثر الرسل بُعثوا فيها، وأقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالبلد الحرام مكَّة المكرَّمة لأنها أفضل أرض الله، ولأن فيها بُعث خاتم النبيين ﷺ، ولأنها أم القرىٰ حيث أُمر الناس بأن يأتموا بها فيتخذوها قبلة في صلاتهم، وتوجههم لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في عبوديته وفي الائتمام بالوحي الذي أوحي إلىٰ النبي ﷺ بمكة، وأيضًا بما أوحي إليه في المدينة.

ثم قال شيخ الإسلام: «وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ تَارَةً تَفْسِيرَ اللَّفْظِ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِحَالٍ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ لَا تَدُلُّ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ»؛ أي أن هذا تحريف.

ومن تعطيل الأدلة عن معانيها العامة بقصرها حصريًّا في أعيان محدودة: «قَوْلِ بَعْضِهِمْ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣]؛ أُرِيدَ بِهَا أَبُو بَكْرٍ وَحْدَهُ»؛ وهذا خطأٌ؛ فإنَّ كل من جاء بالصِّدْق وصدَّق به فهو متحقِّق فيه معنىٰ

الآية؛ لذلك قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وهو الذي أخذ التفسير عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا -: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾؛ قال: «يأتي المؤمن يوم القيامة ويقول: هذا القرآن الذي جاءنا به رسول الله ﷺ، فآمنّا به وعبدنا الله بما أمرنا فيه، فنرجو ثوابه»، رواه البخاري، فكل من صدَّق بهذا القرآن وأقامه هو ممَّن حقَّق هذا المعنىٰ الذي دلَّ عليه لفظ الآية، فلا تختص الآية بأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وحده.

وَكذلك قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿لَا يَسۡتَوِى مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ لا تختصُّ بأَبي بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وَحْدَهُ، وإنما هي عامَّة في كلِّ الصحابة الذين أسلموا قبل صلح الحديبية، فهؤلاء أعظم درجةً عند الله عَزَّوَجَلَّ ممَّن أسلم بعدهم، والآية أثبتت الفضل أيضًا لمن أسلم بعد صلح الحديبية، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسۡتَوِى مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحديد: ١٠]، فنحن نترضىٰ عن الصحابة جميعًا، سواء منهم من أسلم قبل فتح مكة ومن أسلم بعد فتح مكة، ولا نتخذ من ذلك ذريعة لسبٍّ من أسلم بعد فتح مكة أو تنقصهم، وممن أسلم بعد الحديبية العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عم النبي ﷺ.

فالمقصود أنّ من أعظم الخطأ في التَّفسير والإبطال لمعانيه تعطيل ألفاظه ومعانيه العامة بقصرها علىٰ أعيان مخصوصة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّ حمل القرآن علىٰ الخصوص تعطيل لدلالتها، وإخراج لها عمَّا قُصد بها، وهضم لمعناها، وإزالة لفائدتها».

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٦٩٧).

والقرآن خطاب الله لخلقه كافة، وهو ﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فلا يصحّ أن نأتي إلىٰ الأوصاف التي حثّنا الله عليها في القرآن وذكر ما فيها من تحقيق العبوديَّة له وما تكون سببًا في زكاء المجتمعات والأفراد فنقول هي في أعيان محصورة قد خلت من قبلنا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ خطاب الله عَزَّوَجَلَّ في كل ما أمر به ونهىٰ عنه، وحمد أو ذم عليه، ووعد عليه بثوابه وعقابه، خرج في ذلك كلّه مخرجًا عامًّا كليًّا، بحسب ما يقتضيه جلالة الرُّبوبيَّة، ومرتبة الملك والسُّلطان العام لجميع الخلق».



(١) الصَّواعق المرسلة (٢/ ٧١٠).

قال المصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

[وَتَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةَ وَأَمْثَالِهِ أَتْبَعُ لِلسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَأَسْلَمُ مِنَ الْبِدْعَةِ مِنْ تَفْسِيرِ الزَّمَخْشَرِيِّ، وَلَوْ ذَكَرَ كَلَامَ السَّلَفِ الْمَوْجُودَ فِي التَّفَاسِيرِ الْمَأْثُورَةِ عَنْهُمْ عَلَىٰ وَجْهِهِ؛ لَكَانَ أَحْسَنَ وَأَجْمَلَ.

فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَنْقُلُ مِنْ تَفْسِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ، وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ التَّفَاسِيرِ وَأَعْظَمِهَا قَدْرًا، ثُمَّ إِنَّهُ يَدَعُ مَا نَقَلَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ السَّلَفِ لَا يَحْكِيهِ بِحَالٍ، وَيَذْكُرُ مَا يَزْعُمُ أَنَّهُ قَوْلُ الْمُحَقِّقِينَ، وَإِنَّمَا يَعْنِي بِهِمْ طَائِفَةً مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ الَّذِينَ قَرَّرُوا أُصُولَهُمْ بِطُرُقٍ مِنْ جِنْسِ مَا قَرَّرَتْ بِهِ الْمُعْتَزِلَةُ أُصُولَهُمْ، وَإِنْ كَانُوا أَقْرَبَ إِلَىٰ السُّنَّةِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ.

لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْطَىٰ كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَيُعْرَفَ أَنَّ هَذَا مِنْ جُمْلَةِ التَّفْسِيرِ عَلَىٰ الْمَذْهَبِ؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةَ إِذَا كَانَ لَهُمْ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ قَوْلٌ، وَجَاءَ قَوْمٌ فَسَّرُوا الْآيَةَ بِقَوْلٍ آخَرَ لِأَجْلِ مَذْهَبٍ اعْتَقَدُوهُ، وَذَلِكَ الْمَذْهَبُ لَيْسَ مِنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ؛ صَارُوا مُشَارِكِينَ لِلْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ فِي مِثْلِ هَذَا].

الشَّرح:

لا يزال كلام شيخ الإسلام في تقييم كتب التَّفسير، وقد أثنىٰ علىٰ تفسير الطَّبري، وقال عنه: «من أجلِّ التَّفاسير وأعظمها قدرًا».

وحذَّر شيخ الإسلام من تفاسير المبتدعة، فبعد أن تكلَّم شيخ الإسلام عن

تفاسير المبتدعة من الطَّوائف المبتدعة البدع المغلظة، وتكلَّم فيما في تفاسير المعتزلة من الضلال، ثم ما في تفاسير وعقائد الرافضة من الضلال، عرّج بالكلام عن أشهر تفاسير الأشاعرة، وهو تفسير ابن عطية «المحرر الوجيز»، وقال: أن مؤلِّفه برزخ بين المعتزلة وأهل السنَّة؛ فالأشاعرة برزخ بين المعتزلة وأهل السنة؛ فليسوا من أهل السنة، فهم مفارقون لأهل السنة، وأما ما وقع منهم من موافقة أهل السنَّة في موالاة الصحابة، فبعض أهل العلم من هذه الجهة يُسمّي كل من كان موافقًا لأهل السنة في موالاة الصحابة بـ«أهل السنَّة» في مقابل الرافضة، لكن بالمعنىٰ الصحيح أهل السنة والجماعة هم الذين اجتمعوا علىٰ العمل بسنَّة رسول الله ﷺ واعتقاد النبي ﷺ والصحابة والتابعين لهم بإحسان من القرون المفضلة، فلا شكَّ أن الأشاعرة من هذه الجهة ليسوا من أهل السنة والجماعة، وهم مفارقون لأهل السنة والجماعة في كل أو أكثر مسائل العقيدة؛ في القَدَر، والإيمان، والأسماء والصفات، وفي أمور عظيمة كثيرة ذكرنا شيئًا منها أو أكثرها في «شرح اعتقاد أئمَّة الحديث»، وهو متن ذكر فيه أبو بكر الإسماعيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أجمع فيه الصحابة والتابعون عليه من العقيدة، وأنا في كل فقرة من هذه العقيدة ذكرت النقول عن العلماء في ذكر الإجماع في كلِّ مسألة من المعتقد، وحرصت جدًّا علىٰ بيان ما فارقت فيه الأشاعرة إجماع أهل السنَّة في كلِّ مسألة من ذلك.

فالأشاعرة من فروع المعتزلة، وهم برزخ بين أهل السنَّة والمعتزلة، وليسوا من أهل السنة، لكن «تفسير ابن عطية» هو من أمثل تفاسير الأشاعرة؛ فله عناية بالنقل عن «تفسير الطبري»، لكنه - مع الأسف، كما قال شيخ الإسلام - لم ينقل

عن الطبري ما ذكره من عقيدة السلف من الصحابة والتابعين، وسلك هذا المنهج أيضًا مكيٌّ بن أبي طالب، وهو من علماء القرآن والقراءات والنحو وإعراب القرآن والأحكام، فإنَّه في تفسيره «النهاية في بلوغ الهداية»، سلك مسلك ابن عطية؛ فينقل عن الطبري في أشياء كثيرة، لكن في الاعتقاد لا ينقل عنه، سبحان الله! والعقيدة والأحكام سواء في وجوب تلقيهما عن السلف، فليتهم نقلوا العقيدة واستفادوها من تفسير الطبري كما نقلوا عنه في الأحكام وفي اللغة وفي غيرها.

وشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقييمه لابن عطيَّة الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنصفه من جهة أنَّه أخفُّ بدعة من الزَّمخشري وأمثاله من مبتدعة المعتزلة، وانتقده من جهة عدم نقله اعتقاد السلف من «تفسير الطَّبري» مع أنَّه عوَّل عليه كثيرًا.

وعاب عليه أيضًا ترجيح أقوال المتكلِّمين، وزعمه أنَّها قول المحقِّقين، وهذا أشدُّ خطرًا حيث يطلب من يقرأ تفسير ابن عطية السَّلامةَ من ضلال المعتزلة فيقع في ضلالٍ آخر أشعريٍّ روَّج له ابن عطيَّة بأنَّه التحقيق، ولا تحقيق في مخالفة السَّابقين الأوَّلين، بل هو بدعة وضلالة.

فالمقصود من كلام شيخ الإسلام: أنَّ ابن عطيَّة خالف المعتزلة في مسائل، كما أنَّه خالف أهل السنَّة كذلك.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الأشعري وأمثاله برزخ بين السلف والجهميَّة».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٤٧١).

فنحن من باب الإنصاف عندما نتكلَّم في كتب التفسير ومناهج المفسِّرين نذكر هذا، لكن نحذر من المفارقة التي لهؤلاء عن مذهب أهل السنَّة والجماعة، ولذلك حذَّر شيخ الإسلام من ابن عطية فقال: أنه صار يقرر ما قررته طائفة من أهل الكلام، ويقرر أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم؛ ولذلك صحَّ كلام السلف أن الأشاعرة من فروع المعتزلة؛ ولذلك لا ننصح طالب العلم بقراءة تفسير ابن عطية إن لم يكن عالمًا سلفيًّا حتىٰ لا يروج عليه بدع المتكلِّمين التي يذكرها ابن عطية علىٰ أنَّها أقوال المحقِّقين، لكننا عندما نقيِّم التفاسير ونذكر أنواع التفاسير الضالَّة ضلالًا بعيدًا كالرافضة والمعتزلة، ثمَّ نأتي للأشاعرة كابن عطيَّة نُنصفه، فمخالفته عظيمة لأهل السنة والجماعة، ولكنه أخفُّ ضلالًا من الرافضة والمعتزلة.

ولا يقال: أن مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية هو الموازنات في الردود، لا، بل هو منصف في الحكم علىٰ المبتدعين بحسب بدعهم، فيذكر ما لهم وما عليهم، لكن في باب الردود لا يلزم هذا، يقول شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: في باب الردود لا يلزم ذكر حسنات المردود عليه؛ بل هذا يضعف الردَّ.

وشيخ الإسلام ابن تيمية نفسه في «الردِّ علىٰ الإخنائي» في ضلاله في بدع وشرك القبور، الكتاب كله ردٌّ عليه، لم يذكر فقط عنه إلا أنه قاضي المالكية.

وخطر كتب الأشاعرة أعظم علىٰ المسلمين من جهة ترويجهم لعقائدهم المبتدعة الضالَّة بزعمهم أنَّها عقيدة أهل السنَّة والجماعة.

فطالب العلم يحرص علىٰ التفاسير النقيَّة، ويجتنب التفاسير الضالة، ولا يقرب أبدًا تفاسير الرافضة والمعتزلة، ولو احتاج إلىٰ الاستفادة من بعض الكتب التي وقع فيها مخالفة لأهل السنَّة في الأسماء والصفات، أو في مسائل الإيمان، أو بعض مسائل القدر وغيرها؛ فإنه يحترز من مخالفتهم لاعتقاد القرون الأولىٰ، ويستفيد من بقيَّة كلامهم النافع، كتفسير أبي عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، فإنَّه تفسير مفيد جدًّا في فقه الأحكام، لكن الأمور التي وقع منه فيها تأويل لمعاني الأسماء والصفات لا يوافَق عليها، فنرجع فيها إلىٰ القرون الأولىٰ «**خير الناس قرني**».

وأذكر أن أول درس حضرته لشيخنا العلامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ في المناقشة سأل أحد الطلاب الشيخ، فقال: يا شيخ، الأشاعرة يقولون: أن ابن حجر والنوويَّ أشاعرة. فالشيخ أثنىٰ علىٰ ابن حجر والنوويَّ بما في كتبهم من العلوم النافعة، ثمَّ قال: وما أخطؤوا فيه يردُّ عليهم، وما أصابوا فيه نستفيده من كتبهم، قال: وهؤلاء لو وُزنوا بأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما وزنوه، فضلًا عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فضلًا عن بقية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بل قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو وزن إيمان أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإيمان الأمة لرجح إيمان أبي بكر.

فالمنهج في تلقي العلم يكون بتلقيه عن المعدن الأوَّل، وهم الصحابة الذين تلقوا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن لم يأخذ دينه عن المعدن الأول فهو متوعَّد بالوعيد الشديد الذي قال عَزَّ وَجَلَّ فيه: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ**﴾ يعني الصحابة ﴿**نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ**﴾ [النساء: ١١٥]، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدما ذكر ما سيقع من الخلاف أمر بردِّ الأمور إلىٰ سنَّته، وأمر بلزوم

جماعة الصحابة؛ فقال في أوصاف المحقِّين من الفرقة الناجية: «**ما أنا عليه وأصحابي**»، فهذه مرجعيَّة علميَّة، والنووي رَحِمَهُٱللَّهُ في آخر أمره رجع عن كثير من أقواله في التأويل، وهذا في مصنَّف طُبع حديثًا لأحد تلاميذه يذكر عنه جملة من الأمور التي رجع عنها في الاعتقاد، وكذا ابن حجر لا يقال فيه: أنَّه وافق الأشاعرة في كلِّ شيء، فأحيانًا إذا سلك مسلك السلفية في نقل العقيدة عن أئمَّة السنَّة بالأسانيد يُتقن ويجوِّد الكلام في ذلك، فقد نقل عن «كتاب السنَّة» للطبراني، عن عبد الله بن الإمام أحمد، عن الإمام أحمد في أحاديث الصفات، ولو قرأ الناس كلُّهم «السنَّة» لعبد الله بن الإمام أحمد، وأخذوا بما فيه من المنهج في تلقي العقيدة مسندةً عن الصحابة والتابعين، وكذلك بما في سائر الكتب المسندة في العقيدة كـ«الشريعة» للآجري، و«الإبانة» لابن بطَّة، و«الحجَّة في بيان المحجَّة» لأبي القاسم الأصبهاني، وغيرها من الكتب النافعة في العقيدة المسندة؛ لاطمأنوا إلىٰ صحَّة اعتقادهم، بموافقة عقيدة السابقين الأولين، ولسلموا من البدع والضلال.

فكتب المعتزلة والرافضة والأشاعرة لا تقربها، ولا يقرأ هذه الكتب إلا عالم، يُميِّز ما فيها من الحقِّ والباطل.

❁ ❁ ❁

قال المصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ :

> **[وَفِي الْجُمْلَةِ: مَنْ عَدَلَ عَنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفْسِيرِهِمْ إِلَىٰ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ؛ كَانَ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ، بَلْ مُبْتَدِعًا، وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مَغْفُورًا لَهُ خَطَؤُهُ].**

الشَّـرْح :

بعد أن نقد شيخ الإسلام كتب التفاسير المبتدعة أراد أن يؤصِّل لقاعدة عظيمة في تلقي العلم عمومًا وعلم التفسير خصوصًا؛ وهي أن تتلقاه عن الصحابة والتابعين؛ لأن من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين ضلَّ.

وبيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ مخالف الصَّحابة: «مخطئ مبتدع»، فالأخذ بعلوم الصَّحابة واعتقادهم ودينهم فرقان علىٰ الحقِّ، وهذا المعيار الذي جعله النبيُّ ﷺ ميزانًا في معرفة الحقِّ من الباطل، والهدىٰ من الضلالة، والسُّنَّة من البدعة؛ فإنَّ النبي ﷺ قال: «**ستفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النَّار، إلَّا ما أنا عليه وأصحابي**»[1].

وهذا يوجب للنَّاصح لنفسه، الرَّاغب في النَّجاة من النَّار؛ طلب علم سنَّة النبيِّ ﷺ بفهم الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، الذين أخذوا معاني القرآن وأحكام الشَّريعة وفقه العبادات من رسول الله ﷺ.

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحديث صحيح مشهور في السنن والمسانِد»، مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٤٥).

فمن الفرض اللازم والإحسان الواجب اتِّباع الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فيما تلقَّوه من الدِّين عن رسول ربِّ العالمين، خصوصًا معاني القرآن وتفسيره، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال العلَّامة أبو زكريا يحيىٰ بن إبراهيم السلماسي رَحِمَهُٱللَّهُ (ت: ٥٥٠هـ)[١]: «علامة المتَّبعين أن يعرفوا علم التَّفسير وعلم الحديث وعلم التَّفقُّه عليهما، وعلم الوعد والوعيد للتقوىٰ والورع، وعلم السِّير والمبتدأ للاعتبار».

فالصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال النبيُّ ﷺ: «**خير الناس قرني**»، متَّفق عليه، وقد أمرهم النبيُّ ﷺ بتبليغ الدِّين عنه، وقد فعلوا.

فمن عدل عن تلقِّي الدِّين عن الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، أو خالفهم فيما تلقّوه من الدِّين عن النبيِّ ﷺ؛ فهو مبتدع مخطئ.

قال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «مَنْ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ فِي الدِّينِ، أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ، لَيْسَ لَهُ فِيهِ إِمَامٌ مُتَقَدِّمٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَصْحَابِهِ؛ فَقَدْ أَحْدَثَ فِي الْإِسْلَامِ حَدَثًا، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَىٰ مُحَدِثًا فِي الْإِسْلَامِ؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا**»».

---

(١) منازل الأئمَّة الأربعة (ص٨٦).

(٢) سير السَّلف الصَّالحين (٣/ ١١٧).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ تأويل من تأوَّل القرآن بلا سنة تدلُّ علىٰ معناها أو معنىٰ ما أراد الله عَزَّوَجَلَّ، أو أثر عن أصحاب الرَّسول ﷺ؛ فهذا تأويل أهل البدع».

وقال البخاريُّ مبيِّنًا منهج أهل السنَّة في تلقِّي الدِّين[(٢)]: «لَمْ يُذْكَرْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ خِلافُ مَا وَصَفْنَا، وَهُمُ الَّذِينَ أَدَّوُا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة: ١٤٣]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**»».

وأما كلام شيخ الإسلام في إثم المخطئ المخالف لمذاهب الصَّحابة والتَّابعين في التَّفسير، فمن خالَفَهم عدولًا ورغبة عنهم، ومشاقَّة لهم؛ فهذا لا شكَّ أنَّه آثم توعَّده الله بالوعيد الشَّديد، قال تعالىٰ: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ١١٥].

ومن خالف الصَّحابة والتَّابعين في التَّفسير بسبب قوله علىٰ الله بغير علم؛ فهذا لا شكَّ أنَّه آثم، فلا يجوز لأحد أن يتكلَّم في معاني القرآن بغير علم، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ**

---

(١) السنة للخلال (٢/ ٢٣).

(٢) خلق أفعال العباد (٢/ ١١٣).

مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبيِّ ﷺ قال: «**من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم؛ فليتبوَّأ مقعده من النار**»، رواه أبو داود والتِّرمذي وحسَّنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «من كان خطؤه لتفريطه فيما يجب عليه من اتِّباع القرآن والإيمان مثلًا، أو لتعدِّيه حدود الله بسلوك السُّبل التي نهىٰ عنها، أو لاتِّباع هواه بغير هدًىٰ من الله؛ فهو الظَّالم لنفسه، وهو من أهل الوعيد».

وأمَّا من وقع منه الخطأ في التَّفسير وهو عالم بالتَّفسير، ويملك من أنواع العلوم اللَّازمة للكلام في معاني القرآن، وكان متحرِّيًا لمدارسة أقوال الصَّحابة والتَّابعين، وغير متكلِّف للكلام في القرآن وذهب ذهنه إلىٰ معنىٰ خاطئ مخالف لتفسير السَّلف؛ فهذا الذي يُرجىٰ أن لا يكون آثمًا، ومثل هذا إذا نُصح ونُبِّه علىٰ خطئه؛ أفاء إلىٰ الصَّواب.

قال الإمام محمَّد بن إدريس الشَّافعي رَحِمَهُٱللَّهُ[2]: «أمَّا أن نخالف حديثًا عن رسول الله ثابتًا عنه؛ فأرجو أن لا يُؤخذ ذلك علينا إن شاء الله. وليس ذلك لأحد، ولكن قد يجهل الرجل السنَّة فيكون له قول يخالفها، لا أنه عَمَدَ خِلافها، وقد يغفل المرء ويخطئُ في التأويل».

❁ ❁ ❁

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣١٧).

(٢) الرِّسالة (ص٢١٩).

قال المصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

[فَالْمَقْصُودُ: بَيَانُ طُرُقِ الْعِلْمِ وَأَدِلَّتِهِ، وَطُرُقِ الصَّوَابِ.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ قَرَأَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَتَابِعُوهُمْ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ بِتَفْسِيرِهِ وَمَعَانِيهِ.

كَمَا أَنَّهُمْ أَعْلَمُ بِالْحَقِّ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ].

الشَّرح:

الصحابة أعلم ممَّن بعدهم لأنهم أفصح الخلق وأنصح الخلق، ولأنهم تلقوا معاني القرآن من النبيِّ ﷺ، فهم بطانة النبي ﷺ، وهم الذين أدَّوا إلينا الدين، وهم الذين أمرنا الله باتباعهم بإحسان وتلقي الدين عنهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فلابد أن نأخذ الدين عنهم.

ومن لم يأخذ دينه عن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يتلقَّاه منهم؛ فهو مشاقٌّ لله عَزَّوَجَلَّ وللرسول ﷺ، وغير متَّبع لسبيل المؤمنين، ووعيده شديد؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

قال ابن القصار رَحِمَهُ اللَّهُ **عن الصَّحابة**[1]: «هم المبلِّغون للسنن، والمفسِّرون

(١) شرح ابن بطال علىٰ صحيح البخاري (٤/ ٣٦٩).

لها؛ فوجب اتِّباع سبيلهم».

وقال العلامة عثمان بن سعيد الدَّارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن تلقِّي العلم من الآثار الصَّحيحة المرويَّة عن الصَّحابة والتَّابعين في ذلك[1]: «النهج الذي درج عليه المسلمون، وكانت إمامهم في دينهم بعد كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، منها يقتبسون العلم، وبها يقضون، وبها يقيمون، وعليها يعتمدون وبها يتزينون، يورثها الأول منهم الآخر، ويبلِّغها الشاهد منهم الغائب؛ احتجاجًا بها، واحتسابًا في أدائها إلىٰ من لم يسمعها، يسمونها السنن والآثار، والفقه والعلم، ويضربون في طلبها شرق الأرض وغربها، يحلُّون بها حلال الله ويحرِّمون بها حرامه، ويميِّزون بها بين الحقِّ والباطل، والسنن والبدع، ويستدلُّون بها علىٰ تفسير القرآن ومعانيه وأحكامه، ويعرفون بها ضلالة من ضلَّ عن الهدىٰ؛ فمن رغب عنها فإنَّما يرغب عن آثار السلف وهديهم، ويريد مخالفتهم ليتخذ دينه هواه، وليتأوَّل كتاب الله برأيه، خلاف ما عنىٰ الله به.

فإن كنتم مؤمنين، وعلىٰ منهاج أسلافهم؛ فاقتبسوا العلم من آثارهم، واقتبسوا الهدىٰ في سبيله، وارضوا بهذه الآثار إمامًا كما رضي بها القوم لأنفسهم إمامًا.

فلعمري ما أنتم أعلم بكتاب الله منهم، ولا مثلهم، ولا يمكن الاقتداء بهم إلَّا باتباع هذه الآثار علىٰ ما ترون.

فمن لم يقبلها فإنَّه يريد أن يتبع غير سبيل المؤمنين، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن

---

(١) الرَّدُّ علىٰ الجهمية (ص٦٣)، ط: روائع الأثير - الرياض.

يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾».

فالصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم الجماعة، قال العلامة أبو محمد الحسن بن عليٍّ البربهاري رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «الأساس الذي تُبنىٰ عليه الجماعة وهم أصحاب محمد ﷺ، ورحمهم الله أجمعين، وهم أهل السنَّة والجماعة؛ فمن لم يأخذ عنهم فقد ضَلَّ وابتدع، وكلُّ بدعة ضلالة».

وقال الإمام محمد بن إدريس الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «من قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أُمر بلزومها، وإنَّما تكون الغفلة في الفرقة، فأمَّا الجماعة فلا يمكن فيها كافة غفلة عن معنىٰ كتاب ولا سنَّة ولا قياس».

فتلقي العلم من معدنه الأول من السَّابقين الأوَّلين، الذين تلقَّوا ذلك عن النبي ﷺ مباشرة؛ فرقان علىٰ الحقِّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «أعلم الناس بالسابقين وأتبعهم لهم: هم أهل الحديث وأهل السنَّة، ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة عبدوس بن مالك: «أصول السنَّة عندنا: التمسُّك بما كان عليه أصحاب رسول الله

---

(١) شرح السنة (ص٦٥ - رقم٣).
(٢) الرسالة (ص٤٧٥، ٤٧٦).
(٣) نقض المنطق (ص٨٦).

ﷺ، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة ضلالة. والسُّنَّة عندنا: آثار رسول الله ﷺ». والسُّنَّة تفسِّر القرآن، وهي دلائل القرآن؛ أي دلالات علىٰ معناه».



ثم قال المصنِّف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

[فَمَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ وَفَسَّرَ الْقُرْآنَ بِخِلَافِ تَفْسِيرِهِمْ؛ فَقَدْ أَخْطَأَ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ جَمِيعًا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ لَهُ شُبْهَةٌ يَذْكُرُهَا: إِمَّا عَقْلِيَّةٌ، وَإِمَّا سَمْعِيَّةٌ. كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: التَّنْبِيهُ عَلَىٰ مَثَارِ الِاخْتِلَافِ فِي التَّفْسِيرِ، وَأَنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِهِ: الْبِدَعُ الْبَاطِلَةُ الَّتِي دَعَتْ أَهْلَهَا إِلَىٰ أَنْ حَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَفَسَّرُوا كَلَامَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ بِغَيْرِ مَا أُرِيدَ بِهِ، وَتَأَوَّلُوهُ عَلَىٰ غَيْرِ تَأْوِيلِهِ].

الشَّرْح:

إذًا المبتدعة اعتقدوا وابتدعوا وحرَّفوا النصوص من أجل ترويج بدعهم، والنصوص لا تدلُّ علىٰ بدعهم؛ لأن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح.

ومخالفة تفسير الصحابة والتَّابعين خطأ في الدليل والمدلول جميعًا كما قال شيخ الإسلام؛ لأنَّ الدَّليل يستلزم مدلوله الذي تقتضيه ألفاظه، ومن حرَّف المعنىٰ أبطل ما استلزمه الدَّليل، فكان ذلك خطأ في الدَّليل والمدلول جميعًا.

والمبتدع والمبطل إذا كانت ضلالته تخالف نصوص القرآن والسُّنَّة، وعدل عن الاهتداء بهما، وسلَّط هواه علىٰ نصوص الوحي بتحريف معناها؛ كان هذا الضلال من فساد القصد وسوء الإرادة وعدم الإخلاص لله في تلقِّي العلوم

والاعتقادات من الوحي المعصوم، ومن كان كذلك كان فيه شعبة من شعب المغضوب عليهم الذين عرفوا الحق ولم يتَّبعوه.

فأقبل أيُّها المسلم علىٰ نصوص الوحي إقبالَ مهتدٍ بها، واجعل كلام الله عَزَّوَجَلَّ حاكمًا علىٰ هواك، ولا تنصب نفسك معارضًا لوحي الله وكلامه.

ومن امتلأ قلبه من زيغ الشبهات والضَّلالات والعقائد الباطلة؛ فليشف قلبه بنور الوحي؛ فإنَّه شفاء لما في الصدور، ومن استضاء بنور الوحي كان من المهتدين.

فالمسلم يأتمُّ بالوحي يكون اعتقاده تبعًا له، لا يتقدم بين يديه بالمعارضة، والتقديم للأهواء والبدع والضَّلالات، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

وليحذر المخلوق أن ينصِّب نفسه عدوًّا وندًّا لله، يرد علىٰ الله كلماته ووحيه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا ترىٰ من عارض الوحي برأيه وجعله ندًّا له إلَّا مشركًا بالله، قد اتخذ من دون الله أندادًا، ولهذا كان مرض التعطيل ومرض الشرك أخوين متصاحبين، لا ينفك أحدهما عن صاحبه؛ فإن المعطل قد جعل آراء الرجال وعقولهم ندًّا لكتاب الله، والمشرك قد جعل ما يعبده من الأوثان ندًّا له».

والأساس الذي يُبنىٰ عليه إيمان المسلم تصديقه لخبر الله عَزَّوَجَلَّ، وانقياده لأمره ونهيه، ومن نصَّب نفسه معارضًا أو محرِّفًا لكلام الله؛ كان فيه من التكذيب لخبر الله والاستكبار عن أمره ونهيه بحسب ما فيه.

---

(١) الصَّواعق المرسلة (٤/ ١٣٥٣).

وشأن المسلم الذي آمن بربِّه اتِّباع وحي الله، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، وأما من كان في صدره حرج من كلام الله ووحيه فإنَّه يُحرِّفه ردًّا له.

ومن استقرأ تحريفات المبتدعين، وكان متحقِّقًا بالعلم الموروث عن خير القرون؛ تبيَّن له ما فيها من الجهل والكذب علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ واللغة[(١)].

واعتقاد السَّابقين الأوَّلين ومعاني ما فسَّروا به كلام الله عَزَّوَجَلَّ؛ دالٌّ علىٰ بطلان من حرَّف ألفاظ الوحي عن حقائقها وظواهرها التي دلَّت عليها.

قال تعالىٰ: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٥-٧٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ذمَّ سبحانه وتعالىٰ المحرِّفين لكتابه، والأمِّيين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة، وهي الأماني، والذين يكتبون فيكتبون

---

(١) الصَّواعق المرسلة (٤/ ١٤٢٩).

(٢) الصَّواعق المرسلة (٣/ ١٠٤٩، ١٠٥٠).

الباطل ويقولون: هذا حق، وهو من عند الله. وذم في عدة مواضع الذين يكتمون ما أنزله من الكتاب والبينات والهدىٰ.

وهذه الأنواع الأربعة المذمومة موجودة في هؤلاء المعرضين عن نصوص الوحي، المعارضين لها بآرائهم وعقولهم وأهوائهم؛ فإنهم تارة يكتمون الأحاديث والآيات المخالفة لأقوالهم، ومنهم طوائف تضع أحاديث علىٰ وفق مذاهبهم وأهوائهم في الأصول والفروع، ويقولون: هذا من عند الله، وتارة يضعون كتبًا بآرائهم وعقولهم وأذواقهم وخيالاتهم، ويدعون أنها الدين الذي يجب اتباعه ويقدمونها علىٰ نصوص الوحي.

وأما تحريفهم للنصوص بأنواع التأويلات الفاسدة التي يحرفون بها الكلم عن مواضعه، فأكثر وأشهر من أن تُذكر؛ كتأويلات القرامطة والباطنية والفلاسفة والرافضة والجهمية والقدرية».

وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن المبتدعة: «فسَّروا كلام الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ بغير ما أُريد به، وتأوَّلوه علىٰ غير تأويله»، وهذا ممَّا يعلم المسلمون بطلانه؛ لأنَّ القرآن أتمَّ الله بيانه، فيجب تلقِّي معانيه بالقبول، قال تعالىٰ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]، وظاهر نصوص القرآن بيان، وبه حصل الإفهام؛ لأنَّ القرآن ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٤]، ولو أُريد به خلاف ظاهره لضلَّت الأفهام في تعيين أنواع الباطن[1].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١٠٤).

ولا يجوز لأحد أن يُسلِّط علىٰ نصوص القرآن والسنَّة التأويلات الباطلة التي تخالف ظاهر النُّصوص.

ولو كان القرآن يُراد به خلاف ظاهره لبيَّنه النبي ﷺ للنَّاس، لئلَّا يضلَّ النَّاس عن معانيه، والنبيُّ ﷺ بُعث ببيان القرآن ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، ولم يفسِّر النبي ﷺ القرآن بالباطن والتأويل والتحريف، فعُلم أنَّ ذلك كلَّه ضلال؛ لأنَّ النبي ﷺ لم يكتم تبيين كلام الله.

وكلام الله عَزَّوَجَلَّ ألفاظه دالَّة علىٰ معانيه، لذلك هو هدًىٰ وبيان للنَّاس، وهذا دالٌّ علىٰ خطأ التحريفات والتأويلات التي أفسد بها المبتدعة معاني القرآن،

فالقرآن لفظه «فصل» في دلالته علىٰ معانيه لئلَّا يضلَّ النَّاس بتحريف معانيه.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾ [الطارق: ١٣]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «القول الفصل: الفصل بيان المعنىٰ، ضد الإجمال».

وقال ابن القيم[2]: «القول الفصل هو الذي يفصل بين الحقِّ والباطل، فيميِّزُ هذا من هذا، ويفصل بين النَّاس فيما اختلفوا فيه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إنَّ الله سبحانه بعث محمدًا ﷺ بجوامع الكلم، فالكلم التي في القرآن جامعة محيطة كُلِّيَّة عامَّة لما كان متفرِّقًا منتشرًا في كلام غيره، ثم إنَّه يسمي كل شيء بما يدلُّ علىٰ صفته المناسبة للحكم

(١، ٢) التِّبيان في أيمان القرآن (ص١٧٢).

(٣) نقض المنطق (ص١١٠).

المذكور المبين، وما يبيِّن وجه دلالته».

ومحال أن يكون أفضل الأمَّة وخير القرون قد أمسكوا جميعًا عن قول الحقِّ في معاني القرآن(١)، وقد انقضىٰ قرنهم ولم يقولوا بخلاف ظاهر القرآن، فتجهيل السَّابقين الأوَّلين شرٌّ أنواع التعالم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ الله تعالىٰ وصف كتابه بأوضح البيان وأحسن التَّفسير، فقال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فأين بيان المختلف فيه والهدىٰ والرحمة في ألفاظ ظاهرها باطل، والمراد منها يطلب بأنواع التأويلات المستنكرة المستكرهة لها التي لا يفهم منها، بل يفهم منها ضدها؟!».

والمسلم إنَّما يطلب معاني الوحي ممَّن أُوتي علم بيانه، قال تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ [المرسلات: ٥٠]، لا يطلبه ممَّن أوتي جهلًا ومخالفةً لتبيين سيد المرسلين محمد ﷺ بالتأويلات الباطلة.

والقول بأنَّ نصوص القرآن والسُّنَّة يُراد بها تأويلات المبتدعين؛ فيه محاذير ثلاثة، وهي: القدح في علم المتكلم بها، أو في بيانه، أو في نصحه(٣).

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١٠٧).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١٠٩).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١١٣).

فلا يمكن أن يكون تأويل المبتدع أحسن تبيينًا للمعنىٰ وتخليصه من اللَّبس والإشكال من النبيِّ ﷺ.

والله سبحانه وتعالىٰ أكمل الدين وأتمَّ بيانه، فلم يُحوج الخلق إلىٰ من يبيِّنه لهم بعد رسول الله ﷺ الذي أدَّىٰ بيانه للصَّحابة، الذين أدَّوه إلىٰ التَّابعين، الذين أدَّوه إلينا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الله سبحانه قد تمَّم الدين بنبيِّه ﷺ وأكمله به، ولم يحوجه هو ولا أمَّته بعده إلىٰ عقل ونقل سواه، ولا رأي ولا منام ولا كشف، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]».

والنَّبيُّ ﷺ أدَّىٰ بيان القرآن إلىٰ أمَّته، وبذلك كان شهيدًا علىٰ أمَّته، وكانت أمَّته شاهدة علىٰ الأمم، وسيسأله الله عن هذا البيان وقد أدَّاه، ولذلك بكىٰ ﷺ عندما قرأ عليه ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النساء: ٤١، ٤٢].

واقترنت شهادة النبي ﷺ علىٰ أمَّته بتبيين الكتاب من أجل ذلك، لذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٢٦٤).

[النحل: ٨٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال الأوزاعي: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: بالسنة.

ووجه اقتران قوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مع قوله: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النحل: ٨٩] أن المراد - والله أعلم -: إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة، ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ [القصص: ٨٥] أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادُّك إليه، ومُعيدُك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك».

وبهذا يظهر ضلال وإلحاد من قال: «حسبنا القرآن» وردَّ وأبطل بيان السُّنَّة؛ فهذا كافر بالله، كافر بالقرآن الذي أمر بأخذ تبيين معانيه ممن أوحي إليه، صلوات الله وسلامه عليه.

وتسليط التأويل علىٰ نصوص الوحي، إفساد للدِّين؛ فإنَّه يؤدِّي إلىٰ أنْ يقول من شاء ما شاء.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٥٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّه لو أُخرج عن ظاهره بتأويل المتأوِّلين؛ انتقضت عرىٰ الإيمان كلُّها، وكان لا تشاء طائفة من طوائف أهل الضلال أن تتأوَّل النُّصوص علىٰ مذهبها إلا وجدت السَّبيل إليه».

ومن المعلوم ضرورة أنَّه لا يجوز للنبيِّ ﷺ تأخير البيان عن وقت الحاجة، وقد قُبض وأتمَّ البيان للصَّحابة، وأشهدهم علىٰ ذلك في أعظم جمع في حجَّة الوداع، فقال: «**ألا هل بلَّغت، اللهم فاشهد**»، متَّفق عليه.

وكان الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يلازمون النبيَّ ﷺ حضرًا وسفرًا، ويؤدُّون عنه البلاغ والبيان والعلم، وما كتموا عنه شيئًا؛ فعُلم أنَّ التأويلات المفتراة بعد النبيِّ ﷺ وأصحابه بدع وضلال[(٢)].

فالمتأولون لنصوص الوحي من القرآن والسُّنَّة؛ هم الذين حذَّرنا منهم النبيُّ ﷺ فاحذروهم، قال النبيُّ ﷺ: «**ليكونن في أمتىٰ أقوام يحدِّثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإيَّاكم وإيَّاهم**»، رواه مسلم في مقدمة صحيحه.

وكلام الله يسَّره للفهم، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧**﴾ [القمر: ١٧]، ولو قيل: إنَّ ظاهر ألفاظه غير مقصودة، وكُلف الخلق أن يقولوا ببواطن من تلقاء أنفسهم؛ كان ذلك عسرًا علىٰ الفهم والتعبُّد به، وهذا من أضلِّ ما يكون من الاعتقاد في القرآن.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٨).

(٢) مجموع مؤلَّفات العلامة عبد الرحمن المعلمي (٦/ ٣٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أنزل الله الكتاب شفاءً لما في الصدور، وهدًى ورحمة للمؤمنين، ولذلك كانت معانيه أشرف المعاني، وألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها، وأعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها؛ كما وصفه الله تعالىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]؛، فالحق هو المعنىٰ والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتَّفسير الأحسن هو الألفاظ الدَّالَّة علىٰ ذلك الحقِّ، فهو تفسيره وبيانه».

وقال ابن القيم أيضًا[٢]: «لا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا ولا أتمَّ بيانًا من كلام الله سبحانه، ولهذا سمَّاه الله بيانًا، وأخبر أنَّه يسَّره للذِّكر؛ يسَّر ألفاظه للحفظ، ومعانيه للفهم، وأوامره ونواهيه للامتثال».

والأمة - ولله الحمد - تعرف فضل السَّابقين الأوَّلين بعلومهم واعتقادهم، فلا تخالفهم فيما أجمعوا عليه، فضلًا عن أن يعتقدوا الحقَّ في خلاف إجماعهم.

قال الحافظ أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الكلام في صفات الله عَزَّوَجَلَّ ما جاء منها في كتاب الله، أو روي بالأسانيد الصَّحيحة عن رسول الله ﷺ؛ فمذهب السَّلف - رحمة الله عليهم أجمعين - إثباتها وإجراؤها علىٰ ظاهرها، ونفي الكيفية عنها؛ فهذا إجماع معلوم متيقَّن عند جميع أهل السنَّة والحديث».

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١١٧).
(٢) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١١٨).
(٣) الحجَّة في بيان المحجَّة (١/ ١٧٤).

وقال الحافظ ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أهل السنَّة مجمعون علىٰ الإقرار بالصِّفات الواردة كلِّها في القرآن والسُّنَّة، والإيمان بها، وحملها علىٰ الحقيقة لا علىٰ المجاز».

والإجماع في الاعتقاد في إجراء النصوص علىٰ ظاهرها؛ تلقاه التَّابعون عن الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كنا والتَّابعون متوافرون، نقول: إنَّ الله تعالىٰ ذكره فوق سماواته، ونؤمن بما وردت السُّنَّة به من صفاته».

وتحريف نصوص القرآن والسُّنَّة، وتأويل وتعطيل الآيات والأحاديث في أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلىٰ؛ أدخله علىٰ المسلمين الجعد بن درهم الذي تلقَّىٰ ضلاله عن اليهود.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أصل هذه المقالة - مقالة التعطيل للصفات - إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين وضُلَّال الصابئين، فإنَّ أول من حُفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام - أعني أن الله سبحانه وتعالىٰ ليس علىٰ العرش حقيقة، وإن معنىٰ استوىٰ بمعنىٰ استولىٰ، ونحو ذلك - هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان، وأظهرها؛ فنسبت مقالة الجهمية إليه.

---

(١) التمهيد (٧/ ١٤٥).

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (ص٥١٥)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية «إسناد صحيح»، بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٧).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٠، ٢١).

وقد قيل إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي، وكان الجعد بن درهم هذا - فيما قيل - من أهل حران، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة».

والمعتزلة شيوخ الأشاعرة، وعنهم تلقَّىٰ الأشاعرة تحريف نصوص القرآن والسُّنَّة في صفات رب العالمين، فقد كان أبو الحسن الأشعري تلميذًا لأبي علي الجبائي أربعين عامًا، وتأويلات ابن فورك هي تحريفات بشر المريسي يجادل بها في نصر ضلاله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التأويلات الموجودة اليوم بأيدي الناس - مثل أكثر التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فورك في كتاب «التأويلات» وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي في كتابه الذي سمَّاه «تأسيس التقديس»، ويوجد كثير منها في كلام خلق كثير غير هؤلاء؛ مثل أبي علي الجبائي، وعبد الجبار بن أحمد الهمداني، وأبي الحسين البصري، وأبي الوفاء بن عقيل، وأبي حامد الغزالي، وغيرهم - هي بعينها تأويلات بشر المريسي التي ذكرها في كتابه، وإن كان قد يوجد في كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضًا، ولهم كلام حسن في أشياء.

فإنما بينت أنَّ عين تأويلاتهم هي عين تأويلات بشر المريسي» .

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٢).

فتدبُّر القرآن وفهم معانيه هو الواجب للأخذ به، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وفهمه يكون علىٰ مراد الله عَزَّوَجَلَّ، لا بتحريف ألفاظه بتأويلات مبتدعة تُبطل معانيه أو تُعطِّلها أو تُفسدها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لما كان النبي ﷺ قد أخبر أن هذه الأمَّة تتبع سنن من قبلها حذو القذة بالقذة، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه؛ وجب أن يكون فيهم من يُحرِّف الكلم عن مواضعه، فيغيِّر معنىٰ الكتاب والسنَّة فيما أخبر الله به أو أمر به، وفيهم أميُّون لا يفقهون معاني الكتاب والسنَّة، بل ربما يظنون أنَّ ما هم عليه من الأماني التي هي مجرد التلاوة ومعرفة ظاهر من القول؛ هو غاية الدين».

والأمَّة الوسط هي التي فهمت دلالة ألفاظ نصوص الوحي من القرآن والسُّنَّة علىٰ ظواهرها المقصودة، وسلمت من أفهام الظَّاهريَّة المغلوطة، وتأويلات المعتزلة وفروعهم من الكلَّابيَّة والأشاعرة ونحوهم.

والظَّاهريَّة المغلوطة هي التي حذَّرنا منها النبيُّ ﷺ، حيث قال في الخوارج: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم**»، فهناك فرق بين ما يظهر للإنسان من فهمه هو للنصِّ وما يقتضيه ظاهر النصِّ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لفظ «الظاهر» يُراد به ما قد ظهر للإنسان، وقد يُراد به ما يدل عليه اللَّفظ؛ فالأول

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٥/ ١٣٠).

(٢) منهاج السنة (٤/ ١٧٩).

يكون بحسب فهوم النَّاس، وفي القرآن ما يخالف الفهم الفاسد شيء كثير».

ومعاني القرآن تلقَّاها التَّابعون عن الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين تلقوها عن رسول الله ﷺ، فطلب معاني القرآن والسُّنَّة بفهم السَّلف؛ هو الظاهر المقصود من النُّصوص.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الاحتجاج بالظَّواهر مع الإعراض عن تفسير النبي ﷺ وأصحابه طرق أهل البدع».

ومن أمثلة ما ضل فيه فهم البعض بالأخذ بالظَّاهر غير المقصود من القرآن؛ قولُه تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من النَّاس أنَّها عداوة البغضاء والمحادَّة، بل عداوة المحبَّة الصادَّة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلُّم العلم والصَّدقة، وغير ذلك من أعمال البرِّ».

ومن أمثلة ما أخطأ فيه فهم البعض المغلوط للظَّاهر غير المقصود من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: «**الدُّنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، أو عالمًا أو متعلمًا**»، رواه الترمذي وحسَّنه، فصار من أجل هذا يعظ الناس بلعن الدُّنيا لذاتها.

(١) منهاج السنة (٤/ ١٧٩).
(٢) عُدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص١١٥).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في معنىٰ الحديث**(١): «الدُّنيا وكُلُّ ما فيها ملعونة، أي: مُبعدة عن الله؛ لأنَّها تُشغل عنه، إلا العلم النَّافع الدالَّ علىٰ الله، وعلىٰ معرفته، وطلب قُرْبه ورضاه، وذكر الله وما ورد ممَّا يُقرِّب من الله؛ فهذا هو المقصود من الدُّنيا».

والله عَزَّوَجَلَّ خلق الأرض وبارك فيها، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فُصِّلت: ٩، ١٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أي جعلها مباركة، قابلة للخير، والبذر، والغراس، وقدَّر فيها أقواتها، وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تُزرع وتُغرس».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «الدُّنيا في الحقيقة لا تُذم، وإنَّما يتوجَّه الذمُّ إلىٰ فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلىٰ الجنة أو النَّار».

وقد جمعني مجلس مع بعض من أخذ بعض العلم بخاصَّة نفسه، فأخذ يُلزم الحاضرين الحُجَّة بكفر مدمن الخمر، واستدلَّ لذلك بحديث: «**مدمن الخمر كعابد وثن**»، فرددت عليه بحديث عبد الله حمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي في الصَّحيحين عندما جُلد في شرب الخمر، وقال فيه أحد الصَّحابة: «لعنه الله، ما

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٩٩).
(٢، ٣) عدَّة الصَّابرين (ص٢٦٣).

أكثر ما يؤتىٰ به!»، فقال النبيُّ ﷺ: «**لا تلعنه؛ فإنَّه يحب الله ورسوله**»، وقلت له: أثبت النبي ﷺ في هذا الحديث إسلام مدمن الخمر.

فهذا التوهُّم للتَّكفير بالكبيرة سببه سوء الفهم لظاهر النصِّ، مع أنَّه ضعيف الثُّبوت، ولو قلنا بثبوته فإنَّ ظاهر معناه ليس كما أخطأ في فهمه المستدل.

قال الحافظ أبو بكر البزَّار رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن رواه من طريق ضعيفة عن ابن عبَّاس[١]: «لا نعلمه يروىٰ عن ابن عبَّاس إلَّا بهذا الإسناد، ولا نحفظه عن غير ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا من وجه صحيح».

والمعلوم المتيقَّن من سنَّة النبي ﷺ وإجماع الصَّحابة؛ عدمُ الحكم بكفر شارب الخمر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كل مسلم يعلم أنَّ شارب الخمر، والزَّاني، والقاذف، والسَّارق، لم يكن النبيُّ ﷺ يجعلهم مرتدِّين يجب قتلهم، بل القرآن والنقل المتواتر عنه يبيِّن أنَّ هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الإسلام».

فالتَّشبيه في قوله: «**كعابد وثن**» لو صحَّ الخبر به؛ ليس من كل وجه، وإنَّما يشاركه في محبَّته وتعلُّقه به، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «هذا

---

(١) مسند البزَّار (١١/ ٢٨٩).

(٢) الإيمان (ص٢٧٣).

(٣) مجموع مؤلَّفاته (١/ ٢٧٦).

لأنَّ مدمنها يعكف عليها، ولا يكاد يفيق منها، فيصير كالعاكف علىٰ الأوثان».

وهذا نحو قول عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ للاعبي الشَّطرنج: «ما هذه التَّماثيل التي أنتم عليها عاكفون»، فلا نكفر بلعب الشَّطرنج، لكنَّه لهو محرَّم شغل القلوب عن ذكر الله، ولهوهم بالصُّور إثم مضاعف مع إثم الغفلة عن ذكر الله.

ومعاملة الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لأبي مِحْجن الثَّقفي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تدلُّ علىٰ فهمهم لأحكام ومعاني النُّصوص، وأنَّه لم يكن من فقههم تكفير مدمن الخمر.

ولا ريب في تحريم شرب الخمر، وفق الله المسلمين لاجتنابه.



قال المصنِّف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

[فَمِنْ أُصُولِ الْعِلْمِ بِذَلِكَ:

أَنْ يَعْلَمَ الْإِنْسَانُ الْقَوْلَ الَّذِي خَالَفُوهُ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ.

وَأَنْ يَعْرِفَ أَنَّ تَفْسِيرَ السَّلَفِ يُخَالِفُ تَفْسِيرَهُمْ.

وَأَنْ يَعْرِفَ أَنَّ تَفْسِيرَهُمْ مُحْدثٌ مُبْتَدَعٌ.

ثُمَّ أَنْ يَعْرِفَ - بِالطُّرُقِ الْمُفَصَّلَةِ - فَسَادَ تَفْسِيرِهِمْ، بِمَا نَصَبَهُ اللهُ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَىٰ بَيَانِ الْحَقِّ].

الشَّرح:

أفادنا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كيفيةَ معرفة التَّفسيرات الخاطئة لآيات القرآن، والتفسير المحدث يُعرف بمخالفته لألفاظ الآيات، وبمخالفته لتفسير السلف.

ومعنىٰ الآية الصحيح يدلُّ عليه لفظها وسبب نزولها وسياقها وتفسير الصحابة لها، كلُّ هذا ممَّا يدلُّ علىٰ بطلان الأقوال المبتدعة في التفسير المخالفة لأقوال السلف، وسيذكر شيخ الإسلام بعد ذلك أنَّه وقع تحريف لمعاني الأحاديث النبوية كما وقع تحريف لمعاني الآيات القرآنية سواء.

فالعلم بمصادر الأقوال في التَّفسير، وتحرير الرِّوايات في ذلك؛ من أسباب معرفة الأقوال الضَّعيفة، فما كان مصدره الأحاديث الضَّعيفة والآثار الواهية أو الإسرائيليات؛ فهو ضعيف الثُّبوت رواية، وما كان مخالفًا لمعاني الشَّريعة

المعهودة فهو ضعيف الدِّراية، وما لم يدلَّ عليه لفظ الآية ولم يقل به أحد من السَّلف؛ فهو من الأفهام المغلوطة لمعاني الآيات.

وتلقِّي العلوم عمومًا والتَّفسير خصوصًا مشافهةً عن علماء أهل السنَّة، أو بقراءة كتب التَّفسير النقيَّة السَّلفية؛ من أسباب السَّلامة من الضَّلال في العلم والاعتقاد والتَّفسير؛ فإنَّ هذه الكتب وما يذكره علماء السُّنَّة من التَّفسير في دروسهم سليمة من الأقوال الضَّعيفة والمبتدعة، لا يكاد يُذكر في تفاسيرهم من الأقوال الباطلة والضَّعيفة إلَّا علىٰ سبيل التحذير.

والمقصود بتدبُّر القرآن هو فهم معانيه علىٰ مراد الله، من غير ضلال، قال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «آمنت بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله علىٰ مراد رسول الله ﷺ».

قال العلامة أبو زكريا يحيىٰ بن إبراهيم السلماسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٥٥٠هـ)**[2]: «اتَّفق أهل العلم أنَّ أحدًا لم يجمع جمل الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، وبرسوله ﷺ، كما جمعه الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله الموجز: «آمنت بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله علىٰ مراد رسول الله ﷺ»».

وكل البدع التي أصابت النَّاس بالفرقة والشَّحناء والزَّيغ والضَّلال سببها

(١) لمعة الاعتقاد (ص١٦٨)، مطبوع ضمن متون التَّوحيد والعقيدة، ط: دار الآثار، القاهرة.
(٢) منازل الأئمَّة الأربعة (ص١٤٦).

سوء الفهم لمعاني الوحي، وبذلك صارت البدع اثنين وسبعين فرقة، واختلف النَّاس فيما هو سبب لائتلافهم بسبب فهم كلام الله علىٰ خلاف مراد الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤].

والأساس في معرفة معاني نصوص القرآن علىٰ مراد الله، هو تلقِّي معنىٰ ذلك من رسول الله ﷺ؛ فإنَّه المُبيِّن عن الله عَزَّوَجَلَّ، وتلقِّي معنىٰ ذلك عن الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين تلقَّوا معاني الوحي من النبيِّ ﷺ، وأدَّوه إلىٰ التَّابعين الذين أدّوه إلينا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لابد في تفسير القرآن والحديث من أن يُعرف ما يدل علىٰ مراد الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ من الألفاظ، وكيف يُفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين علىٰ أن نفقه مراد الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ علىٰ المعاني، فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله علىٰ ما يدعون أنه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في طرق معرفة دلالة الألفاظ**[٢]: «دلالة اللَّفظ قد تحصل من صريحه تارة، ومن سياقه، ومن قرائنه المتصلة به».

والنبيُّ ﷺ أكمل الله به الدِّين، وأتمَّ به بيان الوحي، فأدَّىٰ علم القرآن والسُّنَّة للصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين أدّوه إلينا.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ١١٦).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٧١٤).

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الله جل ثناؤه، وتقدَّست أسماؤه بعث محمدًا نبيه - ﷺ - ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: ٩]، وأنزل عليه كتابه، الهدىٰ والنور لمن اتبعه، وجعل رسوله ﷺ الدال علىٰ معنىٰ ما أراد من ظاهره وباطنه، وخاصِّه وعامِّه، وناسخه ومنسوخه، وما قصد له الكتاب. فكان رسول الله ﷺ هو المعبِّر عن كتاب الله، الدالَّ علىٰ معانيه، شاهده في ذلك أصحابه، من ارتضاهم الله لنبيِّه واصطفاهم له، ونقلوا ذلك عنه؛ فكانوا هم أعلم الناس برسول الله ﷺ، وبما أخبر عن معنىٰ ما أراد الله من ذلك».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «النصوص الواردة فيها الهدىٰ والشفاء، والذي بلَّغها بلاغًا مبينًا هو أعلم الخلق بربه، وأنصحهم لخلقه، وأحسنهم بيانًا، وأعظمهم بلاغًا؛ فلا يمكن أحدًا أن يعلم ويقول مثلَ ما علمه الرسولُ ﷺ وقاله، وكلُّ مَن مَنَّ الله عليه ببصيرة في قلبه تكون معه معرفة بهذا، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ: ٦]».

❁ ❁ ❁

---

(١) الجامع لعلوم الإمام أحمد (٥/ ٨٨، ٨٩).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٤٤).

قال المصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

[وَكَذَلِكَ وَقَعَ مِنَ الَّذِينَ صَنَّفُوا فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ وَتَفْسِيرِهِ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ جِنْسِ مَا وَقَعَ؛ فِيمَا صَنَّفُوهُ مِنْ شَرْحِ الْقُرْآنِ وَتَفْسِيرِهِ.

وَأَمَّا الَّذِينَ يُخْطِئُونَ فِي الدَّلِيلِ لَا فِي الْمَدْلُولِ؛ فَمِثْلُ كَثِيرٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَالْوُعَّاظِ وَالْفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ، يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ بِمَعَانٍ صَحِيحَةٍ؛ لَكِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا، مِثْلَ كَثِيرٍ مِمَّا ذَكَرَهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي فِي حَقَائِقِ التَّفْسِيرِ.

وَإِنْ كَانَ فِيمَا ذَكَرُوهُ مَا هُوَ مَعَانٍ بَاطِلَةٌ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْخُلُ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ؛ وَهُوَ الْخَطَأُ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ جَمِيعًا؛ حَيْثُ يَكُونُ الْمَعْنَىٰ الَّذِي قَصَدُوهُ فَاسِدًا].

الشَّرْح:

هنا تكلَّم شيخ الإسلام في التحذير من تفاسير الصوفيَّة، خصوصًا تفسير أبي عبد الرحمن السلمي، الذي قال عنه ابن القيِّم: «هذا التفسير مليء بالغرائب التي لا يوافقه عليها أحد من أهل العلم، وهو قصد الإغراب عن العلماء»[1]، سبحان الله! مخالفة الجماعة هي دليل الضلال، ومخالفة إجماع الصحابة والتابعين دليل البدعة.

ووقع في تفسير أبي عبد الرَّحمن السّلمي ما هو شرٌّ من الإغراب، وهو ضلالات الباطنيَّة، وصارت الصوفيَّة من أسباب ترويج ضلالات الباطنيَّة، الذين نسبوا كذبًا ضلالاتهم وقرمطتهم إلىٰ سادات آل البيت.

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٦٩٦).

وباطنيَّة القرامطة التي أفسدوا بها معاني القرآن نسبوها إلىٰ آل البيت كذبًا لتروج علىٰ المسلمين، وآل البيت المتقدِّمون برآء من ذلك، وصارت هذه القرمطة في كلام كثير من الصوفية، فعظم الشرّ بإفساد ألفاظ القرآن ومعانيه بسبب القرامطة والصوفية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تجد القرامطة ينقلون هذا عن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ويدعون أن هذا العلم الباطن المخالف لما علم من الظاهر؛ مأخوذ عنه، ثم لم يستفيدوا بهذا النقل عن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند المسلمين إلا زيادة كذب وخزي؛ فإن المسلمين يعلمون بالاضطرار أن عليًّا لا يقول مثل هذا، وأهل العلم منهم قد علموا بالنقول الصحيحة الثابتة عن عليٍّ ما يبيِّن كذبَ هذا، ويبين أنَّ من ادعىٰ علىٰ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان عنده عن النبيِّ ﷺ علم خصَّه به؛ فقد كذب، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع.

وقد دخل كثير من هذه القرمطة في كلام كثير من المتصوفة، كما دخل في كلام المتكلمة، وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب «حقائق التفسير» قطعة من هذا الجنس عن جعفر الصادق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأهل العلم بجعفر وأحواله يعلمون قطعًا أن ذلك مكذوب علىٰ جعفر».

فالصوفية لا شك أنهم فرقةٌ ضالَّة ومبتدعة، وقد حذَّر منهم من أدركهم في طبقته كالإمام الشافعي ومن بعده، وهؤلاء نسبوا أنفسهم إلىٰ الزهد، والزهد لا

---

(١) السبعينية (ص٣٢٧، ٣٢٨).

نسميه صوفية؛ لأن لفظ «الصوفية» ليس له أصل في القرآن ولا في السنَّة، فليس بمصطلح شرعي، أما الزهد فقد جاء في حديث وإن كان بعض أهل العلم يُضعِّفه: «**ازهد فيما عند الناس يحبك الناس**»، والزهد لا يكون بتعطيل الدنيا، والواجب عمارة الدنيا وتسخيرها من وجوهها المباحة لعبودية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ولذلك أدخل الصوفيَّة علىٰ الإسلام أمورًا تُفسد الإسلام كلَّه وتضيِّع المسلمين، فأيُّ شيء ينتابهم يذهبون إلىٰ قبر أحد الأولياء ليغيثهم، وعندما غزا التتر الشام، ذهبوا إلىٰ قبر أبي عمر المقدسي وقالوا: يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر. وجاس التتر خلال الديار.

فلا يمكن أن يقوم دين ولا دنيا بعقيدة الصوفية الشركية، فالذي يملك الضرَّ والنفع هو الله عَزَّوَجَلَّ، والميِّت لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عن أن يملكه لغيره، والله حيٌّ لا يموت، وهو الذي بيده أزمَّة الأمور، وهو الذي يعزُّ وينصر ويرزق، لكنه جعل لكل شيء أسبابًا لابدَّ أن تأتي بها ليحصل المقصود، فأسباب النصر معلومة؛ قال تعالىٰ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ولابد أن نثبتَ لقتال العدوِّ، ونجاهده، أما أن نذهب إلىٰ القبور ونستغيث بها، فهذا من أسباب الهزيمة، فالاستغاثة بالقبور شرك أكبر، فالله عَزَّوَجَلَّ يسلِّط عليك الكفَّار ليغزوك، بأسباب منها ما أنت عليه من الشرك الأكبر، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، **ولذلك قال العلَّامة محمد الأمين الشنقيطي في «أضواء البيان»**: «استعمار الصوفية لعقول ضعاف الناس أشدُّ من كل أنواع الاستعمار»، وهذا فيه ردٌّ علىٰ الذين يقولون: أن العلامة محمد الأمين الشنقيطي

صوفي، أو أنه يُزكّي الصوفية، فقد كذبوا عليه، فهذه عبارته صريحة، صحيحة في التحذير من الصوفية.

ولو كانت الاستغاثة بالموتىٰ تتحقق بها المطالب الدنيوية والدينية ما أمرنا الله بالإسلام ولا بإقامه أركانه ولا بتحقيق شُعَبِه ولا بالجهاد في سبيله ولا بعمارة الدنيا ولا بالسعي في مناكبها، هؤلاء المبتدعة يهدمون الإسلام، ومن أعظم ذلك أنَّهم يُحرِّفون معاني القرآن لمعاني عقائدهم الشركية، ويفسِّرون ألفاظ القرآن بغير ما تدلُّ عليه؛ كما ذكر شيخ الإسلام ذلك عن المعتزلة والرافضة، وأيضًا الصوفية لهم نصيب من هذا المركب الضالِّ؛ فجاءوا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، فقالوا: من فعل ذنبًا يذهب للرسول ﷺ ليستغفر له، والرسول ﷺ مات! و«إذ» في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٦٤] ظرف لما مضىٰ من الزمان، وفهم الصحابة يدلُّ علىٰ ذلك، وهم أفصح الخلق وأعلم بمعاني القرآن، وقد تلقوا معاني القرآن من النبيِّ ﷺ مباشرةً، وكانوا في حياتهم يذهبون للنبي ﷺ يدعو لهم وهو حيٌّ، أما بعد وفاته فلم يذهب أحد منهم إلىٰ حجرة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا وإلىٰ قبره ﷺ وسأله أن يستغفر الله له. فالصوفية أفسدوا الدين وحرَّفوا معاني القرآن، وهذا اشتركت فيه كل فرق المبتدعة، فيضعون النصوص في غير مواضعها، ويحرِّفون معانيها.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ[(١)]: «كل طائفة من أهل البدع تجرُّ القرآن إلىٰ بدعها

---

(١) بدائع التفسير (٢/ ١٣٤).

وضلالها، وتفسِّره بمذاهبها وآرائها، والقرآن بريء من ذلك».

ولم يكن هذا خاصًّا بالعقيدة، ولا بفضائل الصحابة، ولا فضائل آل البيت، بل وقع في كل ما وجد المحرِّفون فيه قصدهم من تحريف المعنىٰ، ومن جملة ذلك الأحكام.

مثال: رفع اليدين في الصلاة ورد عن النبيِّ ﷺ متواترًا في المواضع الثلاث: في تكبيرة الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع؛ كما قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مصنَّفه «جزء في رفع اليدين في الصلاة»: هو من رواية سبعة عشر صحابيًّا؛ وقال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من رواية تسعة عشر صحابيًّا، وورد رفع اليدين في القيام من التشهد الأول من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في «صحيح البخاري»، وبعض الحنفية لا يرون رفع اليدين في غير تكبيرة الإحرام، واستدلُّوا بحديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: أنه كان يرفع يديه في تكبيرة الإحرام ثم لا يعود. وهو حديث ضعيفٌ ومخالف للأحاديث المتواترة في رفع اليدين، وجاءوا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، واستدلُّوا به علىٰ عدم مشروعيَّة رفع اليدين في الصلاة، حيث وردت به السنَّة، وهذا ما لا يدلُّ عليه لفظ الآية من الأمر بالكفِّ عن القتال في حال عدم القدرة إلىٰ أن يشرع الله عَزَّوَجَلَّ أسباب ذلك عند وجود القدرة، فحرفوه إلىٰ معنىٰ كفِّ رفع اليدين في الصلاة! والله المستعان.

❁ ❁ ❁

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

[فَصْلٌ: فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا أَحْسَنُ طُرُقِ التَّفْسِيرِ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ أَصَحَّ الطُّرُقِ فِي ذَلِكَ:

أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ، فَمَا أُجْمِلَ فِي مَكَانٍ، فَإِنَّهُ قَدْ فُسِّرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمَا اخْتُصِرَ مِنْ مَكَانٍ؛ فَقَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

فَإِنْ أَعْيَاكَ ذَلِكَ؛ فَعَلَيْكَ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّهَا شَارِحَةٌ لِلْقُرْآنِ وَمُوَضِّحَةٌ لَهُ.

بَلْ قَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ: كُلُّ مَا حَكَمَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَهُوَ مِمَّا فَهِمَهُ مِنَ الْقُرْآنِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]. وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»؛ يَعْنِي: السُّنَّةَ.

وَالسُّنَّةُ أَيْضًا تَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ كَمَا يَنْزِلُ الْقُرْآنُ؛ لَا أَنَّهَا تُتْلَىٰ كَمَا يُتْلَىٰ.

وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ عَلَىٰ ذَلِكَ بِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ، لَيْسَ

هَذَا مَوْضِعَ ذَلِكَ.

الْغَرَضُ: أَنَّكَ تَطْلُبُ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فَمِنَ السُّنَّةِ؛ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُعَاذٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَىٰ الْيَمَنِ: «بِمَ تَحْكُمُ؟»

قَالَ: بِكِتَابِ اللهِ.

قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟».

قَالَ: بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ.

قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟».

قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي.

قَالَ: فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِهِ، وَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ»، وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الْمَسَانِدِ وَالسُّنَنِ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ].

الشَّرْح:

هذا الفصل في أحسن طرق التفسير، ودلالة شيخ الإسلام طلبة العلم علىٰ أحسن طرق التفسير المقصود منه نصيحةُ العلماء وطلبة العلم ومن أراد التفقُّه في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في المنهج الذي يتلقون به معاني القرآن، فكيف تُفسِّر القرآن؟

ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ أن أول المنهج في تفسير القرآن: هو أن يفسَّر القرآن بالقرآن؛ لأنَّ القرآن كالسورة الواحدة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ

ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، فمعانيه متعاضدة في بيان ما أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالتعبُّد له به سبحانه من معاني القرآن واعتقاده، والقرآن يفسِّر بعضه بعضًا؛ لأنَّه كله وحيٌ محكم من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مؤتلف لا يختلف.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ تفسير القرآن إن كان بالقرآن أو السنَّة فإنَّه نصٌّ لا يمكن لأحدٍ أن يتجاوزه».

وتفسير القرآن بالقرآن ليس معناه أن تأخذ تفسيره بدون الرجوع إلىٰ السنَّة، وإنما أراد شيخ الإسلام أنه أول ما تبتدئ به من طلب معاني الآية هو هكذا؛ أن تجمع النصوص المتعلِّقة بمعاني الآية في الموضوع الواحد جميعًا من القرآن؛ حتىٰ لا يحصل لك زلل ولا نقص في فهم الآية، فإنَّ الخوارج ضلَّت بسبب عدم جمعها لنصوص المسألة الواحدة، من ذلك قولهم لعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: حكّمت الرجال فأنكر عليهم ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عندما احتجوا بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]،، فقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: إنَّ الله أمر بإصلاح ذات بين الأُسَر بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥]، قال: وإصلاح ذات بين فئتين من المسلمين وحقن دمائهم؛ أولىٰ بذلك. فهذا يدلُّ علىٰ ضرورة جمع النصوص من القرآن في الموضوع الواحد جميعًا لمعرفة معنىٰ الآية وأحكامها وتفاصيلها، وأيضًا مع ذلك ترجع إلىٰ السنَّة؛ فإن السنَّة بيانٌ للقرآن، كما قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ

(١) مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٣٠٣).

إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

والمقصود: أن تبدأ أولًا بجمع نصوص القرآن، ومع ذلك تأخذ بالسنة؛ لأن السنة مبيِّنة للقرآن، فالمجمل منه تبينه السنَّة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، والسنَّة أضافت أيضًا أحكامًا جديدة، كتحريم كل ذي ناب من السباع، وكلِّ ذي مخلب من الطير.

وقول شيخ الإسلام: «السنَّة شارحةٌ للقرآن ومُوضِّحةٌ له»، ويقول عادة في مواضع أخرىٰ من كتبه: «مبيِّنة للقرآن»، وهذا اللَّفظ القرآني لمنزلة السُّنَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

واستعمال اللَّفظ القرآني أقوم من قول يحيىٰ بن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السنَّة قاضية علىٰ القرآن»، فالألفاظ القرآنية أحقُّ بالاستعمال، وربَّما أوهمت عبارة يحيىٰ بن أبي كثير أنَّ رتبة السُّنَّة أعلىٰ من القرآن.

وقد سُئل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عبارة يحيىٰ بن أبي كثير، فقال: لا أجترئ هذا اللفظ، ولكن السُّنَّة تُفسِّر القرآن وتبيِّنه، وتدلُّ عليه، وتعبِّر عنه[1].

وبيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبب عدول الإمام أحمد عن لفظة (تقضي)، فقال[2]: «عدل عن لفظ: «تقضي عليه»؛ لأنَّها تُشعر المخاطبين في زمنه بأنها أعلىٰ منه، إلىٰ لفظ: «البيان، والتفسير»».

(١، ٢) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص٨٣).

فالسُّنَّة شارحة للقرآن ومبيِّنة لمعانيه، وتُعيِّن المعاني المشتركة.

مثال: قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: ٦]، وبيَّنت السُّنَّة أنَّ من مسح الرِّجلين المسح بإسالة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ المسح مطلق، يدخل فيه المسح بإسالة، وهو الغسل، والمسح بغير إسالة وهو المسح بلا غسل، فالقرآن أمر بمسح مطلق، والسنة تثبت أنَّ المسح في الرأس بغير إسالة؛ والمسح علىٰ الرِّجلين بإسالة، فهي مفسِّرة له؛ لا مخالفة لظاهره، فينبغي تدبُّر القرآن».

ومع بيان السنة تأخذ بفهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ لمعاني القرآن؛ لأنهم حضروا تنزيل القرآن وعلموا أسباب نزول الآيات، وهم أفصح الخلق وأنصح الخلق، وبلُغتهم نزل القرآن، وكانوا أيضًا يسألون النبيَّ ﷺ عمَّا يشكل عليهم من معانيه، وعنه تلقوا معاني الوحي مباشرة، فهذه الخصوصيات لا توجد لغيرهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ.

ولذلك قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا في محاجَّة الخوارج: أتيتكم من عند صهر رسول الله ﷺ، ومن عند الصحابة الذين نزل عليهم القرآن وهم أعلم بتأويله. هذا كلام عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، وهو ترجمان القرآن ومن سادات آل البيت، جعل الصحابة مرجعًا في تفسير القرآن وفهم معانيه، وهذه المنهجيَّة هي معنىٰ ما في حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، حين قال له النبيُّ ﷺ: «**بِمَ تَحْكُمُ؟**»، قَالَ: بِكِتَابِ اللهِ.

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٢/ ٤١٥).

قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟»، قَالَ: بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وليس المعنىٰ أن لا تأخذ فهم القرآن بالقرآن والسنَّة معًا، وكذلك ليس معناه عدم حجيَّة السنَّة، وهذه المنهجية هي منهج الصحابة جميعًا، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اقضِ بكتاب الله، فإن لم يكن فبِسنَّة رسول الله ﷺ». رواه الدارمي، والنسائي، وقال النسائي: إسناده جيِّدٌ جيدٌ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «سلوك الصَّحابة والتَّابعين ومن درج علىٰ آثارهم من الأئمَّة: أوَّل ما يطلبون النازلة من القرآن، فإن أصابوا حكمها فيه لم يعدوه إلىٰ غيره، وإن لم يصيبوها فيه طلبوها من سنَّة رسول الله ﷺ، فإن أصابوها لم يعدوها إلىٰ غيرها، وإن لم يصيبوها طلبوها من اتِّفاق العلماء».

ورتبة السنَّة ليست كرتبة القرآن، فالقرآن متعبَّدٌ بتلاوته لفظًا، فلا يجوز لأحد أن يقرأ بالمعنىٰ، أما السنَّة فيمكن رواية الحديث بالمعنىٰ إذا كان الراوي لا يُحيل المعاني، والقرآن متعبَّدٌ بتلاوته في الصلاة - كما ذكر شيخ الإسلام -، وهذا ليس لأحاديث النبيِّ ﷺ، لكن الكل وحي من عند الله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]، فإذًا نأخذ معاني القرآن بجمع نصوص القرآن؛ فالقرآن يفسِّرُ بعضه بعضًا، فما أُجمل في موضع، تجده مفصَّلًا في موضع آخر، وكذلك بعض النصوص تجدها محكمة في موضع، وربما نسختها آيات أخرىٰ في موضع آخر، وبعضها مطلقة في موضع ومقيدة في موضع

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٣٤، ٨٣٥).

آخر، وبعضها عامَّة في موضع ومخصَّصة في موضع آخر، فلا بدَّ من جمع النصوص جميعًا في القرآن في الموضوع الواحد، وكذلك نأخذ بيان ذلك من السنَّة، وأيضًا من فهم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؛ لأنهم تلامذة النبيِّ ﷺ وبطانته، وعنه أخذوا معاني القرآن، وهذا هو الواجب، وهذه المرجعية التي نبَّه عليها ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ منهجيَّتنا جميعًا، فلا نتعالم، وأي تفسير للصحابة؛ فهو دائر عند السلف بين أن يكون له حكم المرفوع أو حجيَّة قوَّة الفهم؛ لأن النبي ﷺ قال في حال الاختلاف إذا وقعت الفرقة: «**عليكم بسُنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»، وأيضًا خصَّ من أولئك أبا بكر الصِّدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال للمرأة: «**ائتي من قابل**». قالت: أرأيت إن لم أجدك؟ فقال: «**أئتي أبا بكر** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ». فجعله النبي ﷺ مرجعًا، كذلك أيضًا الصحابة مرجعٌ؛ فالنبي ﷺ بعد أن ذكر أن الأمة ستختلف إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة؛ سأله الصحابة عن الفرقة الناجية؛ فقال: «**ما أنا عليه وأصحابي**».

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الإنسان يطلب معنىٰ الآية من القرآن والسنَّة وفهم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وهذا الذي نقول عنه: «الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة»، وهو الذي دلَّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥**﴾ [النساء: ١١٥].

❁ ❁ ❁

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

[وَحِينَئِذٍ إِذَا لَمْ نَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا فِي السُّنَّةِ؛ رَجَعْنَا فِي ذَلِكَ إِلَىٰ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ؛ فَإِنَّهُمْ أَدْرَىٰ بِذَلِكَ؛ لِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْقَرَائِنِ، وَالْأَحْوَالِ الَّتِي اخْتُصُّوا بِهَا، وَلِمَا لَهُمْ مِنَ الْفَهْمِ التَّامِّ، وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ].

الشَّرح:

هذا أيضًا مرجِّح آخر غير ما ذكرناه من أنَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أنصح الخلق وأفصح الخلق، وأنهم حضروا التنزيل، وكانوا تلاميذ النبيِّ ﷺ وبطانته، ومنه تلقوا معاني القرآن، وهم كانوا يسألونه عمَّا يشكل عليهم من معاني القرآن؛ كذلك هم أتقىٰ الخلق، فلن يأتي مثلهم أبدًا، قال النبيُّ ﷺ: «**خير الناس قرني**» **متَّفق عليه**، والعلم يأتي من التقوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وما كان ولا يكون أتقىٰ ولا أعلم من الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فهم أفضل منَّا في كلِّ شيء، ومن كانت هذه عقيدته فإنَّه عنهم يَتلقىٰ العلم والدين.

والصحابة لحُسن قصدهم في نصح الخلق، لم يكن فيهم مبتدعٌ أبدًا، ولم يكن عندهم إلَّا القرآن والسنَّة الصحيحة، فعلومهم نقيَّة تقيَّة، فليس فيها مكدِّرات من البدع والأحاديث الموضوعة والباطلة التي ظهرت بعد عهد كبار الصحابة؛ فظهرت البدع كالخوارج والرافضة والمعتزلة، ودُسَّت أحاديث موضوعة ومكذوبة علىٰ النبيِّ ﷺ، ورويت أحاديث من رواية الضعفاء، فالصحابة لم يكن عندهم إلَّا المَعِينُ الصافي، كانوا يأخذون من النبيِّ ﷺ مباشرةً، وندرك نحن ذلك

بأن نأخذه عنهم بالأحاديث والمرويَّات عنهم بالأسانيد الصحيحة؛ لذلك عظمت قيمة كتب التفاسير المسندة لأقوال الصحابة، ومن أعظم ذلك تفسير ابن المنذر، وتفسير عبد بن حميد، و تفسير عبد الرزَّاق، وأعظم ذلك «تفسير الطبري»؛ لأنه جمع آثار الصحابة والتابعين في تفسير معاني القرآن.

والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عندهم أيضًا الفهم التامُّ؛ أي الذكاء، ومن أوتي الفهم فقد رُزق حظًّا عظيمًا من العلم، وهذا الذي نبَّه عليه أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد قال له أبو جحيفة: «يا أمير المؤمنين، هل عهد إليكم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيء ليس في القرآن؟». يعني: أنتم يا آل البيت! هل اختصَّكم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيء من الوحي دون ما في القرآن؟ فقال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا والذي فلق الحبَّة وبرأ النسمة، إلا رجلًا يؤتيه الله فهمًا في القرآن». رواه البخاري.

أي: ليس عند آل البيت قرآن غير هذا القرآن، وهذا فيه أعظم الردِّ علىٰ من ينتسب إلىٰ سادات آل البيت ويقول: عندهم مصحف فاطمة، وليس في مصحفنا هذا إلَّا ثلث ما في مصحف فاطمة! ويقولون: أنَّ الوحي كان يأتي فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وينزل عليها جبريل؛ وهذا من أعظم الكذب والفرية.

وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من سادات آل البيت وهو زوج فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: ليس عندنا شيء، إلَّا أن الناس تتفاضل في فهم القرآن، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من علماء الصحابة في تفسير القرآن، وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو شئت لأوقرت سبعين بعيرًا في تفسير فاتحة القرآن. الله أكبر! لأنَّ معاني القرآن كلَّها ترجع إلىٰ الفاتحة، وهو وعمر بن الخطاب وأبيُّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من شيوخ عبد الله بن

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في التفسير، فابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان غلامًا في وقت النبي ﷺ، وأخذ أكثر العلم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وعليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولي الخلافة خمس سنوات وبضعة أشهر، فما أظهر قرآنًا غير القرآن الذي كان يتلىٰ في عهد النبي ﷺ، والخلفاء الثلاثة من قبله؛ أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان من أشجع الناس، لا تأخذه في الله لومة لائم.

فالناس تتفاضل في الفهم، وذكر ابن القيم في «مدارج السالكين» أن أبا إسماعيل الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ جلس يفسِّر قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أكثر من ثلاثمائة مجلس! سبحان الله! وشيخ الإسلام ابن تيميَّة جلس في الجامع الأمويِّ يفسر سورة نوح - وهي صفحتان - سنتين.

وسيأتي أن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان شيخ الصحابة في الإفتاء في مناسك الحجِّ في عهد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعهد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان يُفسر في موسم الحجِّ سورة النور كاملة، فأبهرت الصحابة وكل من حضر، حتىٰ قالوا: لو سمعت به الديلم لأسلمت، وهذا يدلُّ علىٰ أن تبيين معاني القرآن من أسباب هداية الناس إلىٰ الإسلام.

فالصَّحابة سادات الأُمَّة، أخذوا معاني القرآن من رسول الله ﷺ مباشرة كما أخذوا ألفاظه؛ لذلك أمرنا الله بأخذ الدِّين عنهم، وتوعَّد من رغب عن ذلك أشدَّ العذاب، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من لم يأخذ معاني الكتاب والسُّنَّة من الصَّحابة والتَّابعين، ومن أخذ عنهم؛ فقد استبدل باليقين شكًّا، وبالظنِّ الراجح وهمًا، وبالإيمان كفرًا، وبالهدىٰ ضلالة، وبالعلم جهلًا، وبالبيان عيًّا، وبالعدل ظلمًا، وبالصدق كذبًا، وبالإيمان بكتب الله وبكلماته تحريفًا عن مواضعها».



(١) جواب الاعتراضات المصريَّة علىٰ الفتيا الحموية (ص١٩)، باختصار.

قال المصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

> [لَا سِيَّمَا عُلَمَاؤُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ؛ كَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَالْأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ مِثْلَ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ].

الشَّرْح:

بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ طبقات الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في الفضل والعلم، والصَّحابة كلُّهم خيار عدول أثنىٰ الله علىٰ فئاتهم جميعًا بالخير والحسنىٰ، سواء السَّابقون منهم أو من أسلم بعد صلح الحديبية، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠]، وقال النبي ﷺ: «**خير النَّاس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»، متَّفق عليه من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والنبيُّ ﷺ جعل أبا بكر الصدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرجعًا للصَّحابة جميعًا وللأمَّة كلِّها، فإنَّه ﷺ في مرضه الذي مات فيه أمر أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يُصلِّي بالنَّاس، متَّفق عليه، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**يؤمُّ القوم أقرؤهم لكتاب الله**».

قال الحافظ أبو بكر أحمد البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٤٥٨هـ)**(١): «ففي ذلك دلالة علىٰ أنَّه كان أعلمهم بالسُّنَّة، مع ما دلَّت عليه آثار علمه وزيادة فضله، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ».

وأحال النبيُّ ﷺ علىٰ أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كمرجع للمسلمين في حال عدم

---

(١) المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ (ص١١٩).

وجوده، فقد روىٰ البخاري ومسلم من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أتت النبيَّ ﷺ امرأة، فكلمته في شيء، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: يا رسول الله! أرأيت إن رجعت فلم أجدك. كأنَّها تعني الموت. قال: «**فأتي أبا بكر**».

وأبو بكر الصدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ شيخ المفسِّرين من طبقة الصَّحابة، وأعلمهم بمعاني الوحي من القرآن والسُّنَّة، وأقوم الأمَّة بعد نبيِّها ﷺ في إقامة القرآن علىٰ نفسه ورعيَّته.

ومما ظهر به تفوُّق الصدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في معاني الوحي؛ أنَّ النبيَّ ﷺ خطب فقال: «**إنَّ الله سبحانه خيَّر عبدًا بين الدُّنيا وبين ما عنده؛ فاختار ما عند الله**»، فبكىٰ أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال أبو سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ راوي الحديث: فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ؟ إنْ يكن الله خيَّرَ عبدًا بين الدُّنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله؛ فكان رسول الله ﷺ هو العَبْدَ، وكان أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أعلمنا. رواه البخاري.

ومن أعظم ما فاق به الصدِّيقُ الصحابةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في تفسير القرآن؛ استحضارُه لمعانيه عند النَّوازل والمدلهمَّات؛ فإنَّه ذكَّر الصَّحابة عند ذهولهم في وفاة النبي ﷺ بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، رواه البخاري.

ومن أعظم ما فاق به الصدِّيقُ جميعَ الصَّحابة - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وعنهم - في تفسير القرآن؛ قوةُ تصديقه بأخباره، ومن جملة ذلك ما فيه من الوعد بالنَّصر للمؤمنين، ولذلك جاهد الرُّوم والفرس والمرتدِّين في وقت واحد، وقد كلَّمه بعض الصَّحابة ألَّا يُنفذ جيش أسامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لجهاد الروم، وأن يستعمله في جهاد المرتدين، فأبىٰ إلا أن ينفذ وصيَّة النبي ﷺ.

ومن أعظم ما ظهرت به صديقيَّة أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الشَّدائد المزلزلة؛ موقفُه في صلح الحديبية حين وجد بعض الصَّحابة غضاضة فيه، وكلَّموه في ذلك بعد أن كلَّموا رسول الله ﷺ، فقال الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إنَّه رسول الله ﷺ ولن يُضيِّعه. رواه البخاري.

وظهر لكلِّ الصَّحابة فضل فهم الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لمعاني القرآن، حيث قاتل المرتدِّين الذين لم يأتوا بحقِّ التَّوحيد من أركان الإسلام، وتبيَّن لهم بتبيينه صحيح فهمه، وأجمعوا علىٰ تصويبه.

وقد كان أبو بكر الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ شيخ الصَّحابة وأستاذهم ومعلِّمهم ووليَّ أمرهم، وكان يُفسِّر لهم معاني القرآن ليتلقَّوا معانيه بالفهم الصَّحيح حتَّىٰ لا يخطئ النَّاس في أحكام الشَّرع ومعانيه، فقد روىٰ أحمد والتِّرمذي أنَّ أبا بكر الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ خطب النَّاس علىٰ منبر رسول الله ﷺ فقال: «أيها النَّاس إنَّكم تقرءون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيِّروه، أوشك أن يعمَّهم الله بعقاب من عنده**».

وكان الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنهُ مرجع الصَّحابة في تبيين معاني الوحي وأحكام الشَّرع؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: «الصحابة في زمن أبي بكر لم يكونوا يتنازعون في مسألة إلا فصلها بينهم أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ وارتفع النزاع.

فلا يُعرف بينهم في زمانه مسألة واحدة تنازعوا فيها إلا ارتفع النزاع بينهم بسببه؛ كتنازعهم في وفاته ﷺ ومدفنه، وفي ميراثه، وفي تجهيز جيش أسامة، وقتال مانعي الزكاة، وغير ذلك من المسائل الكبار، بل كان خليفة رسول الله ﷺ فيهم: يُعلِّمهم ويُقوِّمهم، ويبيِّن لهم ما تزول معه الشبهة، فلم يكونوا معه يختلفون».

هذه نماذج من فضل الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنهُ علىٰ جميع الصَّحابة في الفهم، وبهذا يتبيَّن خطأ العلامة محمد بن سليمان الكافيجي رَحِمَهُٱللَّهُ حيث قال[٢]: «صدر المفسِّرين عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ»، وهو من علماء الصَّحابة بلا ريب، إلَّا أن رتبته بعد الصدِّيق والفاروق وذي النورين.

وأثنىٰ النبيُّ ﷺ علىٰ علم الفاروق عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وأشاد بتفوُّقه علىٰ عامَّة الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنهُم في ذلك، ففي الصَّحيحين من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا عن رسول الله ﷺ؛ أنَّه قال: «**بينما أنا نائم إذ رأيت قدحًا، أتيت به فيه لبن، فشربت منه حتىٰ إنِّي لأرىٰ الرّيَّ يجري في أظفاري، ثم أعطيت فَضْلي عمر بن الخطَّاب**»، قالوا: فما أوَّلْتَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «**العلم**».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٤٠٥).

(٢) التيسير في قواعد علم التفسير (ص٢٤٦).

والفاروق عمر بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ جاء القرآن بموافقة قوله في مواضع، واختصّ من بين الأمَّة بأنَّه مُلهم للحقِّ؛ فقد روىٰ البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون، فإن يك في أمَّتي أحد فإنَّه عمر**».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «وعند مسلم من رواية ابن وهب «ملهمون، وهي الإصابة بغير نبوَّة»».

وقال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[2]: «لو وُضع علم عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في كفَّة ميزان، وجُعل علم أهل الأرض في كفَّة، لرجح علم عمر».

وقال إبراهيم النَّخعي رَحِمَهُٱللَّهُ[3]: «والله! إنِّي لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم».

وقال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ[4]: «هو أعلم الأمَّة بعد الصدِّيق علىٰ الإطلاق».

وسبق بيان منزلة ذي النورين عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في تفسير القرآن في شرح أثر أبي عبد الرحمن السلمي.

وأثر أبي عبد الرَّحمن السُّلمي في تلقِّي التَّابعين تفسير القرآن ومعانيه من عثمان بن عفَّان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ دالٌّ علىٰ بروز ونبوغ عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في علم التَّفسير، وأنَّ تفسيره دوَّنه التَّابعون.

---

(١) فتح الباري (٧/ ٦٤).

(٢، ٣، ٤) إعلام الموقِّعين (٣/ ١٥٩).

وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له المنَّة علىٰ الأمَّة كلها في حفظ قرآنها، وأدائه إلينا، فإنَّه في ولايته أمر بجمع القرآن كلّه علىٰ العرضة الأخيرة التي ذاكر جبريل بها النبيُّ ﷺ، وبعد جَمْعه في مصحف واحد بعث به إلىٰ الأمصار، وهو هذا المصحف الذي نحفظه ونتدارسه ونأخذ عنه ديننا.

فلا إله إلا الله، ما أعظم بركة هذا الخليفة علىٰ أمَّة الإسلام! جلس بخاصة نفسه لتعليم التَّابعين ألفاظ ومعاني القرآن، ثم عندما صار واليًا حفظ علىٰ المسلمين قرآنهم ودينهم، وبعث إلىٰ الأمصار من يُعلِّمهم دين الإسلام، وكان ذلك من أسباب ظهور الإسلام علىٰ الدين كله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «علم الإسلام انتشر في مدائن الإسلام بالحجاز والشام واليمن والعراق وخراسان ومصر والمغرب قبل أن يقدم عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ الكوفة، ولما صار إلىٰ الكوفة عامة ما بلَّغه من العلم بلَّغه غيره من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يختص عليٌّ بتبليغ شيء من العلم إلا وقد اختص غيره بما هو أكثر منه، فالتبليغ العام الحاصل بالولاية حصل لأبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منه أكثر مما حصل لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

وإجماع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ تقديم عثمان علىٰ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هو إجماع علىٰ تفضيله في دينه وعلمه، فهذه أهم معايير التَّقديم والتَّفضيل عند الصَّحابة، قال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مشاورته للصَّحابة في اختيار

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ١٢٨).

الخليفة بعد الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لم أرهم يعدلون بعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحدًا، رواه البخاري.

وخصَّ النبيُّ ﷺ خلفاءه من بين الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالحثِّ علىٰ اتِّباعهم الأربعة، فعن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كل بدعة ضلالة**»[1].

قال المحدِّث الفقيه الحسين بن مسعود البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «أمر بلزوم سُنَّته، وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين، والتمسُّك بها بأبلغ وجوه الجدِّ، ومجانبة ما أُحدث علىٰ خلافها».

ومن علماء الصَّحابة الذين أمر النبيّ ﷺ بتلقِّي علم القرآن عنه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال النبيُّ ﷺ: «**مَن أحبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل؛ فليقرأه علىٰ قراءة ابن أم عبد**».

وكان الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يشبهون سمت ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسمت وهدي النبيِّ ﷺ.

وقال عنه النبيُّ ﷺ وهو غلام: «غليم معلم»، رواه أحمد بإسناد حسن.

وفضل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في علم القرآن والتَّفسير معلوم، قال ابن

---

(١) حديث صحيح مروي في المسند والسنن.

(٢) شرح السنة (١/ ١٢٨).

مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «لقد قرأت على رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، ولقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنِّي أعلمهم بكتاب الله، ولو أعلم أنَّ أحدًا أعلمُ مني لرحلت إليه»، متَّفق عليه.

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «إنَّ الصَّحَابَة لَمْ يُنْكِرُوا قَوْلَ ابْنِ مَسْعُود أَنَّهُ أَعْلَمُهُمْ، وَالْمُرَاد أَعْلَمُهُمْ بِكِتَابِ الله كَمَا صَرَّحَ بِهِ؛ فَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَعْلَم مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وَغَيْرهمْ بِالسُّنَّةِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ أَفْضَل مِنْهُمْ عِنْد الله تَعَالَىٰ، فَقَدْ يَكُونُ وَاحِد أَعْلَم مِنْ آخر بِبَابٍ مِنَ الْعِلْم، أَوْ بِنَوْعٍ، وَالْآخَرُ أَعْلَم مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَة. وَقَدْ يَكُون وَاحِد أَعْلَم مِنْ آخَر، وَذَاكَ أَفْضَل عِنْد الله تعالىٰ بِزِيَادَةِ تَقْوَاهُ وَخَشْيَتِهِ وَوَرَعِهِ، وَزُهْدِهِ وَطَهَارَةِ قَلْبِهِ، وَغَيْر ذَلِكَ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْخُلَفَاء الرَّاشِدِينَ الْأَرْبَعَة كُلّ مِنْهُمْ أَفْضَل مِنَ اِبْن مَسْعُود».

وأكابر الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ شهدوا لابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ بالعلم، قال فيه الفاروق عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «كنيف – وعاء – ملئ علمًا»[2]، وقال عنه أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «أما ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فقرأ القرآن، وعلم السنة، وكفىٰ بذلك»، رواه الحاكم وصححه الذهبي.

ومن أكابر علماء الصَّحابة أبيُّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وقد كان مرجعًا للصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وقد أمر النبي ﷺ بأخذ علم القرآن عنه، وأثنىٰ النبيُّ ﷺ

(١) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص١٤٩٥).
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ص٤٨٦).

علىٰ علميَّته خصوصًا في علوم القرآن، قال النبيُّ ﷺ له: «**أي آية في كتاب الله معك أعظم؟**» قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فضرب النبيُّ ﷺ في صدره وقال: «**ليهنك العلم أبا المنذر**»، رواه مسلم.

ومن عظيم فضائله أنَّ رسول الله ﷺ قال له: «**إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك:** ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة: ١]»، قال أبيٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وسماني؟ قال: «**نعم**»، فبكىٰ أبيٌّ. متَّفق عليه من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قرأ عليه ليسن عرض القرآن علىٰ حفَّاظه البارعين فيه المجيدين لأدائه».

وكان أبيُّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «أقرأ» الصَّحابة رضي الله عنه وعنهم، ومن أجل ذلك جمع الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ النَّاس علىٰ إمامته وقراءته للقرآن في قيام رمضان بعد وفاة النبيِّ ﷺ.

ومن علماء الصَّحابة المبرّزين في العلم عمومًا وفي علم التَّفسير خصوصًا؛ حبر الأمَّة وترجمان القرآن عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، الذي أدركته بركة دعاء النبيِّ ﷺ له في قوله: «**اللهم فقِّهه في الدِّين، وعلِّمه التأويل**»، رواه البخاري. وكان من دعاء النبي ﷺ له: «**اللهم بارك فيه، وانشر منه، واجعله من عبادك الصَّالحين**»[٢].

---

(١) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص١٤٩٦).

(٢) رواه الحاكم، وصححه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (ص٤٦٦).

وكان الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ متواضعين لبعضهم البعض، في الثَّناء علىٰ العلماء منهم، قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا».

وكان الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ متواضعين في الاستفادة والإفادة من علوم بعضهم البعض.

كان طُلَّاب ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يسألونه في التَّفسير، ويجيب بما أخذه من علوم الصَّحابة في ذلك؛ ففي الصَّحيحين عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: إنَّ نوفًا البكالي يزعم أن موسىٰ صاحب الخضر ليس موسىٰ بني إسرائيل! فقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: كذب عدوُّ الله! أخبرني أبيُّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: خطبنا رسول الله ﷺ، ثم ذكر حديث موسىٰ والخضر بشيء يدلُّ علىٰ أن موسىٰ بني إسرائيل صاحب الخضر.

وقال الشّعبي رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: «كان العلم يُؤخذ عن ستَّة من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان عمر وعليٌّ وعبد الله - ابن مسعود - وزيد بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يشبه بعضهم بعضًا، وكان يقتبس بعضهم من بعض. وكان عليٌّ وأبو موسىٰ وأبيُّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يشبه علم بعضهم بعضًا، وكان يقتبس بعضهم من بعض».

وقال عبد الله بن أبي يزيد: «كان ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا إذا سُئل عن شيء، وكان في كتاب الله؛ قال به، فإن لم يكن في كتاب الله؛ وكان عن رسول الله ﷺ فيه شيء؛ قال به، فإن لم يكن عن رسول الله ﷺ فيه شيء؛ قال بما قال به أبو بكر

---

(١) إجمال الإصابة في أقوال الصَّحابة (ص٦٦).

وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا»[١].

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يقول**[٢]: «أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن»، يعني: عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والأمَّة كلُّها تلقَّت علومها ودينها عن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من طبقة التَّابعين إلىٰ يومنا هذا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «العلم إنَّما انتشر في الآفاق عن أصحاب رسول الله ﷺ؛ فهم الذين فتحوا البلاد بالجهاد، والقلوب بالعلم والقرآن، فملؤوا الدنيا خيرًا وعلمًا، والنَّاس في بقايا آثار علمهم».

والحاصل أنَّ النَّاس كانوا يتلقَّون العلم عن النبيِّ ﷺ مباشرة حال حياته، ومن قُبض بعده سريعًا كأبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان تدوين العلم عنه قليلًا، فإنَّه تُوفِّي بعد النبيِّ ﷺ بسنتين، ودُوِّن علم الأكابر الذين بقوا مدَّة بعد وفاة أفضل الخلق محمد ﷺ.

قال محمد بن عمر الواقدي الأسلمي[٤]: «إنَّما قلَّت الرواية عن الأكابر من أصحاب رسول الله، ﷺ؛ لأنَّهم هلكوا قبل أن يُحتاج إليهم، وإنَّما كثرت عن عمر بن الخطَّاب وعليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنَّهما وَلِيَا فسُئِلَا وقَضَيَا بين

(١، ٢) إجمال الإصابة في أقوال الصَّحابة (ص٥٦).

(٣) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ (ص٢٩١).

(٤) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٢٣، ٣٢٤)، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة.

الناس، وكلُّ أصحاب رسول الله ﷺ، كانوا أئمة يُقتدىٰ بهم ويُحفظ عليهم ما كانوا يفعلون ويُستفتون فيُفتون، وسمعوا أحاديث فأدّوها، فكان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، أقلَّ حديثًا عنه من غيرهم؛ مثل أبي بكر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقَّاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأبي عبيدة بن الجرَّاح، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وأُبَيِّ بن كعب، وسعد بن عبادة، وعبادة بن الصامت، وأسيد بن الحضير، ومعاذ بن جبل، ونظرائهم، فلم يأت عنهم من كثرة الحديث مثل ما جاء عن الأحداث من أصحاب رسول الله ﷺ، مثل: جابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر بن الخطَّاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن العبَّاس، ورافع بن خديج، وأنس بن مالك، والبراء بن عازب، ونظرائهم، وكلّ هؤلاء كان يُعَدُّ من فقهاء أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا يَلْزَمُون رسولَ الله ﷺ، مع غيرهم من نظرائهم، وأحْدَث منهم مثل: عقبة بن عامر الجهني، وزيد بن خالد الجهني، وعمران بن الحصين، والنُّعمان بن بشير، ومعاوية بن أبي سفيان، وسهل بن سعد الساعدي، وعبد الله بن يزيد الخَطْميّ، ومسلمة بن مَخْلَد الزُّرَقيّ، وربيعة بن كعب الأسلميّ، وهند وأسماء ابني حارثة الأسلميَّيْن، وكانا يخدمان رسول الله ﷺ، ويَلْزَمَانه، فكان أكثر الرواية والعلم في هؤلاء ونُظرائهم من أصحاب رسول الله ﷺ؛ لأنَّهم بَقُوا وطالت أعمارهم واحتاج الناس إليهم، ومضىٰ كثير من أصحاب رسول الله ﷺ قبله وبعده بعلمه لم يُؤْثَرْ عنه بشيء، ولم يُحْتج إليه لكثرة أصحاب رسول الله ﷺ».

وقول الواقدي أنَّ علم أصاغر الصَّحابة اشتهر بسبب الحاجة إليهم، وأنَّ أبا بكر لم يُنقل عنه الكثير من العلم، تقصير منه، فقد ولِيَ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحكامًا عظيمة كثيرة، استوعبت الدِّين كلّه، خصوصًا أساس بنيانه.

ففي السَّنَة التَّاسعة بعثه النبيُّ ﷺ بأحكام الحجّ وأحكام معاهدات وجهاد الكفار، وحضر بنفسه مع رسول الله ﷺ أحكام الهجرة، وأدرك معه استعانته بالكافر عبد الله بن أُريقط، وتوريته في الطَّريق، ومعاريض الكلام التي استعملها.

وولي أمر الأمة وأقام أحكام ولاية أمر المؤمنين بتعيين واستخلاف الحاكم بعده، وأحكام جهاد المرتدِّين، وقام بتبيين حقوق التَّوحيد ولوازمه، وأحكام تركة النبي ﷺ، وميراث الجدِّ مع وجود الإخوة، وفقه الشورىٰ، وأحكام جمع القرآن في مصحف واحد، وأحكام الزَّكاة مفصَّلة أرسلها إلىٰ البحرين ليأخذوا فيها بيان النبي ﷺ ، وأحكام أخذ ولي أمر المسلمين الرزق من بيت مال المسلمين، إلىٰ غير ذلك ممَّا لا يأتي عليه الحصر.

فالواقدي لم ينصف أبا بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يستوعب أسباب أداء الصَّحابة للعلم، فإنَّه حصره بالحاجة لتبيينه في الأحكام، والصَّحابة كانوا يتدارسون العلم عبادة، قال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن العلم: «مدارسته تسبيح»، وكانوا يتدارسون العلم تجديدًا لإيمانهم، ومذاكرةً له حفظًا له عن النسيان.

وكانوا يعلمون النَّاس العلم كلّه لأمر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ لأدائه للنَّاس كافَّة بكل حال وليس عند الحاجة فقط.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

> [قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ قَالَ: أَنْبَأَنَا جَابِرُ بْنُ نُوحٍ: أَنْبَأَنَا الْأَعْمَشُ، عَنِ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ - يَعْنِي: ابْنَ مَسْعُودٍ -: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ؛ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ نَزَلَتْ، وَأَيْنَ نَزَلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ مَكَانَ أَحَدٍ أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللهِ مِنِّي تَنَالُهُ الْمَطَايَا؛ لَأَتَيْتُهُ».
>
> وَقَالَ الْأَعْمَشُ أَيْضًا: عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ، وَالْعَمَلَ بِهِنَّ»].

الشَّرح:

هذه منهجية الصحابة في طلب معاني القرآن؛ فأولًا: قراءتهم للقرآن كانت تدبُّرًا لا هذًّا، فإن كنت تريد أن تدرك معاني القرآن فلتقرأ في المجلس الواحد عشر آيات، وفي بعض الروايات: «أو خمس آيات»، هكذا كان العلم في المدينة التي هي معقل السنَّة ومجمع الصحابة جميعًا قبل أن يتفرَّقوا في الأمصار، وهكذا كان علماء السلف في المدينة، فلم يكن الإمام مالك يتجاوز في اليوم الواحد شرح خمسة أحاديث.

وبعض الأحاديث لو أُعطيت حقَّها من الشرح ستأخذ مصنَّفات؛ ولذلك قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: العالم هو الذي يعطي كل حديث حقَّه[١].

---

(١) الجرح والتّعديل (١/ ٤٤).

وكذلك تعطي كل آية حقَّها من التفسير والبيان والشرح، واستظهار المعنىٰ واستنباط الفوائد.

انظر إلىٰ جهود العلماء في شرح الآيات والأحاديث؛ فابن ناصر الدين الدمشق رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ صنَّف مجلدًا في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ولو فسَّر القرآن كلَّه بهذه القوة وبهذا النشاط وعلىٰ هذا النمط ربَّما خرج تفسيره في ثلاثمائة مجلد أو أكثر، وكذلك ذكر العلماء عن أبي بكر بن الأنباري أن تفسيره في ثلاثمائة مجلَّد - ولم أره مطبوعًا -، وحديث ذي اليدين في سجود السهو أفرده الحافظ العلائي في مصنَّف كامل، مجلد.

فالصحابة كانوا يأخذون العلم عشر آيات عشر آيات في المجلس الواحد، ويتعلَّمون معانيها مع التلاوة ومع العمل بها؛ هذا هو المقصود الأعظم، وكل من تحقَّق بالعمل فهو ممَّن أوتي علمًا، فالعلم يهتف بالعمل، والإنسان يجتهد أن يأتي من العمل ما يؤدي حق هذا العلم الذي أخذه وتلقاه وتعلمه، ويُعلِّمه؛ فبتعليم العلم يُحفظ الدين وتُحفظ شرائع الإسلام، وتظهر آثار النبوَّة، ويقلُّ الجهل، وتضمحل البدع والضلالات، وتحفظ أديان الناس ودنياهم أيضًا، فإنَّ بعض البدع، يُفسد البلدان والأديان كبدع الرافضة والخوارج، وبعضها تهدم الدين هدمًا، فالذي يكفِّر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إنَّما يهدم الدين لأنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم الذين نقلوا الدين للأمَّة جميعًا.

المقصود: معرفة منهجية الصحابة في تعلُّم وتعليم التفسير، وعلم التفسير قد أدَّاه الصحابة إلىٰ التابعين كاملًا، وأكثر معاني التفسير مدوَّنة عن إمامي التفسير ابن مسعود وابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ولكلٍّ تلاميذ تلقوا عنه علم التفسير مشافهة، وهذه هي منهجيَّة أهل السنَّة والجماعة، في كلِّ العلوم، وليس فقط في علم التفسير، فكلُّ العلوم لابد أن تؤخذ مشافهةً عن العلماء، فمن كان شيخه كتابه كثر خطؤه وقَلَّ صوابه. وبعضهم يصل به ضلال فهمه إلىٰ مذاهب الخوارج والمبتدعة بأنواعها، فلابدَّ أن يتلقىٰ الإنسان العلم عن العلماء، ويكمِّل أيضًا تعلمه بالقراءة، ولا يكتفي فقط بالمشافهة، بل يُشافه العلماء ويقرأ في الكتب، وأيضًا يسأل العلماء عن معاني مواضع الإشكال التي يقرؤها في الكتب، والعلم يغذي بعضه بعضًا، كما قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ.

وهذا فيه ردٌّ علىٰ المفوِّضة الذين يقولون: أن الصحابة لا يعرفون معاني كثير من القرآن، خصوصًا نصوص الأسماء والصفات، وهذا كذبٌ عليهم، وذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ أن هذا القول أعظم الأقوال هدمًا للدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «يجب أن يُعلم أنَّ من أعظم أبواب الصدِّ عن سبيل الله، وإطفاء نور الله، والإلحاد في آيات الله، وإبطال رسالة الله؛ دعوىٰ كون القرآن لا يُفهم معناه، ولا طريق لنا إلىٰ العلم بمعناه».

بل الصحابة قد أدَّوا معاني القرآن إلىٰ التابعين، وحُفظ هذا العلم ودوِّن

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص٢٤).

بالأسانيد في مصنَّفات العلماء بالمأثور في ذلك.

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عرضتُ المصحف علىٰ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ثلاث مرات، أوقفه عند كل آية وأسأله عن معناها». تأمَّلوا ذلك! ولذلك فتفسير مجاهد عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا من أرجح التفاسير عند الإمام أحمد والبخاريِّ، وشيخ الإسلام أيضًا، وعند عامَّة العلماء.

فالنبيُّ ﷺ أدىٰ معاني القرآن إلىٰ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، والصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كانوا يقيمون معاني ما علَّمهم النبيُّ ﷺ من الدين بالعمل به وبتعليم معانيه لمن تلقَّىٰ العلم عنهم، وكانت عنايتهم بعلم القرآن أشدّ من غيره، وفي حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في «صحيح مسلم» قال: «كان النبي ﷺ يعلمنا التشهُّد في الصلاة كما يعلمنا السورة من القرآن». فتعليم السورة من القرآن كان من أعظم ما علّمهم النبي ﷺ؛ ولذلك كان ما يتعاهدهم النبي ﷺ بتعليمه يشبهونه بهذا الأصل، وهذا يدلُّ علىٰ أهميَّة وأولوية العناية بتدبُّر معاني القرآن، وعن عثمان بن عفَّان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**»، رواه البخاري.

وهناك علوم لابدَّ أن يطلبها المسلم قبل أن يطلب معاني القرآن؛ فيأخذ من اللغة ما يقيم به لسانه ويفهم به معاني الكلام، وأيضًا يطلب علم الحديث، ويطلب علم القواعد الفقهيَّة، وأصول الفقه، والفقه، ويطلب أيضًا العقيدة - وهو أوَّل ذلك -، وقواعد التفسير، وأصول التفسير ومناهج المفسِّرين، الذي صنَّف فيه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المصنف، فهذه كلُّها علومٌ تعين علىٰ طلب

معاني القرآن، فيأخذه طالب العلم بالمشافهة عن العلماء المعتبرين في تفسير القرآن، وأيضًا يأخذ عنهم العلوم التي ذكرناها مشافهةً، ويقرأ مع ذلك مصنَّفات العلماء النافعة في التفسير.



وقول المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[وَمِنْهُمُ الْحَبْرُ الْبَحْرُ: عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ بِبَرَكَةِ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهُ؛ حَيْثُ قَالَ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ».

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، أَنْبَأَنَا وَكِيعٌ، أَنْبَأَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ مُسْلِمٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ؛ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ - يَعْنِي: ابْنَ مَسْعُودٍ -: «نِعْمَ تَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ».

ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ دَاوُدَ، عَنْ إِسْحَاقَ الْأَزْرَقِ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمِ بْنِ صُبَيْحٍ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّهُ قَالَ: «نِعْمَ التَّرْجُمَانُ لِلْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ».

ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ بُنْدَارٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَوْنٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ؛ بِهِ كَذَلِكَ.

فَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَىٰ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ هَذِهِ الْعِبَارَةَ، وَقَدْ مَاتَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ عَلَىٰ الصَّحِيحِ، وَعُمِّرَ بَعْدَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا كَسَبَهُ مِنَ الْعُلُومِ بَعْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ؟!

وَقَالَ الْأَعْمَشُ: عَنْ أَبِي وَائِلٍ: اسْتَخْلَفَ عَلِيٌّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ عَلَىٰ الْمَوْسِمِ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَقَرَأَ فِي خُطْبَتِهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ - وَفِي رِوَايَةٍ: سُورَةَ النُّورِ - فَفَسَّرَهَا تَفْسِيرًا، لَوْ سَمِعَتْهُ الرُّومُ وَالتُّرْكُ وَالدَّيْلَمُ؛ لَأَسْلَمُوا].

الشَّرْح:

هذا فيه بيان طبقات الصَّحابة في علم التفسير، وهذه منهجيَّةٌ في طلب أنواع العلوم، فعندما تطلب علم الفقه أو علم التفسير أو علم معاني الحديث، وهكذا؛ فلابدَّ أن تعرف طبقات العلماء في ذلك بدأً من طبقة الصحابة؛ فهم المعدن الأول في العلم، ثم التابعين، ثم من بعدهم من أئمَّة الإسلام المشهورين، وقد دُوِّنت في طبقاتهم بحسب علمهم في ذلك مصنفات خاصَّة؛ مثل «الإرشاد في معرفة علماء الحديث» للخليلي، و«معرفة القرَّاء الكبار» للحافظ الذهبي و«طبقات المفسرين» للداودي والسيوطي، وفي كل مصنف في فقه كل علم يذكر العلماء طبقات العلماء في ذلك من باب النصيحة والدلالة علىٰ أكثر العلماء تحققًا بهذا العلم من كل طبقة، وذكر شيخ الإسلام هذا في أصول التفسير وفي القواعد الفقهية وهكذا، فقال في «القواعد النورانية الفقهية»: أعلم التابعين في البيوع سعيد بن المسيب، وأعلمهم بفقه الصلاة إبراهيم النخعي، وأعلمهم بفقه مناسك الحج عطاء، والحسن البصري أجمع لذلك كله، والإمام أحمد أخذ من كل تابعي أحسن ما أتقنه. فهذه جمل مختصرة في بيان طبقات العلماء، فهذه منهجية بيّنها شيخ الإسلام للحثِّ علىٰ تقديم الأعلم والأجمع لكل علم ممن أتقنه، وهنا في أصول التفسير نقل شيخ الإسلام قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نعم ترجمان القرآن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا»، فهذه التزكية من أعلم الصحابة في التفسير ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي هذا بيان ما كان عليه الصحابة من الإنصاف للعلماء، وعدم الحسد للأقران، كلهم يدلُّ علىٰ الخير، فلا يحسدون الناس علىٰ العلم الذي أوتوه.

فابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد بتزكية ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن يُوجِّه المسلمين ليأخذوا عنه علم التفسير؛ فهذا حثٌّ لتلقي العلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهكذا عندما ذكرنا طبقة الصحابة فأعلمهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفي طبقات الصحابة أيضًا علماء كبار، مثل أبيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيرهم، والمقصود أن تعرف طبقات العلماء.

والآن نقول: أعلم من أدركنا في وقتنا هذا من كبار العلماء العلَّامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، والعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، وهذا نقصد به الحثَّ علىٰ الاستفادة من علومهما، وهذا فيه صيانة لطلبة العلم عن الأهواء المضلَّة، وفيه تقريب للعلم للمسلمين؛ فإنَّ من لازم الأخذ عنهم مشافهة، وهذا المقدار لو رام طلبه بالقراءة بخاصة نفسه فيستغرق وقتًا أضعاف أضعاف ما إذا أخذه عنهم بالمشافهة وقراءة علومهم، فالعالم يعطيك خلاصة ما أخذه من علمائه وما قرأه بخاصة نفسه، وأنا أنصحكم بقراءة شروحاتهم للعلوم كلِّها، وأيضًا فتاويهم، فلا تكفي قراءة الشروح فقط؛ لأنه في فقه الأحكام التنظير يختلف عن فقه الفتيا، وقد قرأت من مجلدات فتاوىٰ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، ولا أعرف له قولًا يخالف الكتاب والسنَّة، وكذلك شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ لازمته وقرأت كتبه، بَخٍ بَخٍ، علم محرَّر في أسلوب ميسَّر، فهذا تعليم للمنهجية في طلب العلم؛ أن تأخذ من أعلم كل طبقة من العلماء؛ لأن العلم طبقات؛ قال تعالىٰ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ فهناك علماء وأكابر علماء، فابن باز وابن عثيمين من أكابر العلماء، ومن أكابر العلماء أيضًا بعدهم العلَّامة عبد المحسن العبَّاد - حفظه الله وبارك في

علومه -، وهو من الأكابر سنًّا وعلمًا.

وهذه المنهجية مثل ما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **في ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا»، وممَّا قاله أيضًا في منهجية طلب العلم: التحذير من تلقِّي العلم من المتعالمين ومن المبتدعين، فقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يزال النَّاس بخيرٍ ما كان العلمُ في أكابرهم، فإذا صار العلم في أصاغرهم فذلك حين هلكوا»، وبهذا ظهر الفرق بين تعالم الخوارج الذين لم يكن فيهم أحد من الصحابة، وبين فقه ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي تلقَّاه من النبيِّ ﷺ ومن كبار الصحابة.

وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أدركته بركة دعاء النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ دعا له فقال: «**اللهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل**»؛ يعني التفسير؛ والنبي ﷺ مجاب الدعوة، فأدركت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بركة الدعاء وظهر ذلك؛ فالآن ترىٰ غالب التفاسير ترجع إلىٰ ابن عباس وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وتفسير عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حفظه زيد بن أسلم؛ لأن أباه زيدًا كان مولًىٰ لعمر، وعنه أخذ علم التفسير، وأكثر ما دون من تفسير عليٍّ هو من من علم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فإنه تلقىٰ التفسير عن عليٍّ وعن عمر وأبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فأدركت ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بركة دعاء النبي ﷺ له، لذلك فسَّر «سورة النور» تفسيرًا لو سمعته الروم والديلم والترك لأسلموا.

❁ ❁ ❁

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

[وَلِهَذَا غَالِبُ مَا يَرْوِيهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّدِّيُّ الْكَبِيرُ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ: ابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَلَكِنْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَنْقُلُ عَنْهُمْ مَا يَحْكُونَهُ مِنْ أَقَاوِيلِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّتِي أَبَاحَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ حَيْثُ قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو.

وَلِهَذَا كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو قَدْ أَصَابَ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ زَامِلَتَيْنِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَكَانَ يُحَدِّثُ مِنْهُمَا؛ بِمَا فَهِمَهُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْإِذْنِ فِي ذَلِكَ.

وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الْإِسْرَائِيلِيَّةُ تُذْكَرُ لِلاسْتِشْهَادِ لَا لِلاعْتِقَادِ؛ فَإِنَّهَا عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: مَا عَلِمْنَا صِحَّتَهُ مِمَّا بِأَيْدِينَا مِمَّا يَشْهَدُ لَهُ بِالصِّدْقِ؛ فَذَاكَ صَحِيحٌ.

وَالثَّانِي: مَا عَلِمْنَا كَذِبَهُ بِمَا عِنْدَنَا مِمَّا يُخَالِفُهُ.

وَالثَّالِثُ: مَا هُوَ مَسْكوتٌ عَنْهُ؛ لَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَلَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ؛ فَلَا نُؤْمِنُ بِهِ، وَلَا نُكَذِّبُهُ، وَتَجُوزُ حِكَايَتُهُ؛ لِمَا تَقَدَّمَ.

وَغَالِبُ ذَلِكَ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ تَعُودُ إِلَىٰ أَمْرٍ دِينِيٍّ].

الشَّرْح:

نبّه شيخ الإسلام هنا بمن شُهر من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالأخذ عن أهل

الكتاب كعبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أما ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فلم يكن يأخذ عن أهل الكتاب، بل روىٰ البخاريُّ عنه أنه كان ينكر ذلك؛ فقال: «كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم - يعني القرآن - هو آخر ما نزل؟». ويذكر العلماء من شُهر بالأخذ عن أهل الكتاب لأنَّ حكم روايته يختلف عن بقيَّة الصحابة الذين لم يأخذوا عن أهل الكتاب؛ ولذلك يقولون في كتب مصطلح الحديث: إذا كان قول الصحابي فيما لا مجال للاجتهاد فيه - يعني في الأمور الغيبية -، ولم يكن هذا الصحابي من المعروفين بالأخذ عن أهل الكتاب؛ فله حكم الرفع.

لكن إذا كانت روايته عن أهل الكتاب فهنا ننظر؛ إن كان ما قاله موافقًا للقرآن والسنَّة فتُذكر رواية أهل الكتاب للاعتضاد، والأوْلىٰ عدم ذكر ذلك، لكن لو ذكر ذلك للاعتضاد؛ فإن المعول يكون علىٰ القرآن والسُّنَّة؛ لأنَّ كتب أهل الكتاب أصابها التحريف، فالذي يوافق شرعنا فهذا دليلٌ علىٰ أنه لم يصبه التحريف، قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٥]، فبعض ما بقي مما في كتب أهل الكتاب الذي لم يحرَّف إن وجدنا ما يوافقه في القرآن والسنَّة قلنا: أنه يذكر للاعتضاد، ويذكر أيضًا لإلزام أهل الكتاب الحجَّة عليهم، ومن أعظم الحجة عليهم أنَّ نَعْتَ النبي ﷺ وأصحابه مذكور في التوراة والإنجيل، وكان واجبهم الإيمان بمحمد ﷺ لا الكفر به، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩]، فالصحابة أيضًا مذكورون في كتب أهل الكتاب.

لكن هذه الإسرائيليَّات - كما يقول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ - تشغل عن العلم، فالبحث في الإسرائيليات يقطع عن العلم النافع؛ لأننا كما قال الحافظ ابن كثير في «التفسير»: «ليس بنا حاجة إلىٰ شيء ممَّا في كتب أهل الكتاب»، وشريعة من قبلنا لا يراد بها ما في كتب أهل الكتاب، بل حكىٰ الكيا الهراسي الإجماع علىٰ أن المراد بشريعة من قبلنا: ما جاء في القرآن والسنَّة عن أحكام الله وشرعه في شرع من قبلنا من أهل الكتاب، ونبَّه علىٰ هذا شيخ الإسلام في «الصفدية»، وليس المراد ما في صحفهم المبدَّلة والمحرّفة، مثل ما ذكره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن قوم ثمود، وأنه جعل التزود من بئر الماء يومًا للناقة ويومًا لقوم ثمود، ﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وهذه تُسمَّىٰ عند العلماء بـ«قسمة المهايئة»، فلو اشترك اثنان في عقار - منتزه أو استراحة أو مزرعة أو غيرها - يدخلها أحدهم يومًا والآخر يومًا؛ فهذه قسمة مهايئة، وتجوز، فهذه الطريقة في الاستدلال هي التي ذكر العلماء أنَّ هذا شريعة من قبلنا.

ونبَّه شيخ الإسلام أيضًا في «اقتضاء الصراط المستقيم»، فقال: «المرسل ليس بحجَّة عندنا»، والمرسل: هو ما يرفعه التابعي إلىٰ رسول الله ﷺ، وقد يكون التابعي يروي عن تابعي آخر، وليس بالضرورة أنه سمع من الصحابي، فقال:

«فإذا كان المرسل ليس بحجة في شريعتنا فكيف نقبل ما يرويه فلان عن نوح وبينهما آلاف السنين؟!»، فإنك تقرأ في بعض الكتب، أن تابعيًّا قال: قال نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: كذا وكذا. فأين أنت من نوح؟! وبعضهم يقول: قال عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وهو تابعي وبعضهم تابع تابعي، لكن ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ عن عيسىٰ وعن موسىٰ – عليهما السلام –، وأيضًا ما ذكره عن الحكماء كلقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في القرآن نقول به؛ لأنّه مما اتَّفقت عليه الشرائع، قال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: ١٧]، فأوَّل ما وعظ به لقمان ابنه: التوحيد؛ فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]، قال الحافظ عبد الرَّزَّاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا يدلُّ علىٰ أن أول الحكمة الدعوة للتوحيد»، وأي دعوة لا تقوم علىٰ التوحيد هي دعوة ضالَّةٌ وباطلة وليست علىٰ حكمة، وهي مضادة لدعوة المرسلين، ومن الضّلال الذي جعله حزب التبليغ حكمة منهج حزبهم قولهم: من الحكمة أن لا تدعو إلىٰ التوحيد! فالحكمة عندهم أن تترك الناس علىٰ الشِّرك، وتنظر إليهم وهم يُجَصِّصون القبور ويستغيثون بغير الله! فهذا ليس من الحكمة، بل هو من غشِّ المسلمين، وهذا من ضلالهم وعدم تحقُّقهم بالتَّوحيد الذي لا يكون إلَّا بالكفر بما يُعبد من دون الله.

والأشياء التي يخوض فيها بعض المفسِّرين فيما ينقلونه عن أهل الكتاب؛ قد أجمله الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن؛ لأنَّ العلم بتفصيله لا يزيد في الإيمان شيئًا؛ وليس بالمسلمين ضرورة إلىٰ معرفته؛ لذلك أبهمه الله. مثل لون أو نوع كلب أصحاب

الكهف، فهذا من فضول العلم، وقد حثَّنا الله في القرآن علىٰ عدم الالتفات إلىٰ فضول العلم، وأمرنا بطلب العلم النافع، والانشغال بالفضول من ذلك قد يفضي إلىٰ القول علىٰ الله بغير علم؛ لذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأن الخوض في عدد أصحاب الكهف: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢]، أي: اترك الكلام عن غير علم.



قال المصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

[وَلِهَذَا يَخْتَلِفُ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي مِثْلِ هَذَا كَثِيرًا، وَيَأْتِي عَنِ الْمُفَسِّرِينَ خِلَافٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

كَمَا يَذْكُرُونَ فِي مِثْلِ هَذَا أَسْمَاءَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَلَوْنَ كَلْبِهِمْ، وَعِدَّتَهُمْ، وَعَصَا مُوسَىٰ؛ مِنْ أَيِّ الشَّجَرِ كَانَتْ، وَأَسْمَاءَ الطُّيُورِ الَّتِي أَحْيَاهَا اللهُ لِإِبْرَاهِيمَ، وَتَعْيِينَ الْبَعْضِ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ الْقَتِيلُ مِنَ الْبَقَرَةِ، وَنَوْعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي كَلَّمَ اللهُ مِنْهَا مُوسَىٰ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَبْهَمَهُ اللهُ فِي الْقُرْآنِ، مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِي تَعْيِينِهِ تَعُودُ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِينَ فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا دِينِهِمْ].

الشَّرْح:

هذا تحذيرٌ من هذه الإسرائيليات والتعويل عليها، ومن الانشغال بما لا فائدة منه، ومن أنقىٰ التفاسير المعاصرة تفسير العلَّامة عبد الرحمن السعدي؛ فليس فيه إسرائيليات أبدًا - جزاه الله عن الإسلام خيرًا - وكذلك تفسير شيخنا ابن عثمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

والدِّين كامل ولله الحمد، صيانته عن الإسرائيليات واجب، وليس بنا حاجة أن نطلب معاني القرآن منها، وصار الرُّجوع إلىٰ الإسرائيليَّات من أسباب اختلاف المفسِّرين كما ذكر شيخ الإسلام هنا.

فالانتهاء إلىٰ تفسير القرآن بالقرآن والسُّنَّة، وطلب معاني الآيات من تفسير الصَّحابة، والتَّابعين الذين تلقَّوا عنهم؛ صيانةٌ لكتاب الله، وحفظٌ لعلوم المسلمين

من أسباب الخطأ والضَّلال، ومن أُوتي فهمًا لمعاني ألفاظ القرآن، وأفاد باستنباطات تقتضيها ألفاظ الوحي؛ كانت فوائده من تدبُّر القرآن ومعانيه.

والقرآن كلام الله تكفَّل الله ببيانه، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩]، وقد أتمَّ الله بيانه، ولو تدبَّر النَّاس تفسير القرآن بالقرآن، وبالسُّنَّة، وتدبَّروا دلالات ألفاظ القرآن علىٰ معانيها؛ لأدركوا علومًا كثيرة مباركة، فالقرآن ﴿مُبَارَكٌ﴾ لا تنقضي فوائده، كلام رب العالمين.

والمسلم إذا أخذ بأسباب تحصيل معاني القرآن؛ أدرك علومًا عظيمة، وفوائد جليلة، وأوَّل هذه الأسباب قبل طلب أنواع العلوم المعينة علىٰ تحصيل التَّفسير؛ هو الالتجاء إلىٰ الله والاستعانة به، ودعاؤه وسؤاله أن يرزقنا وإيَّاكم فهمًا في القرآن وعملًا به، وهدايةً للنَّاس إليه.

وعبد الله بن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا صار ترجمان القرآن ببركة دعاء النبي ﷺ له، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «فكان بهذا الدُّعاء المبارك حبْر الأمَّة».

والله عَزَّوَجَلَّ اصطفىٰ من سلف الأمَّة من حفظ عليها تفسير النبيِّ ﷺ والصَّحابة والتَّابعين، قال أحمد بن سلمة لأبي حاتم الرَّازي: إنَّ إسحاق بن راهويه أملىٰ التَّفسير عن ظهر قلبه!

فقال أبو حاتم: وهذا أعجب، فإنَّ ضبط الأحاديث المسندة أسهل وأهون من

---

(١) أصول التَّفسير (ص٥٨).

ضبط أسانيد التَّفسير وألفاظها(١).

ولا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم في تعليم كتابه وتحرير علومه، وهنا نستذكر جهود العلَّامة أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تحقيق تفسير الطَّبري وابن كثير، ونستذكر جهود علمائنا المجددين: محمد الأمين الشّنقيطي، وعبد الرحمن السّعدي، ومحمد العثيمين - رحمهم الله - في تدوين تفاسير نقيَّة مليئة بالعلم النَّافع الخليِّ من الإسرائيليَّات وأباطيل الرِّوايات والمعاني.

فالمقصود هو وجوب القيام بحفظ معاني القرآن من الباطل كوجوب حفظ ألفاظه من الزِّيادة أو النَّقص أو التَّحريف، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، ومن أعظم ما يكون من حفظ معاني القرآن من الباطل صيانة تفسيره عن الإسرائيليات.

وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مرويَّات الإسرائيليَّات:

«يختلف فيها علماء أهل الكتاب كثيرًا»، وذلك بسبب تحريف أهل الكتاب للتَّوراة والإنجيل وتضييع أحبارهم لعلومهما.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الإسرائيليات التي تُنقل ليُنْظَر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما يُقْطَع بكذبه؛ لمخالفته للحقِّ الذي بأيدينا. وفي

(١) تهذيب الكمال (١/ ١٧٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٣٠).

القرآن غُنْيَةٌ عن كلِّ ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وُضِعَ فيها أشياء كثيرة. وليس لهم من الحُفَّاظ المُتْقِنين الذين يَنْفُون عنها تحريفَ الغَالِين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمَّة من الأئمة والعلماء، والسادة والأتقياء، والبررة والنُّجباء، من الجهابذة النُّقَّاد، والحُفَّاظ الجياد، الذين دَوَّنوا الحديث وحَرَّرُوه، وبيَّنوا صحيحَه من حَسَنه من ضعيفه، من منكَره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضَّاعِين والكذَّابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال. كلُّ ذلك صيانةً للجناب النبويِّ والمقام المحمديِّ، خاتم الرسل وسيد البشر –عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات - أن يُنْسَب إليه كذبٌ، أو يُحَدَّثَ عنه بما ليس منه؛ فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجَعَل جنَّاتِ الفردوس مأواهم».

❁ ❁ ❁

ثم قال المصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

[وَلَكِنْ نَقْلُ الْخِلَافِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ جَائِزٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف: ٢٢].

فَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَىٰ الْأَدَبِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، وَتَعْلِيمِ مَا يَنْبَغِي فِي مِثْلِ هَذَا؛ فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ؛ ضَعَّفَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ، وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثِ؛ فَدَلَّ عَلَىٰ صِحَّتِهِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ بَاطِلًا لَرَدَّهُ كَمَا رَدَّهُمَا.

ثُمَّ أَرْشَدَ إِلَىٰ أَنَّ الِاطِّلَاعَ عَلَىٰ عِدَّتِهِمْ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ].

الشَّرح:

رجَّح شيخ الإسلام أنَّ عدد أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم؛ من دلالة القرآن، لا من التعويل علىٰ الإسرائيليات، فقال: أن الله لم ينكر هذا القول كما أنكر القول بأنهم ثلاثة ورابعهم كلبهم، وخمسة وسادسهم كلبهم، فقال الله في هذين القولين: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]؛ يعني: قولًا بلا علم.

ومن ألفاظ الآيات في أصحاب الكهف استفدنا أنَّ عددهم غير كثير، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣]، قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هذا من جموع القلَّة، يدلُّ ذلك علىٰ أنَّهم دون العشرة».

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٩٥).

ثم قال العلَّامة السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ومنهم من يقول: سبعة وثامنهم كلبهم، وهذا – والله أعلم – الصَّواب؛ لأنَّ الله أبطل الأولين ولم يبطله، فدلَّ علىٰ صحَّته، وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة دينية ولا دنيويَّة».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٢]؛ تحذيرٌ من استفتاء المتعالمين، قال العلامة عبد الرحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لأنَّ مبنىٰ كلامهم فيهم علىٰ الرجم بالغيب والظنِّ، الذي لا يغني من الحقِّ شيئًا، ففيها دليل علىٰ المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوىٰ؛ إما لقصوره في الأمر المستفتىٰ فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلم به، وليس عنده ورع يحجزه، وإذا نُهي عن استفتاء هذا الجنس؛ فنهيه هو عن الفتوىٰ من باب أولىٰ وأحرىٰ».



(١، ٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٩٧).

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

> [**فَيُقَالُ فِي مِثْلِ هَذَا:** ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، **فَإِنَّهُ مَا يَعْلَمُ بِذَلِكَ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ.**
>
> **فَلِهَذَا قَالَ:** ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾].

الشَّرح:

العظة في قصَّة أصحاب الكهف أن الفئة المؤمنة فرَّت بدينها ممَّن أراد إفساد توحيدها، وأنها فئة قليلة؛ ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ [الكهف: ٢٢]، فالمؤمنون الموحِّدون تولَّاهم الله عَزَّوَجَلَّ حفظًا، وحفظهم عن قومهم الذين أرادوا بهم سوءًا فلم يصلوا إليهم ولم يقتلوهم، وحفظهم الله عَزَّوَجَلَّ وجعلهم للناس آيةً.

وفي القصَّة فوائد وأحكام أخرىٰ: فقوله تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ [الكهف: ١٨]؛ استنبط منها العلماء أنَّ بذل الأسباب من التوكُّل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قادرٌ علىٰ أن يحفظ أبدان فتية الكهف وهم نائمون من غير تقليب لهم، لكن أراد الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا أن يعلم الناس أن تقلُّب الأبدان من أسباب حفظ أبدانهم، فتُحفظ دماؤهم في أبدانهم، ولا يحصل لهم ضرر في أبدانهم لنومهم علىٰ جهة واحدة، وتفاصيل ما يستنبط من هذه الآيات في كتب العلماء والمفسِّرين، ويُرجع فيه أيضًا إلىٰ من آتاه الله عَزَّوَجَلَّ فهمًا في استنباط فوائد القرآن، من غير تعالم ولا تكلُّف؛ ولذلك فَضُل علماء الصحابة علىٰ من بعدهم بأن علمهم من غير تكلُّف؛ لذلك قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصف أصحاب

رسول الله ﷺ: «أبرُّ الأمَّة قلوبًا، وأقلُّهم تكلفًا».

وما حصل من آيات الله في حفظ أصحاب الكهف دالٌّ علىٰ ربوبيَّة الله عز وجل وقدرته وسلطانه وحفظه لأوليائه.

ومن أعظم ما في قصَّة أصحاب الكهف من الفوائد أنَّ الله هو الذي تولَّاهم فحفظ لهم توحيدهم وإيمانهم وصبَّرهم علىٰ مخالفة قومهم المشركين، قال تعالىٰ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: ١٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يقول تعالىٰ: وصبَّرْناهم علىٰ مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرَّغيد والسَّعادة والنِّعمة».

وفي هذا حثٌّ علىٰ الاستعانة بالله في عبادته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].



(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٠٨، ١٠٩).

ثم قال المصنِّف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

[أَيْ: لَا تُجْهِدْ نَفْسَكَ فِيمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، وَلَا تَسْأَلْهُمْ عَنْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا رَجْمَ الْغَيْبِ.

فَهَذَا أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِي حِكَايَةِ الْخِلَافِ؛ أَنْ تُسْتَوْعَبَ الْأَقْوَالُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ، وَأَنْ يُنَبَّهَ عَلَىٰ الصَّحِيحِ مِنْهَا، وَيُبْطَلَ الْبَاطِلُ، وَتُذْكَرَ فَائِدَةُ الْخِلَافِ وَثَمْرَتُهُ؛ لِئَلَّا يَطُولَ النِّزَاعُ وَالْخِلَافُ فِيمَا لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ؛ فَيُشْتَغَلَ بِهِ عَنِ الْأَهَمِّ.

فَأَمَّا مَنْ حَكَىٰ خِلَافًا فِي مَسْأَلَةٍ، وَلَمْ يَسْتَوْعِبْ أَقْوَالَ النَّاسِ فِيهَا؛ فَهُوَ نَاقِصٌ؛ إِذْ قَدْ يَكُونُ الصَّوَابُ فِي الَّذِي تَرَكَهُ.

أَوْ يَحْكِي الْخِلَافَ وَيُطْلِقُهُ وَلَا يُنَبِّهُ عَلَىٰ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَقْوَالِ؛ فَهُوَ نَاقِصٌ أَيْضًا.

فَإِنْ صَحَّحَ غَيْرَ الصَّحِيحِ عَامِدًا؛ فَقَدْ تَعَمَّدَ الْكَذِبَ، أَوْ جَاهِلًا؛ فَقَدْ أَخْطَأَ.

كَذَلِكَ مَنْ نَصَبَ الْخِلَافَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ، أَوْ حَكَىٰ أَقْوَالًا مُتَعَدِّدَةً لَفْظًا، وَيَرْجِعُ حَاصِلُهَا إِلَىٰ قَوْلٍ أَوْ قَوْلَيْنِ مَعْنًىٰ؛ فَقَدْ ضَيَّعَ الزَّمَانَ وَتَكَثَّرَ بِمَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ].

الشَّرح:

ختم شيخ الإسلام ببيان المنهجية في تحرير الأقوال؛ سواء في التفسير أو الأحكام أو غيرها من المسائل، والمسائل نوعان: إجماع، وخلاف.

والخلاف نوعان: تنوُّع، وتضادٌّ. ومخالفة الإجماع السابق دليل الضلالة،

فمن يأتي بعد الصحابة ويخالفهم؛ فهذا ضالٌّ، لكن أقوال العلماء والمفسِّرين والفقهاء تُذكر وتستوعَبُ من باب الإنصاف، والمقابلة بين الأقوال من أسباب معرفة الصواب وتمييزه عن الخطأ، لكن لا بُدَّ من تحرير القول الذي في معنىٰ الآخر، وتحرير الأقوال التي ترجع إلىٰ معنىٰ قول واحد؛ لأنَّ التكثُّر بالأقوال التي في حقيقتها ترجع إلىٰ قول واحد هو من إثارة الخلاف بلا فائدة.

ومن فعل ذلك مباهاةً في معرفة الخلاف فقد وعَّر الطريق علىٰ طلبة العلم في معرفة الخلاف، ومن فعله رياءً فهو متكثِّر بما لا حقيقة له، وهو كما قال شيخ الإسلام: «كلابس ثوبي زور»؛ يعني يظهر كثرة الأقوال في المسألة وهو قول واحد بغير فائدة، وهذه المنهجيَّة أقرب إلىٰ التعمية منها إلىٰ التعليم، فلابُدَّ من ذكر الأقوال وأدلَّتها والمقابلة بينها، وتمييز الأقوال الضعيفة من الأقوال الصحيحة، وحصر الأقوال في أرجحها، ثم توازن بين الأدلَّة وتردُّ علىٰ الأدلَّة التي استدلَّ بها أصحابُ الأقوال الأخرىٰ، وتناقش الخلاف، وتبيِّن الحكم وعلَّة الحكم وأدلَّته وسبب ضعف الأقوال الأخرىٰ؛ إما من جهة الرواية أو من جهة الدراية، وتبين الأقوال المتَّفقة في المعنىٰ، ثمَّ ترجِّح الراجح.

هذه هي طريقة العلماء المحقِّقين، أمَّا أن تكتفي بحكاية الخلاف لطالب العلم، فلن ينتفع كثيرًا من كلامك بهذه الطريقة، فلابُدَّ من ذكر المسألة وأقوال الفقهاء فيها وحكمها، وكذلك تفسير الآية وأقوال المفسِّرين، وتبيين ما كان من أقوال الصحابة بعضه في معنىٰ بعض، وما كان منها من التفسير بالمثال، وما كان منها من التفسير باللازم، وأحسن من يتقن هذا في هذا العصر العلَّامة محمَّد

العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، سواء في الفقه أو التفسير، جزاه الله عن الإسلام خيرًا.

وقول شيخ الإسلام: «لابد أن تستوعب الأقوال في كلِّ مقام، وأن يُنبَّه علىٰ الصحيح منها ويُبطَل الباطل»؛ خصوصًا في العقائد، فالعقيدة ليس فيها أقوال، فإمَّا أن تأخذها من الصحابة وإلا ضللت ضلالًا بعيدًا، وكذلك معاني القرآن والأحكام، لكن هناك بعض المسائل التي تتجاذبها الأدلَّة، فكلُّها عليها أدلة وهي من مذاهب الصحابة، فهذه لا يضلَّل فيها المخالف، وإنَّما يُبيَّن فيها الراجح من المرجوح، مثل الجهر بالبسملة في الصلاة، قال الدَّارقُطنيُّ في نصوص الجهر بالبسملة: الصحيح منها غير صريح، والصريح منها غير صحيح. وقال شيخ الإسلام: ثبت عن الصَّحابة الجهر بالبسملة لا ريبَ في ذلك، لكن ذكره الصَّحابة تعليمًا؛ أي أنَّها ممَّا يقال سرًّا، لكنهم جهروا بها لتعلموا أنَّها سنَّةٌ، كما جهر ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بقراءة الفاتحة في تكبيرة الجنازة الأولىٰ، وقال: «لتعلموا أنها سنَّة»، أي أنها مما يُقرأ في الركعة الأولىٰ سرًّا. فمن جهر بالبسلمة في الصلاة لا يُبدَّع، وهذه المسائل دائرة بين الراجح والمرجوح، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

ثم قال شيخ الإسلام:

[إِذَا لَمْ تَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا فِي السُّنَّةِ، وَلَا وَجَدْتَهُ عَنِ الصَّحَابَةِ؛ فَقَدْ رَجَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ أَقْوَالِ التَّابِعِينَ.

كَمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرٍ؛ فَإِنَّهُ كَانَ آيَةً فِي التَّفْسِيرِ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنَا أَبَانُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ؛ قَالَ: «عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ، أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ، وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا».

وَبِهِ إِلَىٰ التِّرْمِذِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ مَهْدِيٍّ الْبَصْرِيُّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ سَمِعْتُ فِيهَا شَيْئًا».

وَبِهِ إِلَيْهِ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ قَالَ: قَالَ مُجَاهِدٌ: «لَوْ كُنْتُ قَرَأْتُ قِرَاءَةَ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ لَمْ أَحْتَجْ أَنْ أَسْأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْقُرْآنِ مِمَّا سَأَلْتُ».

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا طَلْقُ بْنُ غَنَّامٍ، عَنْ عُثْمَانَ الْمَكِّيِّ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: رَأَيْتُ مُجَاهِدًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَمَعَهُ أَلْوَاحُهُ، قَالَ: فَيَقُولُ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: اُكْتُبْ. حَتَّىٰ سَأَلَهُ عَنِ التَّفْسِيرِ كُلِّهِ.

وَلِهَذَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: «إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ؛ فَحَسْبُكَ بِهِ».

وَكَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعِكْرِمَةَ مَوْلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَمَسْرُوقِ بْنِ الْأَجْدَعِ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ،

وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ وَمَنْ بَعْدَهُمْ.

فَتُذْكَرُ أَقْوَالُهُمْ فِي الْآيَةِ فَيَقَعُ فِي عِبَارَاتِهِمْ تَبَايُنٌ فِي الْأَلْفَاظِ يَحْسَبُهَا مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ اخْتِلَافًا؛ فَيَحْكِيهَا أَقْوَالًا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُعَبِّرُ عَنِ الشَّيْءِ بِلَازِمِهِ، أَوْ نَظِيرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنُصُّ عَلَىٰ الشَّيْءِ بِعَيْنِهِ، وَالْكُلُّ بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمَاكِنِ؛ فَلْيَتَفَطَّنِ اللَّبِيبُ لِذَلِكَ، وَاللهُ الْهَادِي.

وَقَالَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ وَغَيْرُهُ: «أَقْوَالُ التَّابِعِينَ فِي الْفُرُوعِ لَيْسَتْ حُجَّةً؛ فَكَيْفَ تَكُونُ حُجَّةً فِي التَّفْسِيرِ؟!»؛ يَعْنِي: أَنَّهَا لَا تَكُونُ حُجَّةً عَلَىٰ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ خَالَفَهُمْ، وَهَذَا صَحِيحٌ، أَمَّا إِذَا أَجْمَعُوا عَلَىٰ الشَّيْءِ؛ فَلَا يُرْتَابُ فِي كَوْنِهِ حُجَّةً، فَإِنِ اخْتَلَفُوا؛ فَلَا يَكُونُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ حُجَّةً عَلَىٰ بَعْضٍ، وَلَا عَلَىٰ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَيُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ، أَوِ السُّنَّةِ، أَوْ عُمُومِ لُغَةِ الْعَرَبِ، أَوْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ.

فَأَمَّا تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ؛ فَحَرَامٌ؛ حَدَّثَنَا مُؤَمَّلٌ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْأَعْلَىٰ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

حَدَّثَنَا وَكِيعٌ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ الثَّعْلَبِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

وَبِهِ إِلَىٰ التِّرْمِذِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ: حَدَّثَنِي حَسَّانُ بْنُ هِلَالٍ: قَالَ: حَدَّثَنَا سُهَيْلٌ أَخُو حَزْمٍ الْقُطَعِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ، عَنْ جُنْدُبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ؛ فَقَدْ أَخْطَأَ».

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ أَهْلِ الْحَدِيثِ فِي سُهَيْلِ بْنِ أَبِي حَزْمٍ، وَهَكَذَا رَوَىٰ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ؛ أَنَّهُمْ شَدَّدُوا فِي أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

وَأَمَّا الَّذِي رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ أَنَّهُمْ فَسَّرُوا الْقُرْآنَ؛ فَلَيْسَ الظَّنُّ بِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي الْقُرْآنِ وَفَسَّرُوهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، أَوْ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَا قُلْنَا؛ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ؛ فَقَدْ تَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَسَلَكَ غَيْرَ مَا أُمِرَ بِهِ، فَلَوْ أَنَّهُ أَصَابَ الْمَعْنَىٰ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَكَانَ قَدْ أَخْطَأَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ، كَمَنْ حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ عَلَىٰ جَهْلٍ؛ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَإِنْ وَافَقَ حُكْمُهُ الصَّوَابَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، لَكِنْ يَكُونُ أَخَفَّ جُرْمًا مِمَّنْ أَخْطَأَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَهَكَذَا سَمَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ الْقَذَفَةَ كَاذِبِينَ؛ فَقَالَ: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]. فَالْقَاذِفُ كَاذِبٌ، وَلَوْ كَانَ قَدْ قَذَفَ مَنْ زَنَىٰ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ بِمَا لَا يَحِلُّ لَهُ الْإِخْبَارُ بِهِ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَلِهَذَا تَحَرَّجَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ عَنْ تَفْسِيرِ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ؛ كَمَا رَوَىٰ شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُرَّةَ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ

الصِّدِّيقُ: «أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي، وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لَمْ أَعْلَمْ؟!».

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ: حَدَّثَنَا مَحْمُودُ بْنُ يَزِيدَ، عَنِ الْعَوَّامِ بْنِ حَوْشَبٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ؛ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]. فَقَالَ: «أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِنْ أَنَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لَا أَعْلَمُ؟!»، مُنْقَطِعٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ أَيْضًا: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَرَأَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾، فَقَالَ: «هَذِهِ الْفَاكِهَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا؛ فَمَا الْأَبُّ؟». ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ نَفْسِهِ فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكَلُّفُ يَا عُمَرُ!!».

وَقَالَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَفِي ظَهْرِ قَمِيصِهِ أَرْبَعُ رِقَاعٍ، فَقَرَأَ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾. فَقَالَ: «مَا الْأَبُّ؟». ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكَلُّفُ! فَمَا عَلَيْكَ أَلَّا تَدْرِيهِ؟!».

وَهَذَا كُلُّهُ مَحْمُولٌ عَلَىٰ أَنَّهُمَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِنَّمَا أَرَادَا اسْتِكْشَافَ عِلْمِ كَيْفِيَّةِ الْأَبِّ، وَإِلَّا فَكَوْنُهُ نَبْتًا مِنَ الْأَرْضِ ظَاهِرٌ لَا يُجْهَلُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ [عبس: ٢٧ - ٣٠].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ: «أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ آيَةٍ لَوْ سُئِلَ عَنْهَا بَعْضُكُمْ لَقَالَ فِيهَا؛ فَأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ فِيهَا». إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: «سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ: ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥].

فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا: ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؟

فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّمَا سَأَلْتُكَ لِتُحَدِّثَنِي. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا يَوْمَانِ ذَكَرَهُمَا اللهُ فِي كِتَابِهِ، اللهُ أَعْلَمُ بِهِمَا»، فَكَرِهَ أَنْ يَقُولَ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لَا يَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ - يَعْنِي: ابْنَ إِبْرَاهِيمَ -: حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ مَهْدِيِّ بْنِ مَيْمُونٍ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: جَاءَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ إِلَىٰ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، فَسَأَلَهُ عَنْ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: «أُحَرِّجُ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ مُسْلِمًا؛ لَمَا قُمْتَ عَنِّي - أَوْ قَالَ: أَنْ تُجَالِسَنِي -»].

الشَّرح:

شيخ الإسلام ابن تيميَّة في هذا الفصل ذكر منهجية تلقِّي تفسير القرآن؛ فذكر أنَّ القرآن يفسَّر بالقرآن أوَّلًا، ثم بالسُّنَّة، ثم بأقوال الصَّحابة، ثم بأقوال التَّابعين.

أما مقدار الألف سنة المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، فالمعنىٰ: أن بُعد هذه المسافة في مقدوراتنا ألف سَنَة، لا يحول هذا المقدار دون استعجال نفوذ تدبير ربنا(١).

(١) ملاك التأويل (٢/ ٨٦٣-٨٦٤).

وقوله تعالىٰ عن يوم القيامة: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، فهو تبيين لمقدار وقت حساب الخلائق، فالمؤمن مِنْ يُسْرِ حسابه لا يُكلَّف ولا يثقل ولا يطول عليه مقداره، والكافر لعسر حسابه وشدَّة ما يجد من أهوال يوم القيامة لبثه مقداره خمسين ألف سنة من أيَّام الدنيا.

قال العلَّامة أحمد بن إبراهيم الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «آية المعارج؛ فالمراد باليوم المذكور فيها يوم القيامة، الواقع فيها حساب الخلائق، ووزن أعمالهم، وفصل ما بينهم، إلىٰ استقرار أهل الجنَّة في الجنَّة وأهل النار في النار، ففيه من الأعمال المتعلِّقة بالخلق ما يتقدَّر وقوعه وتخلُّصه من أيَّام الدنيا علىٰ متعارفها، مع عظيم أهواله وشدَّة كروبه، وأيَّام الأهوال والشدائد توصف بالطول لعظيم أهوالها، مع ما يقتضي فيه، مقدر من أيَّامنا بخمسين ألف سنة، وهو علىٰ المؤمن التقيِّ كصلاة صلَّاها، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٨-١٠]، ويدلُّ علىٰ أنَّ المراد به يوم القيامة ما ذكره الله سبحانه عقب تقديره من وصفه بقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨] إلىٰ قوله: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٤]».

ويستفاد من عدم جواب ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لمن سأله عن تفسير آية من القرآن المنهج في الجواب، فمن سأل تعنتًا أو تكلُّفًا في الخوض في الغيبيَّات فإنه يُعْرَضُ عن إجابته، وابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ترجمان القرآن فسَّر كلّ آياته لتلميذه مجاهد.

---

(١) ملاك التأويل (٢/ ٨٦٣-٨٦٤).

وليس معنىٰ قولنا: أنَّ القرآن يفسَّر أولًا بالقرآن؛ أنَّه يؤخذ تفسير القرآن بالقرآن مقطوعًا عن تفسير السُّنَّة وعن أقوال الصَّحابة، لا، ولكن المقصود أنَّ رُتبة القرآن أوَّلًا في التلقِّي للمعنىٰ، ويُجمع هذا مع تفسير السُّنَّة ومع أقوال الصَّحابة وأسباب النُّزول، ويجمع مع أقوال التَّابعين؛ لأنَّ التَّابعين أخذوا عن الصَّحابة، أمَّا ما قالوه استنباطًا من قِبَلِ ما أوتوه من فهم النُّصوص وهم قد أخذوا العلم - علم التَّفسير - عن الصَّحابة؛ فهذا إن أصابوا به معاني القرآن فهذا لا شكَّ أنه ممَّا يكون من تدبُّر القرآن، فيكونون مأجورين عليه، ونستفيد نحن من معاني ما استنبطوه.

أمَّا حجيَّة التَّفسير، فهي الَّتي ذكرها شيخ الإسلام؛ أنَّ القرآن يفسر بالقرآن، وبالسُّنَّة، وبتفسير الصَّحابة؛ لأنَّ الصَّحابة تلقَّوا معاني القرآن من النبيِّ ﷺ، والتَّابعون تلقَّوا معاني القرآن من الصَّحابة؛ ولذلك قال أبو عبد الرَّحمن السُّلمي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ وهو من أئمَّة التَّابعين: «حدَّثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن؛ عثمان بن عفَّان، وعبد الله بن مسعود...»، فهؤلاء التابعون تلقَّوا تفسير القرآن عن الصَّحابة، والدِّين كلُّه نحن نتلقَّاه بهذه الصِّفة؛ سواء في التَّفسير أو في الأحكام، أو في العقيدة، أو في كلِّ معاني القرآن؛ ولذلك قال شريك بن عبد الله القاضي في ردِّه علىٰ المعتزلة في إنكارهم لرؤية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة، بعد أن روىٰ عشرة أحاديث في ذلك، والأحاديث في ذلك متواترةٌ: «نحن أخذنا ديننا عن التَّابعين عن الصَّحابة، وهم - المبتدعة - عمَّن أخذوا؟»‏.

وقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إِذَا لَمْ تَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا فِي السُّنَّةِ،

وَلَا وَجَدْتَهُ عَنِ الصَّحَابَةِ؛ فَقَدْ رَجَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ أَقْوَالِ التَّابِعِينَ؛ كَمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرٍ»؛ فيه تبيين منهجية تلقي علم التفسير عن السلف، وتفسير التَّابعين هو في الحقيقة من معاني ما تلقَّوه عن الصَّحابة، فإذا عرفت شيوخ كلِّ تابعيٍّ من الصحابة الذين أخذ عنهم علم التَّفسير عرفت أنَّ هذا من أقوال الصَّحابة، فمجاهد أخذه عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وزيد بن أسلم أخذه عن أسلم، عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخذ التَّفسير عن عمر بن الخطَّاب وعليِّ بن أبي طالب وأبيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهكذا، فإذن من هنا تظهر قوَّة تفسير التَّابعين؛ لأنَّه تدوين لعلوم الصَّحابة في التَّفسير، فالمنقول عن الصَّحابة من التَّفسير أكثر ما يُنقل عن ابن عبَّاس وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والمنقول عن غيرهم من الصَّحابة قليل، مع أنَّ علماء القرآن من الصَّحابة كثير، وأوَّلهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ عمر، ثُمَّ عثمان، ثُمَّ عليٌّ، ومنهم أيضًا أبيُّ بن كعب، وزيد بن ثابت، رضي الله عنهم جميعًا، وهكذا.

وهناك خصوصيَّة لبعض الصَّحابة في علم القرآن لا ريب في ذلك، منهم ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان يقول - من باب بيان الواقع، لا من باب الكبر والزهو -: «ولقد علم أصحاب محمَّد ﷺ أنِّي من أعلمهم بكتاب الله». رواه البخاري ومسلم، وباعتبار سبقه في الأخذ عن النَّبيِّ ﷺ لا شكَّ أنَّه من أعلم الصَّحابة بالقرآن؛ لأنَّ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان غلامًا في عهد النبي ﷺ، ثم أخذ ابن عبَّاس بعض معاني القرآن من ابن مسعود وغيره من الصَّحابة، كما أخذ عن عمر وعلي وأبيِّ بن كعب، لكن هذه الفضيلة لابن مسعود هي فضيلة بنوع من العلوم

لا تستلزم فضيلة مطلقة علىٰ كل الصحابة؛ لأنَّ العبرة بمجموع العلوم ومجموع الفضائل، فأبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أعلم الصَّحابة ثم عمر ثم عثمان ثم عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

وهذا ننبِّه عليه حتىٰ يكون معيارًا تستصحبونه في تقييم العلماء، وفرق ما بين طلبة العلم والعلماء معلومٌ، وفرق ما بين المتعالمين والعلماء وطلبة العلم معلومٌ؛ لأنَّه قد غُرِّر بكثير من الشَّباب ببعض المتعالمين من القطبيِّين والسُّروريين بدعوىٰ فقه الواقع، واستخدموا هذا لتحريض الشباب علىٰ العلماء، والعدول عنهم إلىٰ اتِّخاذ المتعالمين من القطبيين مرجعًا لهم فيما انتحلوه من المناهج المبتدعة، فنقول: هؤلاء من أبخس الناس علمًا في فقه الواقع، وقد ظهر جهلُهم بفقه الواقع فضلًا عن انحرافهم في بدعهم التي صاروا بها يوالون الرَّافضة، ويبرِّرون العلمانيَّة، ويقولون: الحريَّة قبل الشَّريعة، إلىٰ غير ذلك ممَّا تعرفونه من ركام ضلالهم الذي أظهره الخريف العربي، ففرق ما بين العالم والمتعالم، والسني والبدعي، والعلماء والقُصَّاص؛ تبيينه ضرورة لئلَّا تهلك الأمة بالرجوع إلىٰ الجُهَّال والمبتدعة والضُّلَّال.

وعندما نحرِّر هذه المعايير لابُدَّ أن يفقهها الإنسان بمعرفة مجموع علوم الفقيه والعالم، وحذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أعلم الصَّحابة بفقه الواقع؛ ولذلك جاء في فضله في أحاديث فقه الواقع ما تعرفونه، ومعاذ به جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أفقه الصَّحابة في علم الأحكام؛ ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «**وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل**»، وزيد بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أفقه الصَّحابة في علم الفرائض؛ يعني المواريث، لكن مجموع العلوم التي أدركها أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم

عليٌّ، أفضل ممَّا تميَّز به من ذكرنا من خصوصيَّات ما تميَّزوا به في العلوم التي ذكرناها عنهم كحذيفة في فقه الواقع، ومعاذ في فقه الأحكام، وابن مسعود في معاني القرآن، وزيد بن ثابت في علم الفرائض، وهكذا.

فعندما نقول مثلًا: العلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، مجموع علومه لا يوازيه أحد فيما نعلم - والله أعلم - في عصره، ولا شك أنَّه أوتي حظًّا كبيرًا من فقه الواقع، والمقصود هو معرفة معايير تقييم العلماء في علومهم وما اختصُّوا به، فمجاهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تلقَّىٰ علم التَّفسير عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ترجمان القرآن، وحبر الأمَّة، أدركته بركة دعوة النَّبي ﷺ، فقد دعا له النَّبي ﷺ وقال: «**اللهم فقِّهه في الدِّين، وعلِّمه التأويل**»، وصار إمامًا في التَّفسير، والتابعون الذين أخذوا عنه نقلوا علمه ودوَّنوه، وعنهم دوِّن العلم في كتب التَّفسير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ **عن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[١]: «بُورك له في فهمه والاستنباط منه، حتىٰ ملأ الدنيا علمًا وفقهًا».

وطلَّاب ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنفسهم يتفاضلون في الأخذ عنه، فقد أخذ عنه التَّفسير سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة، وغيرهم، لكن إذا أردت أن تفاضل بين طلَّاب الشَّيخ، فكلٌّ بحسب ما بذله من جهد في تلقِّي العلم ونهمته في ذلك، وتفرُّغه لذلك، وحفظه وفهمه، فمجاهد بن جبر من أفضل طلَّاب ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في التفسير، انصرفت همَّته لطلب العلم، قال: عرضت المصحف

---

(١) نقض المنطق (ص٨٠).

علىٰ ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ثلاث مرَّات أوقفه عند كلِّ آية. فقد أخذ العلم مشافهة، وأخذ كل معاني التفسير آيةً آيةً، فهو ليس كمن يقرأ المتون علىٰ العلماء هذًّا بلا تفهُّم ولا فقه ولا دراية، ولذلك قال شيخ الإسلام هنا في مقدمته لأصول التفسير عن مجاهد «كان آيةً في التَّفسير».

والصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ تفاضلوا في علومهم من جهة العناية بالحفظ، ومن جهة العناية بتلقِّي العلم بملازمة النَّبي ﷺ؛ كأبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، حيث إنَّ أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون.

فمن اعتنىٰ بطلب العلم، وبذل وقته وجهده في طلبه، واستعان بالله في ذلك، أعانه الله ويسَّر له أسباب تحصيله؛ ولذلك يقول السَّلف: هل من طالب علم فيُعانُ علىٰ ذلك.

وممَّن شُهر بتلقِّي علم التَّفسير عن الصَّحابة قتادة من التَّابعين، قال: ما من آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا، يعني من الصَّحابة، وكذلك أبو العالية؛ فعندما يذكر تفسيره لبعض الآيات يقول: سألت الصَّحابة عن ذلك، فهؤلاء نماذج من علماء التَّابعين الذين يتلقَّىٰ عنهم التَّفسير، فتجد التفاسير المعتمدة كتفسير الطبري وابن كثير تنقل تفسير هؤلاء؛ لأنَّه تفسير متوارث عن الصَّحابة، فتفسير مجاهد ممَّا رجَّحه البخاري في تفسيره من «الجامع الصَّحيح»، وأيضًا تجد كتب التَّفسير كتفسير ابن كثير وغيره، تعتني بتفسير مجاهد، وتعتني بتفسير قتادة،

وتفسير أبي العالية، وتفسير زيد بن أسلم، فضلًا عن تفسير الصَّحابة قبلهم، كابن عبَّاس، وابن مسعود، وما ينقل عن غيرهم في تفسير آيات القرآن.

وعندما يقول مجاهد عرضت المصحف علىٰ ابن عبَّاس ثلاث مرَّات أوقفه عند كل آية، وكذلك يقول قتادة: ما من آية إلَّا وسمعت فيها شيئًا؛ يعني من الصَّحابة. نستفيد منه أنَّ معاني القرآن كانت معلومة لدىٰ الصَّحابة، وعنهم تلقَّاها التابعون؛ وبهذا يتبين ضلال المفوِّضة الذين فوَّضوا معاني أسماء الله وصفاته؛ الذين قالوا: إنَّ معاني نصوص أسماء الله وصفاته غير معلومة.

ثم ذكر شيخ الإسلام منزلة تفسير مجاهد عند علماء تابعي التَّابعين؛ فقال سفيان الثَّوري: إذا جاءك التَّفسير عن مجاهد فحسبك به. ثم ذكر شيخ الإسلام بقيَّة التَّابعين الذين يُنقل عنهم التَّفسير؛ كسعيد بن جُبير، وعكرمة، وهؤلاء أيضًا من طلاب ابن عبَّاس، وذكر التَّفسير أيضًا عن الحسن البصري ومسروق، وسعيد بن المسيِّب، وأبي العالية.

وسعيد بن المسيب أيضًا من علماء التَّابعين في التَّفسير، لكن شهرته في علم الأحكام أكثر، وعلمه في فقه الأحكام أكثر، وله في التَّفسير عناية وعلم، لكن المنقول عنه في ذلك أقل من المنقول عنه في الأحكام، وبهذا تظهر القاعدة التي ذكرناها قبل قليل في طبقات التَّابعين، فخصوصية مجاهد بن جبر في علم التَّفسير أظهر من سعيد بن المسيّب، لكن مجموع علوم سعيد بن المسيب لا شكَّ أنَّها أفضل، وقد كان بعض الصَّحابة يتلقَّىٰ عنه العلوم.

ثم ذكر شيخ الإسلام ما ينبغي علىٰ طالب العلم من تلمُّحه وهو يقرأ أقوال المفسِّرين، فيقول: تجد بعض الأقوال في معنىٰ بعضها؛ يعني: بعض المفسِّرين يفسِّر الآية بدلالة منطوق لفظها، ويفسِّرها عالم آخر بدلالة التضمُّن، ويأتي عالم آخر ويفسِّرها بدلالة الالتزام، ويفسِّر غيره الآية بذكر مثال؛ ليكون أقرب في الفهم، ويأتي عالم خامس ويذكر المعنىٰ الجامع لتفسير الآية، فهذه الأقوال كلُّها في معنىٰ بعض، وجمعها جميعًا ممَّا يعين علىٰ فهم الآية، فإذا عرفت المثال وذُكرت لك القاعدة في تفسير معنىٰ الآية وما تجمعه من معانيها كلها، وعرفت دلالة المنطوق والتضمُّن ودلالة الالتزم؛ أدركت معاني الآية.

أمَّا الأقوال الضَّعيفة فتجدها لا تتَّفق مع دلالة ألفاظ الآية وتخالفها، والأقول الضعيفة لبعض المفسِّرين تُعرف من جهة مخالفتها لمعاني القرآن؛ ومن جهة تفسير النَّبي ﷺ، ومن جهة تفسير الصَّحابة والتَّابعين، ومن جهة أسباب النُّزول، ومن جهة مخالفة سياق الآية، ومن جهة مخالفة الجماعة.

ثم ذكر شيخ الإسلام قول شعبة بن حجاج: «أقوال التَّابعين في الفروع ليست حجَّة، فكيف تكون حجَّة في التَّفسير»، نقول: هذا فيما قالوه استنباطًا، لكن هم أفضل منَّا علمًا وديانةً وتحرِّيًا للسنَّة ومجانبة للبدعة، قال النبي ﷺ: «**خير النَّاس قرني، ثمَّ الذين يلونهم**»، وهذا في الصَّحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وحديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إذن هم أفقه منَّا، وأعلم منَّا، وأفصح منَّا، وأنصح منَّا، وأيضًا تلقَّوا العلم من الصَّحابة، الذين تلقوه مباشرة من النبيِّ ﷺ، فعندهم المعدن الصَّحيح في ما

فقهوه من معاني القرآن، وخصوصًا ما أخذوه عن الصَّحابة، فهذا لا يقال فيه أنَّه ليس بحجَّة، بل هو حجَّة؛ لأنَّهم أخذوه عن الصَّحابة، والصَّحابة أخذوه عن النَّبي ﷺ.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «كلما قرب الناس من عهد النبوة كانوا أقرب إلىٰ الصواب ممَّن بعدهم، وهذا شيء واضح؛ لغلبة الأهواء فيما بعد، ولكثرة الواسطات بينهم وبين عهد الرسول ﷺ».

أمَّا ما قاله التابعون استنباطًا، فإن كان موافقًا لمعاني الشَّريعة، وتدلُّ عليه ألفاظ الآية، خصوصًا ممَّن تلقَّىٰ هذا العلم عن الصَّحابة؛ فحينئذ يكون هذا ممَّا تستفيده الأمَّة من علوم خير القرون، ويكون هذا ممَّا تمَّت العناية به وأُدِّي علمه إلينا، ويكون هذا أيضًا سببًا لتنمية أذهاننا في تعلُّم كيفيَّة استنباط معاني آيات القرآن، ولا عجب في ذلك؛ فإنَّ من تلاميذ ابن عبَّاس من أفاده في استنباط فوائد بعض الآيات.

من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥﴾ [الأعراف: ١٦٤، ١٦٥].

قال حمَّاد بن زيد، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾، قال: ما أدري أنجا

(١) شرح مقدمة التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٤١).

الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أم لا؟

قال عكرمة: فلم أزل به حتىٰ عرَّفتهُ أنَّهم قد نجوا، فكساني حُلَّةً[١].

وقال العلَّامة أبو المظفَّر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ومن الدليل عليه في ظاهر الآية أنَّه قال: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾، وتلك الفرقة لم ينسوا ذلك.

والثاني: أنَّه قال: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾، والفرقة الساكتة قد نهوا نهي تحذير بقولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾.

والثالث: أنَّه قال: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، يعني: بالاصطياد يوم السبت، وهم ما ظلموا بالاصطياد، قال الحسن البصري: نجت الفرقتان وهلكت واحدة».

والذي يُرجِّح نجاة الفرقة الساكتة حصول الكفاية بإنكار الفرقة الناهية، وكراهية الفرقة الساكتة لأعمال السوء للفرقة الهالكة، حيث قالوا للمنكرين عليهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، فكانت قلوبهم منكرةً للسوء، والله أعلم.

علىٰ كل حال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ شيوخ التَّابعين، والتَّابعون صارت لهم مَلَكَة الاستنباط لمعاني القرآن بسبب تعليم الصَّحابة لهم.

وفي قراءة كتب التَّفسير تجد أحيانًا قول التَّابعي في معنىٰ قول شيخه الصَّحابي، فاحذر أن تنصب بينهم الخلاف لعدم تفهُّمك لذلك.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٣٧٩).

(٢) تفسير القرآن (٢/ ٢٢٧).

مثال: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١﴾ [الصافات: ٥١]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال مجاهد: يعني شيطانًا.

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا.

ولا تنافي بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلامًا تسمعه الأذنان، وكلاهما يتعاونان، قال الله تعالىٰ: ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام:١١٢] وكلٌّ منهما يوسوس».

وقول النبي ﷺ: «رب مبلَّغ أوعىٰ من سامع»، متَّفق عليه، حثٌّ علىٰ استنباط معاني كلام الوحي، وعكرمة قد انتفع من نصيحة ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، حين قال له: «ولا تحقر نفسك»، رواه البخاريُّ، لأنَّ الإنسان إذا غبن قدراته الذِّهنيَّة تعطَّل عن طلب العلم وعن استنباط المعنىٰ، فإذا كنت تملك آلة العلم تستنبط، وهذا من تدبُّر القرآن، أمَّا التعالم فهذا يوقع في القول علىٰ الله بغير علم.

والإقبال علىٰ تدبُّر القرآن والعمل به، وحثُّ المسلمين كلِّهم علىٰ التديّن والاهتداء والتخلُّق به، والتَّحاكم إليه؛ هو من الأخذ بأسباب خيريَّة الأمَّة وعزِّها وسيادتها، وهو من أسباب حفظ دين الله.

قال الإمام محمد بن إدريس الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ مَن أدرك علم أحكام

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٣).
(٢) الرسالة (١٩، ٢٠).

الله في كتابه نصًّا واستدلالًا، ووفَّقَه الله للقول والعمل بما علم منه؛ فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرِّيَبُ، ونوَّرَتْ في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة.

فنسأل الله المبتدئ لنا بنعمه قبل استحقاقها، المديمها علينا مع تقصيرنا في الإتيان إلىٰ ما أوجب به من شكره بها، الجاعلنا في خير أمَّة أُخرجت للناس؛ أن يرزقنا فهمًا في كتابه، ثم سُنَّة نبيه ﷺ وقولًا وعملًا يُؤَدِّي به عَنَّا حَقَّهُ، ويوجب لنا نافلة مزيدة.

فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلَّا وفي كتاب الله الدليل علىٰ سبيل الهدىٰ فيها؛ قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: ١]، وقال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل: ٨٩] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورىٰ: ٥٢]».

ثم ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة ما ورد في السُّنَّة ومن آثار الصَّحابة في التَّحذير من القول في القرآن بغير علم، قال النبيُّ ﷺ: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوء مقعده من النَّار**»، لأنَّ هذا من أكبر الكبائر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ

مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وأعظم القول علىٰ الله بغير علم تفسير القرآن بغير علم.

وقال النبيُّ ﷺ: «**من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**» لماذا؟ لأنَّه قال بغير علم، وكونه أصاب في مسألةٍ هذا لا يوجب له أن يقول علىٰ الله بغير علم.

قال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من تكلَّف ما جهل، وما لم تُثْبِتْهُ معرفته؛ كانت موافقته للصَّواب - إن وافقه من حيث لا يَعْرِفه - غير محمودة، والله أعلم، وكان بخطئه غير معذور، إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصَّواب فيه».

فالواجب علىٰ الإنسان أن يطلب العلم، فإذا طلب العلم وصارت عنده آلة العلم بعد ذلك يفسِّر القرآن ويتكلَّم في فقه الأحكام، وغيرها من مسائل الدِّين.

ثمَّ بيَّن شيخ الإسلام أنَّ السَّلف أنفسهم من التَّابعين والصَّحابة الذين نهوا عن تفسير القرآن بالرأي فسَّروا القرآن بمعانيه؛ لأنَّ هذا ليس من التفسير بالرأي؛ لأنَّ هذا من تفسير القرآن بما يدلُّ عليه لفظه، وهذا ليس من القول علىٰ الله بغير علم، وتفسير ألفاظ القرآن بما يدلُّ عليه ألفاظه، هذا من بيان معاني القرآن ومن تدبُّر القرآن.

ثمَّ ذكر شيخ الإسلام مقامات وأحوال الصَّحابة في التورُّع عن القول بغير علم في معاني القرآن، فذكر ذلك عن أبي بكر الصِّدِّيق وعن عمر بن الخطاب

---

(١) الرسالة (ص٥٣).

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وإذا كان الشَّيخان أبو بكر وعمر تورَّعا عن القول في القرآن بغير علم، وهما أعلم الصَّحابة، فهذا لا شكَّ أنَّه تعليم لنا بعدم التكلُّف في القول بغير علم في معاني القرآن.

وقال الشَّاطبي وغيره: عمر لا يخفىٰ عليه أن معنىٰ «الأبّ» في قوله تعالىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١] هو الزرع، سواء كان من الخضرة التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ رعيًا للأنعام، أو ما كان من الخضرة التي يأكلها بنو آدم؛ لأنَّ الأبّ عُطفت علىٰ الفاكهة. وقال شيخ الإسلام: عمر لا يخفىٰ عليه هذا، لكنَّه خشي علىٰ الأمَّة من التكلُّف، فقال عبارته تعليمًا وتحذيرًا للأمَّة من التكلُّف في تفسير معاني القرآن.

قال العلَّامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «إنَّما كره عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ التكلُّف، وهو التتبع لكتاب الله بمشقّة لا ترجع إلىٰ التماس فائدة، علىٰ سبيل التعنت والاعتراض».

هذه منهجية للفاروق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في تعليم الأمة، بنهيها عن التكلف في العلم،

وقال معلِّمًا للأمَّة التوحيد في استلام الحجر الأسود تعبُّدًا لا تبرُّكًا: «لولا أنِّي رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتك» متَّفق عليه، ليبيِّن أن تقبيل ومسّ الحجر الأسود إنَّما هو تعبُّدي وليس تبرُّكًا، وليحذِّر النَّاس من عقائد وأعمال الجاهليَّة؛ من التبرُّك بالحجارة وغيرها.

ثم ذكر شيخ الإسلام أثرًا عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في تورُّعه عن تفسير

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (١/ ١٧٨).

القرآن، فإذًا كان ترجمان القرآن يتورَّع عن تفسير بعض آيات القرآن مع أنَّه فسَّر كل آية لمجاهد بن جبر، فمن دونه أحرىٰ وأولىٰ بالتورُّع عن التفسير تكلُّفًا وبغير علم. وأراد ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن يعلِّم من سأله منهجيَّة التعلم، يُحذِّره من المجازفة في تفسير القرآن، فينبغي علينا أن نورِّث طلبة العلم منهج الصَّحابة في التَّورُّع عن القول علىٰ الله بغير علم، خصوصًا في تفسير القرآن.



ثم قال شيخ الإسلام:

[وَقَالَ مَالِكٌ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ: إِنَّا لَا نَقُولُ فِي الْقُرْآنِ شَيْئًا.

وَقَالَ اللَّيْثُ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: أَنَّهُ كَانَ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِي الْمَعْلُومِ مِنَ الْقُرْآنِ.

وَقَالَ شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ سَعِيدَ بْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَقَالَ: لَا تَسْأَلْنِي عَنِ الْقُرْآنِ، وَسَلْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ -يَعْنِي: عِكْرِمَةَ-.

وَقَالَ ابْنُ شَوْذَبٍ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنِ أَبِي يَزِيدَ قَالَ: كُنَّا نَسْأَلُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَكَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ، فَإِذَا سَأَلْنَاهُ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ؛ سَكَتَ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ عَبْدَةَ الضَّبِّيُّ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ قَالَ: لَقَدْ أَدْرَكْتُ فُقَهَاءَ الْمَدِينَةِ، وَإِنَّهُمْ لَيُعَظِّمُونَ الْقَوْلَ فِي التَّفْسِيرِ؛ مِنْهُمْ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، وَنَافِعٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ، عَنِ اللَّيْثِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ قَالَ: مَا سَمِعْتُ أَبِي تَأَوَّلَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ قَطُّ.

وَقَالَ أَيُّوبُ، وَابْنُ عَوْنٍ، وَهِشَامٌ الدَّسْتُوَائِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ:

سَأَلْتُ عَبِيدَةَ السَّلْمَانِيَّ عَنْ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: ذَهَبَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَاتَّقِ اللهَ، وَعَلَيْكَ بِالسَّدَادِ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا مُعَاذٌ، عَنِ ابْنِ عَوْنٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: إِذَا حَدَّثْتَ عَنِ اللهِ، فَقِفْ حَتَّىٰ تَنْظُرَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ.

حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُنَا يَتَّقُونَ التَّفْسِيرَ وَيَهَابُونَهُ.

وَقَالَ شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي السَّفْرِ قَالَ: قَالَ الشَّعْبِيُّ: وَاللهِ مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا؛ وَلَكِنَّهَا الرِّوَايَةُ عَنِ اللهِ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، أَنْبَأَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي زَائِدَةَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: اتَّقُوا التَّفْسِيرَ؛ فَإِنَّمَا هُوَ الرِّوَايَةِ عَنِ اللهِ.

فَهَذِهِ الْآثَارُ الصَّحِيحَةُ وَمَا شَاكَلَهَا عَنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ؛ مَحْمُولَةٌ عَلَىٰ تَحَرُّجِهِمْ عَنِ الْكَلَامِ فِي التَّفْسِيرِ بِمَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ، فَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمَا يَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ لُغَةً وَشَرْعًا، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا رُوِيَ عَنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ أَقْوَالٌ فِي التَّفْسِيرِ، وَلَا مُنَافَاةَ؛ لِأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِيمَا عَلِمُوهُ، وَسَكَتُوا عَمَّا جَهِلُوهُ؛ وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ؛ فَإِنَّهُ كَمَا يَجِبُ السُّكُوتُ عَمَّا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ الْقَوْلُ فِيمَا سُئِلَ عَنْهُ مِمَّا يَعْلَمُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وَلِمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ مِنْ طُرُقٍ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ؛ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ».

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُؤَمَّلٌ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: التَّفْسِيرُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ. وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ].

الشَّـرْح:

ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فهذا الفصل الآثار عن التَّابعين في التَّورُّع عن التَّفسير لما لا علم لهم به، وتورُّعهم عن المبادرة إلىٰ التَّفسير، وتورعهم عن التكلُّف في الخوض في معاني القرآن، وهذا منهج تعلموه من شيوخهم من الصَّحابة في علومهم كلِّها؛ فإنَّهم كانوا يتدارئون الفتيا، حتىٰ إذا لم يروا بُدًّا من الإفتاء أفتوا، فما كانوا يبادرون إلىٰ التَّفسير استباقًا وتعالمًا، فإن كُفِيَ أحدهم بغيره من علماء الصَّحابة في التَّفسير، كفَّ لسانه؛ وهذا من باب الورع، وهذه صفة العلماء.

ومن جملة ما امتدح به الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ سفيان بن عيينة ورعه عن الفتيا، قال الشافعي: «ما رأيت أحدًا أجمع لآلة العلم من سفيان بن عيينة، وكان يتورَّع عن الفتيا»، لكنَّه كان يفسِّر القرآن ويذكر معاني الحديث، وقال عنه الإمام أحمد: «إنَّ سفيان بن عيينة من العلماء الذين أوتوا فقهًا لمعاني النُّصوص»، وهنا ذكر شيخ الإسلام عن جماعة من التَّابعين التورُّع عن التَّفسير؛ منهم سعيد بن المسيَّب الذي هو من أعلم التَّابعين، ونُقل عنه أيضًا تفسير بعض آيات

القرآن، وهذا دالٌّ علىٰ ورعه وعدم مجازفته في التَّفسير، ودالٌّ علىٰ أنَّه يفسِّر المعاني التي يتيقَّن أنَّها مقتضىٰ ألفاظ الآيات.

ثم ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عن فقهاء وعلماء المدينة، الآثار في الورع عن التفسير والقول علىٰ الله بغير علم؛ منهم سالم بن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، ومنهم القاسم بن محمَّد، ونافع، وعروة بن الزبير، وهو من علماء التَّابعين، قال حميد بن عبد الرَّحمن: أدركت بعض الصَّحابة وهو يسأل عروة بن الزُّبير. ولذلك فكلٌّ من ترجم له قال: كان من كبار علماء التَّابعين.

فإذا كان سادات علماء المدينة التي هي معدن العلم يتورَّعون عن تفسير القرآن، فنحن أحرىٰ بأن نتَّخذ هذا منهجًا، لا نقول علىٰ الله إلَّا الحقَّ؛ ولذلك ذكر شيخ الإسلام عن إبراهيم النَّخعي، قال: «كان أصحابنا يتَّقون التَّفسير ويهابونه»، أراد بقوله: «أصحابنا» طلاب ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالكوفة، وشيخهم ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أعلم الصَّحابة بالقرآن، فإذا كان تلاميذُ أعلم الصَّحابة في التفسير يتورَّعون عن التَّفسير ويهابونه، فمن دونهم أولىٰ بذلك.

وهذه الآثار عن التابعين في التورُّع عن التَّفسير وعن القول علىٰ الله بغير علم تدلُّ علىٰ أنَّهم استفادوا ذلك ممَّن تلقَّوا عنهم العلم من سادات الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

وقول الشَّعبي وهو من كبار علماء التابعين بالكوفة أيضًا: «والله ما من آية إلَّا وقد سألت عنها»، هذا يدلُّ علىٰ حرص التَّابعين علىٰ طلب معاني القرآن، وهكذا كان الصَّحابة، قال أبو الدَّرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لو أعيتني آية من كتاب الله ولم

أجد أحدًا يفتحها عليَّ إلَّا ببرك الغماد؛ لرحلت إليه»، فلابُدَّ أن تكون عندك همَّة وحرص علىٰ معرفة معاني القرآن الذي تتلوه وتتعبَّد لله بما فيه؛ ولذلك قال الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة تفسيره: «كيف يلتذُّ المسلم بتلاوة القرآن إذا كان لا يفقه معانيه؟!».

وقول الشَّعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما من آية إلَّا وقد سألت عنها، ولكنَّها الرِّواية عن الله»، يدلُّ علىٰ تعظيم كلام الله عند السَّلف أن يقولوا فيه بغير علم.

ثمَّ قال شيخ الإسلام: هذه الآثار تدلُّ علىٰ تحرُّجهم - يعني السَّلف - عن الكلام في التَّفسير بما لا علم لهم به، فأمَّا من تكلَّم بما يعلم من ذلك لغةً وشرعًا، فلا حرج عليه، إذن كلام العالم في معاني القرآن عن علم لا حرج عليه فيه، وتعليم معاني القرآن يجب وجوب كفاية، ولذلك ختم شيخ الإسلام هذا المصنَّف بتبيين ما يجب علىٰ العلماء تبيينه من العلم النافع، واستدلَّ بقوله تعالىٰ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وبقول النبي ﷺ: «**من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار**» والعياذ بالله، لكن هذا التبيين له شرط، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فليحذر المسلم من القول علىٰ الله بغير علم وبغير الحقِّ.

ثم ختم شيخ الإسلام ابن تيميَّة هذه الرِّسالة النَّافعة في منهجيَّة طلب علم التفسير بقول ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «التَّفْسِيرُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا»؛ يعني مدلول ألفاظ بعض الآيات هو معناه اللغوي، وقد ذكرت لك

أنَّ المعاني ثلاث: لغوية، وشرعيَّة، وعرفيَّة، والأصل في خطاب الشَّرع الحقيقة الشرعية؛ لأن النَّبي ﷺ بُعث ببيان ذلك، لكنْ هناك ألفاظ ليس لها إلَّا الحد اللُّغوي، فيُرجع فيها إلىٰ المعنىٰ اللُّغوي، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ [التين: ١] قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وهو الذي أخذ التَّفسير عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا -: «هو تينكم وزيتونكم»، فهذا هو المقصود من قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «تعرفه العرب من كلامها».

وقول ابن عباس: (وتفسير لا يعذر أحد بجهالته)، يعني تفسير يعرفه كل النَّاس الذين يعرفون لغة القرآن، وهذا عامَّة القرآن، فلا يستبهم ولا يستغلق معناه علىٰ كل المسلمين ممَّن يعرف لغة القرآن، تجد أن عامة معاني ألفاظ القرآن يعرفها العامِّي فضلًا عن العالم وطالب العلم، إلَّا أشياء يسيرة جدًّا يحتاج إلىٰ سؤال العلماء عنها؛ لأنَّ الله يسَّر القرآن للذِّكر، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القمر: ١٧]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يسَّرنا ألفاظه للحفظ، ومعانيه للفهم، وأحكامه للعمل.

وقال الكافيجي - وهو من طلَّاب ابن حجر - في مصنَّفه في قواعد التَّفسير: «الله أخرج خطابه في أيسر الألفاظ وأقربها للفهم».

لأنَّ هذا من صفات الحقِّ، ولأنَّه من البلاغة، بلوغ المعنىٰ بالألفاظ اليسيرة من غير تكلُّف، لا كما يفعله المبتدعة والمتكلِّمون، أو من أراد إظهار الحذق في استعمال وحشي الألفاظ وغريبها، وفي هذا أيضًا حثٌّ علىٰ اتِّباع أسلوب ومنهج

القرآن في تعليم العلم وتصنيف المصنَّفات، بالبيان بالألفاظ اليسيرة في الفهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧]، وهكذا صنع الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مصنَّفاته، كل مصنَّفاته يفهمها العاميّ وطالب العلم، خصوصًا ما يتعلَّق بالعقيدة، و«كتاب التَّوحيد» ميسَّر للفهم لكل طبقات المتعلِّمين: العاميّ، وطالب العلم، والعالم، لو يقرأه كل أحد لا يستغلق عليه معناه، فاتَّبَعَ طريقة القرآن في التعليم، وممَّن سلك هذا المنهج العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كذلك شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فمؤلفاتهم «علمٌ محرَّر في أسلوب ميسَّر»، وأنتم يجب عليكم أيضًا أن تلتزموا أسلوب القرآن في التعليم.

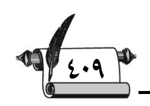
العامِّي تراه يسمع القرآن ممَّن يتلوه أو يقرؤه، سبحان الله! إذا قرأ آية فيها ثواب الطَّاعات استبشر، وحثَّته علىٰ فعل ذلك، وإذا قرأ الآيات في الوعيد في المنهيَّات انزجر عن ذلك وأورثه خوفًا وخشية من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإذا قرأ النُّصوص في نعوت الله وأسمائه وصفاته أورثه ذلك تعظيمًا لله، وإيمانًا به، وتألُّهًا له بمقتضىٰ هذه الأسماء والصِّفات، ومن الأعراب من سمع النَّبي ﷺ يقول: «**يضحك ربُّنا**» فقال الأعرابي: أويضحك ربنا؟ قال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، قال: لن نُعدم خيرًا من ربٍّ يضحك.

وكذلك ما يتلوه المسلمون من آيات الأحكام أكثره ميسَّر للفهم لا يستغلق عليهم معناه، ولذلك قال النَّبي ﷺ: «**الحلال بيِّن والحرام بيَّن، وبينهما أمور مشتبهات**»، يعني قليل جدًّا من النُّصوص التي تستبهم علىٰ عامة المسلمين

فيحتاجون إلىٰ سؤال العلماء عنها، قال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

وقول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «وتفسير يعلمه العلماء»، أفادنا أن من العلم ما لا يعرفه الجهَّال ويعرفه العلماء، وهناك علم استأثر الله به، ككيفية صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أمَّا معاني الصِّفات، فهذه يعلمها النَّبي ﷺ، وعلَّمها الصَّحابة، وعلَّمها الصَّحابة للتَّابعين، لذلك فسَّر التَّابعون كأبي العالية ومجاهد وهم من أئمة التَّفسير الذين أخذوا التَّفسير عن الصَّحابة؛ فسَّروا الاستواء بالعلو؛ كما ذكر ذلك عنهم البخاري في «صحيحه» تعليقًا مجزومًا به، وفسَّره هكذا علماء أهل السُّنَّة وصار هذا قاعدة سلفية في اعتقاد الأسماء والصفات لله، فقد سُئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الاستواء، فقال: «الاستواء معلوم»، يعني معناه وهو العلو، «والإيمان به واجب، والكيف مجهول»، يعني: كيفية الصِّفة وكنه الصِّفة لا نعلمه، لأنَّ الله ليس كمثله شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].







الخاتمة

هذه الرِّسالة من أنفع المصنَّفات في بيان مناهج المفسِّرين، وطرق تلقِّي علم التَّفسير، ومن استعمل هذا المنهج بعد الاستعانة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في طلب فهم القرآن ومعانيه وأخذ ذلك بمشافهة العلماء، وبالقراءة أيضًا من كتب التَّفسير النقيَّة، يدرك خير هذا العلم، ويدرك هذا العلم ولا يشقّ عليه، ومن أنفع كتب التَّفسير في ذلك التي تبيِّن معاني الآيات ومقتضىٰ دلالة الألفاظ، وتفسير القرآن والسنة للقرآن، وتفسير الصَّحابة والتابعين للقرآن، وأقوال المفسِّرين في ذلك، وما كان منها في معنىٰ بعضها البعض، وما كان منها من التَّفسير بالمثال أو باللازم هو تفسير العلَّامة المجدِّد محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وحُقَّ أن يوصف تفسيره بأنَّه «التَّفسير المحقَّق»، فجزاه الله عن الإسلام خيرًا.

وهذه الرِّسالة اعتنىٰ بها العلماء شرحًا، ومن أفضل الشروحات في ذلك شرح شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

وهذه الرِّسالة ضمَّنها الحافظ ابن كثير مقدمة تفسيره قبل أن يشرع في التَّفسير تبيانًا لمنهجه في تفسير القرآن، الذي التزمه؛ لذلك كان تفسيره من أنقىٰ التَّفاسير، وأكثرها قبولًا، ولا يوازيه تفسير آخر، حتىٰ في قول بعض من يخالف أهل السُّنَّة في العقيدة كالسّيوطي حيث قال: لا يوازي تفسير ابن كثير تفسير آخر.

هذا والله أعلم، وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.





دليل الموضوعات

❁ ❁ ❁